قراءة إسلامية
لتاريخنا الحديث

أنور الجندي

دار الاعتصام

بسم الله الرحمن الرحيم

(قراءة إسلامية فى تاريخنا الحديث)

مدخل الى البحث

تاريخنا الحديث والمعاصر (فى مصر والوطن العربى) هو فى حقيقته جزء من تاريخ الاسلام لا ينفصل عنه مهما علت صيحات الاقليميات والقوميات فان هذه الأمة قد صنعها القرآن الكريم وبناها الاسلام منذ اربعة عشر قرنا وهى منذ ذلك اليوم لم تنفصل عنه بعد ان صبغها بصبغته واذابها فى بوتقته وبعد أن قطع بينها وبين ماضيها القديم كله الذى أصبح حسب تعريف الباحثين فى علم التاريخ يمثل (الانقطاع الحضارى) وعندما حاول التصور الغربى أن يوقظ هذه المثلات القديمة من فرعونية وفينيقية واشورية وبابلية وغيرها لم تستطع احداها أن تشكل وجودا حقيقيا لانها لم تعد تمثل الا مرحلة تاريخية يمكن ردها الى مصدرها الأول حين خرجت من الجزيرة العربية على هيئة موجات انداحت فى المنطقة من العراق الى الشام الى مصر الى افريقيا .

ولقد بقى تاريخ المنطقة مرتبطا بالاسلام الذى كان هو مصدر التأثير والتكوين والنمو والامتداد حتى جاء العصر الحديث حين جاءت الحملة الفرنسية وجرت محاولة التغريب الى فصل مصر عن تاريخها كله تحت مسميات جديدة وبدعوى أن المسلمين والعرب كانوا قد بلغوا مرحلة من مراحل الضعف ثم جاءت الحملة الفرنسية لتوقظهم وكان ذلك من أكبر المغالطات التى روج لها الاستعمار والنفوذ الغربى وكانت الحقيقة أن الحملة الفرنسية انما جاءت حين أحس الغرب بأن هناك يقظة اسلامية أصيلة مستمدة من اللغة العربية والعقيدة والفقه الاسلامى على النحو الذى اتبعه الائمة الخمسة والذى جاءت الحملة الفرنسية للقضاء عليه وتدميره .

ومنذ ذلك الوقت وقع تاريخ مصر والمنطقة كلها تحت تأثير النفوذ الاجنبى متمثلا فى الحملة الفرنسية وفى الدور التغريبى الذى قام به محمد على

ورفاعة الطهطاوى حتى جاء جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده لاعادة تصحيح الصورة والعودة الى المنابع والتماس الاصالة .

ولكن الاستعمـار البريطانى حين جاء عمل على بنـاء قوة ثقـافية واجتماعية موالية له فقد عمد كرومر الى اعداد جيل من أصحاب الولاء الغربى الذين قبلوا الالتقاء به فى منتصف الطريق فنشأت تلك المدرسة التى كونها لطفى السيد وسعد زغلول وعبد العزيز فهمى .

والتى كان أساسها حزب الامة وجريدة (الجريدة) والتى عملت على تصفية جهـاد الوطنيين والمقاومين للنفوذ الأجنبى على نحو أو آخـر حتى دانت لهم مصر بالولاء قبل انتهـاء الحرب العالمية الأولى حيث اعد المسرح تماما لاولياء هذه المدرسة التغريبية التى حكمت مصر خلال هذه الفترة الى أن أسقطتها حركة الجيش ١٩٥٢ .

وكان لهذه المدرسة آثارها السياسية وآثارها الفكرية وكان طه حسين هو رأس حربة التغريب ومن خلال المفاهيم المغربة ظهرت قضايا وقيم تختلف تماما مع مفهوم الاسلام وفكرة وثقافته ، يبدو هذا واضحا حين تقارن بين كتابات طه حسين والعقاد وهيكل من ناحية وبين كتابات اقبال ومصطفى صادق الرافعى والمنفلوطى من ناحية أخرى .

والحقيقة أننا كنا فى حاجة الى تقديم هذه المراجعة لنكشف عن وجهـة نظر الاسلام مجددا فى هذه المرحلة وفى التراث الذى قدم خلالها وان كنا قد تناولنا ذلك على نحو أو آخر فى كتابينا :

١ ــ اليقظة الاسلامية فى مواجهة الاستعمار .

٢ ــ اليقظة الاسلامية فى مواجهة التغريب .

كذلك فى كتابينا :

١ ــ اعادة النظر فى كتابات العصريين .

٢ ــ جيل الرواد والقمم الشوامخ .

واذا كان العلمانيون قد قدموا تصورهم لهذه المرحلة ممثلا فى كتابات لويس عوض وغيره كما أن الماركسيين قدموا تصورهم ممثلا فى كتـابات محمود أمين العالم وغيره فقد كان من الضرورى أن نجلى وجهة النظر الاسلامية لهذه المرحلة فكان هذا البحث ، وبالله التوفيق ،،،

الباب الأول

الأئمة الخمسة فى مواجهة الحملة الفرنسية

جاءت الحملة الفرنسية الى مصر بعد وقت قليل من الثورة الفرنسية فى مخطط مرسوم لهدم اليقظة الاسلامية التى اخذت تتشكل من خلال الازهر وعلماء المسلمين فى مصر واليمن والحجاز ، هؤلاء العلماء الذين كونوا منهجا أصيلا وفى مقدمتهم :

١ — محمد بن عبد الوهاب : العودة الى التوحيد الخالص .

٢ — الزبيدى : بعث التراث اللغوى والدينى .

٣ — الشوكانى : رفض التقليد فى الدين .

وهى مدرسة بدأت بالامام البغدادى الذى رد على الأمة قدرتها على تذوق اللغة والأدب وعلوم العربية ثم جاء الجبرتى الكبير الذى كان مشغولا بالعلوم التجريبية (وذلك وفق التصنيف الذى قدمه الاستاذ محمود محمد شاكر فى دراسته) .

وقد أحس الغرب أن هذه اليقظة ستدفع الأمة الاسلامية الى طريق القوة وامتلاك الارادة ومن هنا وضعت الخطة التى حملت لوائها الحملة الفرنسية بقيادة نابليون لتدمير مصدر الخطر وهو الأزهر الشريف .

ومن ثم جاءت الحملة الفرنسية على طريق الثورة الفرنسية التى حملت لواء هدم العقيدة الدينية واعلاء شأن الالحاد وتمزيق الوحدة السياسية فى أوربا (كآخر مرحلة لمخطط الماسونية) من أجل اعطاء اليهود القدرة على السيطرة وهدم نفوذ الكنيسة واعلاء شأن العنصر والقومية بدلا من الدين .

وقد حملت معها فكرة (العلمانية) التى كانت تمثل السعى الى النهضة والتقدم عن غير طريق الدين ثم اتسع نطاق هذا المفهوم من بعد فصار

سمة تميز فكر القوى المناهضة للدين : أى دين (على حد تعبير الدكتور السيد حسن فراج فى كتابه جذور العلمانية) .

وقد لاحظ الجبرتى بنظرته الثاقبة خطورة هذا التغيير الذى وضــع الفرنسيون ركائزه مما كان له أبعد الاثر فى تحول المجتمع وتحلل الاخــلاق والقيم وظهور السفور والاختــلاط واباحة البغــاء وتبرج المرأة المصرية المســلمة .

وقد أثر ذلك فى علماء الدين الذين والى بعضهم المستعمر ، فلما خرج الفرنسيون عاد المماليك الى اسوأ مما كانوا وانتشر الربا والاختلاط بالأجانب وموالاة غير المسلمين .

وقد استطاعت الحملة الفرنسية هدم هذا الصرح العلمى الذى تشكل فعــلا داخل الازهر باقتناص فرائس العلم واقتحام الازهر وتدمير وجوده .

وكان اخطر ما فى هذه المرحلة توقف المجتمع عن تطبيق الشريعة فلما جاء محمد على استفاد من هذا الجو فائدة كبيرة فأوقع بين العلماء وكسبهم الى صفه عندما حاولَ (عمر مكرم) المطالبة بالعدل للشعب وظل يعــارضه ويحجبه حتى عزله نهائيا وانفرد بالسلطة ، وقد سار محمد على على طريق واضح :

١ ــ انقاذ ما حاولت الحملة الفرنسية عمله وكان أخطر ما فى ذلك تدمير قاعدة الاســلام التى شكلها الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى الجزيرة العــربية .

٢ ــ الولاء للغرب سياسيا واجتماعيا واستقدام جماعة سان سيمون وارسال البعثات التى تحمل لواء التبعية .

وقد كانت حروبه كلها بسلاح فرنسى ومشورة فرنسية وخبراء عسكريين فرنسيين وكانت تحقيقا للتخطيط الذى رســمه المستشرق الفرنسى فولتى الذى حفظه نابليون عن ظهر قلب قبل حملته على مصر والشــام وتحطيم الخلافة العثمانية .

ومن هنا كان محمد على امتدادا غربيا لنابليون والنفوذ الغربى ومبادىء العلمانية التى أرساها نابليون وجيوشه الفرنسية التى مكن لها محمد على بعد أن قوض سلطة الازهر واضعف نفوذ علمــاء الدين حتى أن الكتب التى

ترجمت فى فنون شتى ترجمت برغبة الاوربيين الذين أرادوا نشر ادابهم فى البـــلاد .

واخطر ما هنا لك انه اقام نظاما تعليميا علمانيا وحجب امتداد الأزهر ونفوذه وأوجد الثنائية بين التعليم المدنى والتعليم الاسلامى .

كما سيطر على أوقاف الأزهر فأصبح العلماء خاضعين للحاكم وحرم المشايخ من سابق وظائفهم التى هيمنوا بها على المجتمع وحكم عليهم بالعزلة التـامة .

وقد سيطر على هذا الاتجـاه (رفاعة الطهطاوى) تلميذ المستشرق جومار الذى صنعه فى فرنسا على وجهة التغريب .

ولم يكن رفاعة فى وعى الجبرتى الذى كان يقظا الى التفرقة بين التبعية للغرب وبين الاخذ بمقـدار لخدمة الأمة وترقيتهـا فقد استقبح الجبرتى مستحدثات الفرنسيين والتحلل من المثل الاخلاقية التى انطبع بها المجتمع المصرى وتحدى العرف الاسلامى .

اما رفاعة فقد أقر التغريب جملة وعايش محمد على ابراهيم وعباس وسعيد واسماعيل وانعم عليه بالرتب والتشريفات والحق بها قطاعات هامة حتى ترك لورثته ما يزيد على الف وستمائة فدان .

وكان له دوره فى ترجمة القانون الفرنسى .

وقد استمر هذا التيار قرابة أربعين عاما حيث دخلت ارساليات التبشير فى عهد سعيد الى مصر وبدا نشـاط الأجانب وجاء اسماعيل بعد سـعيد فألغى المحاكم الشرعية وفصل بذلك بين المسلمين وبين الخيط الباقى الأخير عندما انجز قلم الترجمة برئاســة رفاعة ترجمة القــانون الفرنسى المدنى والجنائى الى العربية ١٨٦٣ م .

وقد مهد هذا كله للاحتلال البريطانى الذى وصف بانه (الحملة الصليبية) الثامنة التى انتصرت بعد ان باءت الحروب الصليبية السابقة بالفشل كما تسمى الحملة التى قادها اللورد اللنبى على القدس أثناء الحرب العـالمية الأولى بالحملة الصليبية الأخيرة كختام لحملات الغرب المسيحى على المسلمين فى اسبانيا وفى المغرب وفى الشام ومصر .

وقد كلف الخديو اسماعيل رفاعه الطهطاوى بترجمة القانون الفرنسى الوضعى عام ١٨٦٣ للعمل به فى المحاكم بعد الغاء العمل بالشريعة الاسلامية ومن هنا يكون اسماعيل قد سبق مصطفى كمال أتاتورك فى الغــاء الحكم بالشريعة الاسلامية .

وهكذا يمكن القول أن أول علامات المقاومة النفوز الغربى الذى سيطر على الفكر الاسلامى قد بدأ من خــلال الحركة التى قام بهــا جمال الدين الافغانى ومحمد عبده ورشيد رضا .

فقد بدأت فعلا المواجهة من رموز الفكر الغربى على النحو الذى قام به جمال الدين فى كتابه (الرد على الدهريين) ومراجعة محمد عبده لكتابات هانوتو وفرح انطون وهى الكتابات التى كشفت عن معطيــات الاســلام للحضارة الانسانية والمقارنة بين ذلك العطاء وبين موقف الاديان الاخرى .

ولابد أن نسجل هنا موقف (على مبارك) فى كتابه (علم الدين) من حيث سلامةنظرته الى الاسلام ودوره فىعطاء الحضارة الغربية ودور المسلمين فى استعادة دورهم مرة أخرى جامعين بين علوم الدين والدنيا بوصفهما معا (علم اسلامى) واحد .

● ● ●

وهكذا وقبل أن يتفرع بنا الحديث نستطيع أن نسجل أن حركة اليقظة الاسلامية بدأت من قلب الأمة الاسلامية ، وليس من الحملة الفرنسية كمــا يدعى المدعون ، بل هو العكس فان الحملة الفرنسية قد ثبت أنها جــاءت لهدم هذه اليقظة .

كانت اليقظة الاسلامية سنة طبيعية تتجدد بها الامة الاسلامية بالعودة الى منابعها كلما طال بها الزمن واصابها الجمود واصابتها الجبرية من تغلب مذهب أو استعلاء ظالم أو فتور ووهن .

وهنا يدفع الاســلام الامة الى الانبعــاث من الداخل بالعــودة الى منابعها على النحو الذى عرف من خلال دعوات ابن حنبل وابن تيميه ومن بعده دون توقف .

أما فى هذه المرحلة فقد جاءت علامات التجديد من خلال العقيدة واللغة

وبعث التراث ، جاءت هذه المرحلة عشية الحروب الصليبية وغزو التتار ثم انحسار السلطان العثمانى .

وحسب تقدير المؤرخين والباحثين الاعلام فانهم خمسة الذين أوقظوا المسلمين :

١ — البغدادى — ١٦٨٣ م حيث رد على الامة قدرتها على تذوق اللغة والادب وعلوم العربية .

٢ — الجبرتى الكبير — ١٧٧٤ م حيث تولى تجديد علوم الهندسة والكيمياء.

٣ — ابن عبد الوهاب ١٧٩٢ م العودة بالاسلام الى المنابع وتحرير عقيدة التوحيد .

٤ — الزبيدى ١٧٩١ م — حيث قام ببعث التراث اللغوى والدينى .

٥ — الشوكانى ١٨٣٤ م — حيث أعلن رفض التقليد فى الدين .

وهكذا شاركت مصر والجزيرة العربية (العوينات — تعز) فى هذه الصحوة التى جاءت الحملة الفرنسية للقضاء عليها وتفريغها من أهدافها .

وكانت ظاهرة تجديد التراث الاسلامى واحيائه وبعثه وتجديده سنه طبيعية بعد حملات الغزو الصليبى والتترى وفقدان المسلمين لعدد ضخم من تراثهم خلال الحملات الصليبية التى حرقته واغرقته فى نهر دجلة .

وفى مرحلة تسبق مرحلة سرقته وجمعه وتصديره الى أوربا بعد وصول القناصل الاوربيين ، وسيطرتهم على بلاد المسلمين .

(٢)

هنـاك اجماع فى كتابات المؤرخين الاوربيين على أن كانت هناك نهضة اجتماعية فى مصر والشـام قبل وصول الحملة الفرنسية بأكثر من أربعين عاما .

(يشير الى ذلك مؤلف كتاب الجذور الاسلامية للرأسمالية — مونته الامريكى) .

هذه التيارات الفكرية التى صاحبت هذا التغير الاجتماعى والاقتصادى هل كانت تيـارات مستوردة من الغـرب كما يقول بعض المؤرخين أم أن

لها أصولا اسلامية أثبتها مفكرون مسلمون لم يكونوا قد أطلعوا على أعمال فلاسفة العصر الاوربى بل لم يكونوا يعرفون لغة غير العربية .

يقول بيتر جران (على ما ترجمه سامى خشبه)

ان الفكر العلمى الاسلامى الذى انتجه شيوخ الأزهر المصريون لم يشرع فى التبلور الا منذ منتصف القرن (١٨ م) حتى أجهضته التحولات الكبرى فى عصر اسماعيل فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ويرى بيتر جران — أن حملة نابليون على مصر وفلسطين لم تكن كما قال مقدم وصف مصر ولاما قال كلوت بك هى المحرك الذى حفز العقلية المصرية الى الاستنارة والبحث عن الحداثة بل على العكس : ان هذه الحملة الاستعمارية اجهضت التصور الاقتصادى الفكرى الحقيقى والاصيل والقومى فى مصر .

ومهدت السبيل الى غرس فكرة استيراد واستعارة نماذج الثقافة والتحضر ومناهجها الغربية .

ويقرر أن مصادر هذا الفكر لا توجد **إلا فى الكتب والمخطوطات المصرية** الموجودة فى مكتبة الازهر ودار الكتب والتى ظل الدارسون المحدثون يصرفون النظر عنها منذ عصر محمد على .

وقد بدأ التأثر بالغرب بمقولة باطلة وهى أن هذه الكتب مجرد شروح سقيمة لكتب قديمة أكثر سقمها بينما هى كتب فى علوم دنيوية هامة للاقتصاد والحساب والزراعة والرى والمواريث وقد ألفت هذه الكتب مستندة الى مصطلحات والى تراث علوم الحديث الشريف وعلم أصول الفقه الاسلامى

وفى ظل طغيان الدولة الفردية (محمد على) والتضييق على النشاط الفردى تدهور الاهتمام بعلم الحديث وما صاحبه من علوم التاريخ والمنطق والادب وفقه اللغة وزاد الاهتمام بعلم الكلام الذى يستخدم عادة لتبرير الواقع القائم ووضع العقول فى اقفاص المجردات المطلقة .

وقد كان هدف الثورة الفرنسية العمل على احتلال مصر وشمال افريقيا واستخدامها كقواعد لمحاربة انجلترا فى الشرق وقطع طريق مواصلاتها الى الهند .

ويشير (بيتر جران فى كتابه الجذور الاسلامية للرأسمالية) :

الى الانفصام التعليمى والثقافى الذى غرسه محمـد على وابنـاؤه وخاصة اسماعيل ففصل التعليم الحديث عن نظامنا التعليمى القديم هو الذى حرم الوعى الثقافى بتراث وتاريخ وتطور ذلك التراث بينما اقفل الابواب وسد الطرق امام التطور الاصيل الذاتى والبالغ الحيوية للنظام القديم .

ولولا ذلك لكان للشيخ الزبيدى اثر فى ثقافتنا القومية يماثل ما كان من اثر العلماء والمفكرين الانسانيين فى الثقافة الغربية ولو تواصلت حركة وعى ثقافتنا القومية ولو لم تجهضها اوربا بالحملة الفرنسية ثم بضرب محمد على لها وفرض التغريب على تجربة اسماعيل والقضاء على النمو الاقتصـادى والاجتماعى لولا كل ذلك لكان لأدور الذى قام به مرتضى الزبيدى اهمية كبرى تعادل دور فرنسيس بيكون .

فمن هو مرتضى الزبيدى الذى عرفه مؤرخو الغرب ونسيناه ؟

لقد الف الزبيدى (تاج العروس) .

اول معجم كبير مؤلف بعد اربعة قرون من التجمد ، فقد صدر المحيط ٨٠٣ هجريه ولسان العرب ١٢٠٣ وجاء التاج فكان خمسة اضعاف المحيط وضعف لسـان العرب .

وهو اول معجم يتحول الى موسوعة تستوعب غالبية المعرفة المسجلة بهذه اللغة بما يعنى أن الزبيدى أدرك أن اللغة لا تتوقف عن النمو رغم أنها ترتبط برباط لا ينفصم عن اصولها وقد أدرك أن اللغة العربية ليست مجرد وعاء لعقل الامة وانما هى التعبير المنطقى والطبيعى عن عقل الامة .

وقد تميز الزبيدى بانه ربط المصطلح العربى القـديم فى القـاموس للفيروزبادى بالتراث والعصر وجدد بعقلية نقدية وعلمية واعية علوم اللغة والمعاجم وعلوم الحديث والتفسير والفقه والتاريخ وربطهـا ربطا واعيـا ومباشرا باحتياجات الحياة العقلية (العملية والعاطفية ، الدينية والاقتصادية) اعتمادا على تراث امته العربى الاسلامية فى علاقة بالغة الوعى مع هذا التراث وقد اشار الباحثون الذين ارخوا له انه قدم لتلاميذه (الجبرتى وحسن العطـار) ميدآن جوهريان هما :

اولا : ضرورة العودة الى تراث العلوم العربية العظيمة الغنية فيما بين القرنيين الأول والتاسع الهجريين .

ثانيا : ضرورة الوعى بالمستوى العلمى والاحتياجات العلميـــة التى انتجت تلك العلوم واوقفتها عند الحدود التى وقفت عندها .

ومن هذين المبدأين تقرر ضرورة ان يستجيب الانتاج العلمى لحاجات العصر من ناحية وأن يكون هذا الانتاج حوازا نقديا وواعيا مع تراثهم ومع عالمهم وعصرهم فى وقت واحد .

ويقدر الباحثون ان (تاج العروس) ليس مجرد عمل لغوى ، بل هو أهم واكبر عمل فكرى انتجه العرب فى القرن الثامن عشر وهو أوضح تعبير عن تحرك الثقافة الاسلامية (الاصيلة) ولا تقول التقليدية ـ بقوتها الذاتية نحو عصر جـديد كان يتخلق ايضـا بشكل موضوعى واصيل فى المجتمع المصرى .

(٤)

تاج العروس فى شرح جواهر القاموس :

وقد أصبح تاج العروس موسوعة هائلة ضمت كل العلوم المكتوبة باللغة العربية تقريبا وكان شرحا ونقدا لاخر ما كان العرب قد انتجوه من معـاجم وهو معجم (القاموس المحيط) الذى الفه العلامة ابو طاهر الفيروزبادى قبل نحو أربعة قرون فتحول الى محيط زاخر واستوعب جميع المعاجم العربية السابقة الكبرى وتجاوزها بالشرح والنقـد الواعى وبالاستجابة لحاجات عصره من المصطلحات ومن الوعى باستخدام اللغـة وطبقاتها ومعـانيها ووظائفها .

يقول الدكتور حسن نصار فى كتابه المعجم العربى : نشأته وتطوره : ان الزبيدى ذكر فى مقدمة التاج مائة وعشر من مراجعه العربية مبينا مراجع فى اللغة كالمعاجم والرسائل والنحو والصرف والبلاغة وكتب فى الامثـال والتاريخ والادب وعلوم القرآن وكتب فى الجغرافيا والحيوان والطب والنبات وهذه كانت تشمل علوم الارض والكيمياء والطبيعة والفلك وكتب فى السياسة والقوانين والنظم .

ويقـول المؤرخون الغربيون المنصفون ان (تاج العروس) ما زال يقوم بالنسبة للغة العربية بنفس الوظيفة التى يقوم بها قاموس اكسفورد للغة الانجليزية .

وذلك لعدة أسباب هامة :

أولا : اهتمام الزبيدى بالمعانى المجازية لمفردات اللغة وليس فقط للمعانى الحرفية .

ثانيا : اهتمامه بالاستخدامات الفعلية والعملية للطلبات بالاضافة الى اهتمامه بالاصول الاولى والجذور الاصلية لكل كلمة سواء وردت هذه الكلمة فى القرآن أو الحديث او الشعر الجاهلى أو لم ترد .

وهو يؤمن بأن اللغة العربية هى محور عقل امتنا وعقيدتها بما فيها علوم الدين وقطبه ورحاه ومنها علم الدنيا وتقصيه ومرتجاه فعرف أنه لكى يجعل اللغة التى هى وعاء العقل والعقيدة وسيلة فهم الحياة الدنيوية والسيطرة عليها قادرة على القيام بوظيفتها فلابد من اعادتها الى الحياة فقاده ذلك كله الى جملة علوم ومن قواعده الاساسية التى تعلمها من الطيب الفاسى المغربى استاذه فى المدينة : **ان تجديد علم الحديث وعلم التفسير تحتاج أولا الى تجديد علوم اللغة فبدون معرفة كاملة باصول وتطورات مفردات اللغة وبلاغها ومدلولات المفردات يمكن ان يقع عالم الحديث فى فهم قاصر** أو فهم خاطىء للحديث فرواية الحديث وحدها لا تكفى ولابد من الدراية والتحليل والفهم . ا . هـ .

(٥)

جاءت الحملة الفرنسية الى مصر ١٧٩٨ (فى نهاية القرن الثامن عشر وكانت فكرة التحديث وتغيير أساليب ونظم الانتاج والعمل والحرب لم تبدأ بعهد على بك الكبير بل بدأت قبله بشكل متناثر ومن خلال جهود فردية يذكرها باشوات عثمانية أو بكوات من المماليك بل بذل بعضها شيوخ قبائل وحكام أقاليم ولم يقتصر ذلك على مصر بل امتدت الى سوريا والعراق وتونس وتركيا فى محاولات متشابهة .

وقد أشار كثير من كتاب الغرب الى ذلك .

(ما يهو — هنرى رودويل — جون لفنجستون) .

وقد استمرت هذه المحاولات فى مصر حتى الى لحظة وصول الحملة

الفرنسية وأثناء وجودها وبعد رحيلها وان كان لم يكلل لها النجاح أما لانها جزئية وتأتى من جانب قوى لم تملك السلطة أو لم تملك الرؤية الشــاملة اللازمة لعملية هائلة من هذا النوع كما أنها محاولات تمت فى اطار سياسى دولى غير موات أو معاد لها .

وقد تدفق فى هذه الفترة علماء كثيرون وطلاب علم ورزق وتوسعت دواوين المغتربين حول الازهر وديوان المغاربة والشوام وديوان الروام الترك والسودانيين وكان الاتجاه نحو احياء علوم اللغة والمعــاجم وعلوم التــاريخ والفقه فضلا عن منظمات الطرق الصوفية التى شهدت انتعاشا هاما تحت زعامات فكرية (فنية وادبية وعلمية مصرية مثل السادات والوفائية والبكرية وبين مشيخة الازهر (الشيخ عبد الله الشرقاوى) الذى تودد اليه نابليون كثيرا ومجالس الادباء حيث دار الحديث حول قضايا اللغة العربية وعلم الحديث والتفسير وتاريخ الادب العربى فى الجاهلية وصدر الاسلام .

وجملة القول : أن الحملة الفرنسية لم تكن خادمة لليقظة بل هادمة لها وانها أجهضت التطور الاقتصــادى والعسكرى الحقيقى والاصيل فى مصر ومهد السبيل الى غرس فكرة استيراد واستعارة نماذج الثقافة والتحضر ومناهجها الغربية .

وأن محمد على كان مرحلة تالية على طريق الحملة الفرنسية لتــأكيد نفوذ التعريب حين فصل بين العلم والاسلام واقام نظاما علمانيا للتعليم ، جاءت بعــده خطوات حجب الشريعة وفرض القــانون الوضعى فى عهــد اسماعيل .

وقد عمل محمد على على تحقيق غايتين كبيرتين لتثبيت النفوذ الاجنبى :

أولا : ضرب الحركة الوهابية فى حرب دامت ثمان سنوات قتل فيهــا الآلاف من المسلمين .

ثانيا : فكرة البعثات العلمية نتيجة لتأثير القناصل والمستشرقين بنــاء على تخطيط وتدبير لاهداف بعيدة المدى مما جعل محمد على قوة لها فى قلب دار الاسلام تصرفه كيف يشــاء .

وقد قام مشروع محمد على فى البعثات العلمية تحت اشراف المستشرق جومار وتوالت بعثات الشباب المسلم ليضعهم جومار تحت ايدى المستشرقين يوجهونهم ويعلمونهم وكان فى مقدمة هؤلاء (رفاعة الطهطاوى) الذى وقع فى

ابديهم كصيد ثمين ليبقى فى باريس خمس سنوات يعود بعدها حاملا ريادة النهضة الحديثة .

ملحق البحث :

ظن محمد على الكبير حين ولى أمر مصر أنه سوف ينقل الحضـــارة الاوربية الى مصر باقصاء الشريعة الاسلامية واحلال القـــانون الوضعى المستمد من فرنسا المتحضرة وككل بنيـــان ينهض بلا أساس فقد انهـــارت امبراطورية محمد على تماما كما انهارت أحلام عبد الناصر فى يونيو ١٩٦٧ وخطأ الاثنين فاضح وواضح فالاول نحى الشريعة الاسلامية وظن الثانى أن الدين من علامات التخلف .

ولم يقرأ أحدهما التـــاريخ فيرى كيف انتصر صلاح الدين وكيف هزم لويس التاسع ملك فرنسا ولا كيف انهزم ملوك أوربا وأباطرتها فى فلسطين ولا عرف اى منهمـــا كيف كانت جيـــوش المسلمين تنشر الحضـــارة والخير والرخـــاء .

ان الشريعة الاسلامية تقدم نفسها دائما فى كل حين حـــلا لمشـــاكلنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية حلا حتميا بعد أن فشلت كل الحلول الاشتراكية والرأسمالية والموجهة ونحن حين نستبدل هذا القانون ونحـــل محله قانونا آخر نضل دائما ونفقد الطريق أبدا وتتناقض مع مسألة هى فى الاصل عقيدتنا .

لقد فشلت كل القوانين الوضعية فى ردع المنحرفين ، ولم يعد هناك عقابا زاجرا كافيا للتاديب والتهديد لان العقوبات فى اطـــار القانون الوضعى يقوم كليا على ايلام الجسد بينما يخاطب الدين : النفس والعقل والجسد .

أن الدين ينفذ الى زوايا الانحراف فى البنيان الانسانى فيقومهـــا فهو يوقظ الضمير النائم ويشيع الخوف من عقاب الله تبارك وتعالى .

المراجـــع :

محمود محمد شاكر (١) بحث عن مقدمة فى الطريق الى ثقافتنا

سامى خشبة (٢) مراجعة سامى خشبة لكتاب الجـــذور الاســـلامية للراسمالية تأليف بيتر جران .

دكتور السيد احمد فرج (٣) جذور العلمانية .

الباب الثاني

جمال الدين الأفغاني

فى مواجهة مذهب الدهريين

كان جمال الدين الافغانى علامة على مرحلة جديدة من اليقظة الاسلامية استمدت من سابقتها (محمد بن عبد الوهاب والشوكانى ...) وغيرهما مفهوم التوحيد الخالص واضاف اليه عدة عناصر اساسية :

الأولى : اعلاء شأن القرآن بوصفه المصدر الأول للفكر الاسلامى ومنطلق النهضة .

الثانى : الدعوة الى التحرر من نفوذ الاستعمار .

الثالث : التخلص من قيود النفوذ الاجنبى .

الرابع : اقامة الوحدة الاسلامية .

ويمثل جمال الدين الافغانى بدأ المواجهة مع الفكر الوافد وهو الاتجاه الذى سار فيه محمد عبده وفريد وجدى ومصطفى الغلايينى وغيرهم فى الرد على كرومر وهانوتو وفرح انطون وريتان .

وفى رسالة (الرد على الدهريين) رد جمال الدين على تهافت الذين لا يؤمنون بالخلق والبعث وينفون عامل القوة الالهية فى خلق هذا الكون مؤكدا أن الايمان يرقى بالانسان ويساعده فى تحقيق ذاته كما يساعده فى السيطرة على الكون وتطهيره من الفساد وقد عمد الى التدليل على أن التقدم العلمى اذا لم يكن مشمولا بالايمان الدينى الذى يجعله فى خدمة الكون وعمارته لا وسيلة لتدميره صار بلاء على البشر لا وسيلة لاسعادهم (دكتور السيد أحمد فرج — جذور العلمانية) .

ويقرر جمال الدين أن الدين مطلقا هو سلك النظام الاجتماعى ولن يستحكم أساس التمدن دون الدين البتة وان العلم الصحيح الذى يمكن للآدمى أن يصل اليه هو العلم الذى ينهى الانسان عن الفساد فى الارض وسفك الدماء فالافغانى لا يرفض العلم التطبيقى الوافد من الغرب ولكن يرفض تسخير وسائل هذا العلم للتسلط على الشعوب وعبوديتها .

وفى نفس الاتجاه مضى محمد عبده فى الرد على فرج انطون وتحرير مفهوم الاســـلام من اتهامات التخلف والضعف والجمود فضلا عن الكشف عن عجز المسيحية عن العطاء .

وقد فصل هذا الجانب فى كتابه (الاسلام والنصرانية فى العلم والمدنية) تفصيلا وافيا حتى حاول البعض فى السنوات الاخيرة طبع هذا الكتاب تحت اسم آخر مع حجب ما كتب محمد عبده عن المسيحية (فعــل ذلك طاهر الطناحى وعاطف البرقوقى) كما كشف زيف هانوتو وشيعته وكان جمـــال الدين قد رد على اتهامات رينان من قبل .

ومضى فى هذا الطريق خلفاء هذه المدرسة التى استمرت وما تزال حتى اليوم جيلا بعد جيل .

قوام المقولة : رفض الدعوة الالحـــادية العلمـــانية وتقرير مفهـــوم أن الاسلام هو دين العلم والمدنية يدعو الى الاخذ بأسبابها ليصـــل بالمسلمين المعاصرين الى أعلى الدرجات وأرقاها وان العلم يجب أن يرتكز على ركائز الايمان بل هو نابع من الايمان والا صار مدمرا .

● ● ●

قال السيد رشيد رضا ان السيد جمال الدين كان يعتقد اعتقـــادا راسخا فى ان الاسلام هو الذى أحيا الامة العربية الامية التى كانت بعيدة عن الحضارة وجعلها بارشاد القرآن المنزل وهدى النبى المرسل وسيرة السلف الاول أرقى أمم الارض علما وحكمة وحضارة وان ما يرمها به رينان اليوم فسببه محصور فى تركنا لهذه الهداية لا من أجل العمل بها .

وكان جمال الدين فى باريس عندما القى رينـــان محاضرته المشهورة ونشرتها جريدة ورنال دى ديبا فى عددها المؤرخ ٣٠ مارس ١٨٨٣ فنقدها ب رسالة أرسلها الى محرر الجريدة ولكنها لم تنشر قبل ١٨ ماى من السنة نفسهـــا .

(وما نشر كان يحوى تدليسات وتحريفات من قبـــل مترجم المكتوب فى ادارة الجريدة ولعله رينان نفسه وكان أحد محرريها) .

وقد نشر بحث فى مجلة العرفان عام ١٩٥٨ مجلد ٤٦ ص ٢٢٧ عن هذه المحاورة كما وجدت لدى الدكتور محمد حميد الله الهندى (حيدر اباد) .

وقد أوردت العرفان نص ما ادخله رينان على رد جمـــال الدين من عبارات تختلف تماما مع جملة مضمون راى جمال الدين فى الاسلام :

١ ــ الاسلام حائل فى سبيل النهضة .

٢ ــ ان الاسلام اجتهد لخفق العلم وايقاف حركة النهضة .

٣ ــ ان الاسلام دخل البلاد التى فتحها وسرى بعنف، فلم تقدر هذه البلاد أن تبعد نفسها من أسره .

وجملة الامر أن الجواب المنسوب الى جمـــال الدين مفتعل قد حرفه مترجمه تحريفات شنيعة فليس هناك فرق بينه وبين ما قاله رينان وأمثاله من أعداء الاســـلام .

وقال مصطفى عبد الرازق فى بحث له فى جريدة السياسة ٢١ مارس ١٩٢٣ أن رينان نسب الى جمال الدين اقوالا فى رده على محاضرته وأنى اعتقد أن أستـــاذنا جمـــال الدين برىء فهو أولى بالذب عن هذا الدين وقد عاشرناه منذ وطئت قدماه مصر الى أن فارقها وأخذنا عنه كثيرا من العلوم والفلسفة ولم نر فيه فى هذه المدة على طولها وكثرة اجتماعنا به أنه رحمه الله يدين بما دان به رينان أو يقول ما يشتم منه رائحة الطعن على الاســـلام والمسلمين .

● ● ●

ولقد انطلق جمال الدين فى دعوته من القرآن الكريم وكان أخطر مواقفه هو قضية الدهريين الذين ظهروا فى الهند وكان فى مقدمتهم أحمد خان وفيهم الف كتابه (الرد على الدهريين) .

وهو ينطلق من حقيقة أساسية وهى ايمانه بأن القرآن عاصم للامم الاسلامية من الفرق والخور والضعف وانه مصدر لبعث العـــزة والمنعـــة والشجاعة .

وقد حث الناس على تفهم القرآن والتمعن فى معـــانيه ومقاصـــده وقال، أن من يفهم القرآن فهما صحيحا ويعرف صحيح الحديث ويثقف نفســـه ثقـــافة اسلامية يمد طريقه الى خير امته .

وقد دعا الناس الى أن يلتمسوا عقيـــدة الرعيـــل الأول من السلف الصالح : تلك العقيدة الصافية التى لم يشبها اختلاط الفرق الناشئة بعد صدر الاسلام الاول التى توزعت أصوله واخطأت فهمها واتبعت ما بيثـــه الزنادقة والباطنيون من البدع وما وضعه الناقمون على الاسلام من الاحاديث الكاذبة التى حورته تحويرا شديدا وابعدته عن أصوله ففرقت شمل هذه الامة وأضعفت كيانها فتضعضعت أركانهـــا بالتواكل الذى جاءها من أهل الحلول والتصوف وأهل الزهد وأهل الاباحة .

ومن منطلق هذا الايمان كانت دعوته الى الجامعة الاسلامية .

« هذه الامم الاسلامية وان اختلفت بهم البلدان وتنـــاءت البقـــاع ونوعت الاجناس وافترقت الالسنة فقـــد وحدتهم وحدة الاســـلام وجمعتهم جامعة الدين وهى جامعة كبرى تتلاشى أمامها الجامعـــات الصغيرة وتلغى الفروق فيكون جميع المسلمين بها اخوانا » .

وقال للاتراك : لو انصف الاتراك انفسهم لاستعربوا وتراسوا ذلك الملك وعدلوا فى أهله وجـــروا على ســـنن الرشيد والمـــأمون على الاقل ولكانوا أعز جانبا وأغنى مملكة فى دول الارض .

● ● ●

وكان أكبر أعمال جمال الدين مقاومة النفوذ الاجنبى .

وكان أول من التفت الى أسلوب الاستعمار الغربى الذى يتخذ صورة القضاء على الشخصية الاسلامية التى مصدرها القرآن .

وانه رأى الاستعمار — يعمل على افساد عقيدة المسلم أما بتشكيكه فيها أو بمحاولة صرفه عنها ولذا عد المذهب الطبيعى وهو ما سماه بمذهب الدهريين فى الهند سلاحا خطرا ضد المسلمين وضد قوتهم ووحدتهم .

والمذهب يمثل تحديا للدين من حيث هو دين والذين يدعون اليه لبسوا ثوب المسلم وقصدوا الى اضعاف المسلم بالذات فى عقيدته .

ويرى أن ضعف المسلمين بدأ حقيقة منذ ظهور الباطنية والعقـائد الطبيعية والدهرية، وليست الحروب الصليبية هى بداية الضعف وامارته بل كانت احدى نتائج هذا الضعف وهذه العقائد هى التى مهدت لهذه الحروب الصليبية وكذا لحرب التتـار .

وقال جمـال الدين . أن كثيرا من مسلمى الهنـد تلوثـوا ببـدعة (الينتشريين) التى بثها الانجليز فى بلادهم من حيث أنهم (أى الانجليـز) رأوها أقرب وسيلة للوصول الى غرضهم وتأمين سلطانهم فى الهند فقـد وجد الانجليز أن الديانة الاسلامية تطلب من أتباعها أن يكونوا أصحـاب الشوكة والسلطان فى أوطانهم ولاحظوا أن ذلك هو طبيعة الاسـلام التى لا يمكن انسلاخه عنها ولا انتزاعها من فطرة أبنائه ففكروا فى أمر يضعف هذه العقيدة فرأو أن أقرب طريق هو ((**نشر التعطيل بين المسلمين**)) .

وان الدعوة اليه انقـذ الى قلوبهم من الدعـوة الى التثليث ولما كان التعطيل الذى هو الالحاد يسمى بالانجليزية (**Mature**) ففتحوا مدرسة عظمى لنشر تعاليم النيشرية وبث مبادئها فى نفوس النشء المسلم .

ومن أجل ذلك الفنا رسـالة (فى الرد على الدهريين) انمـا سعى الانجليز الى جعل المسلمين دهريين ولم يسعوا فى جعلهم مسيحين لأنهم رأو بعد طول تجربة ان دعوة المبشرين لمسلمى الهند بالنصرانية لم تنجح وان المسلمين نصارى وزيادة فهم يؤمنون بعيسى .

وقد هاجم جمال الدين فى أحد مقالاته فى العروة الوثقى (السير) سيد أحمد خان وعدد من صنائع الاستعمار البريطانى وفى هذا يقرر أن أول حيلة من حيل بريطانيا لضمان السيطرة السياسية على مسلمى الهند كانت تثبيت أقدام البعثات التبشيرية فى الهند فلما أخفقت هذه الحيلة استخدمت بريطانيا السير سيد خان وطائفته لتضعف العقيدة الاسلامية من داخل الاسلام .

وكان قد طفا فى ذلك العصر مذهب المـادية القـائل بأن العـالم له أسـاس واحـد هو المـادة ولا شىء وراءهـا وكل شىء فى الحيـاة مظهر مظاهرها فى الفكر والعاطفة وان المادة لا تتجدد ولا تفنى وقوانينها أبدية لا تتغير

وهى قديمة أزلية لا تتغير وليس فى العالم شىء يعتريه الفناء وانمـا تتغير الاشكال وبناء على ذلك فلا نفس ولا روح ولا دين ولا اله .

وهذا هو مجمـل المذهب الطبيعى الدهرى الذى انتشر فى الهند عام ١٨٧٩ والذى قيل انه سيفرق المسلمين هناك الى طائفتين : طائفة القديم وطائفة الجديد .

طائفة أصحاب الطاعة والولاء للحاكم المستعمر والطائفة الاخـرى المناوئة لنفوذه وولايته .

وكان جمال الدين يرى ان الاستعمار يتخذ صورا مختلفة للقضاء على الشخصية الاسلامية التى مصدرها القرآن والتى تجمع المسلمين فى رباط واحد ، واخطرها تلك الصورة التى تسعى لافساد عقيدة المسلم اما بتشكيكه فيها أو بمحاولة صرفه عنها ولذلك يجد المذهب الطبيعى وهو ما اسماه بمذهب الدهريين فى الهند سلاحا خطيرا ضد المسلمين .

وكان القصد من الدعوة الى الدهرية التشكيك فى أصل الدين :

١ — محاولة اقناع المسلمين أن دينهم كغيره عدو للعقل والعلم .

٢ — ان ائمتهم فى العقائد ينكرون الاسباب .

٣ — ان جمع السلطة الدينية والسلطة السياسية المدنية ضـار بالمسلمين وموجب لتأخرهم .

وقد كشف جمال الدين عن حقيقة الاسلام حين قال أن دين المسلمين بحظر علهم أن يدينو لسلطة من يخالفهم بل الركن الاعظم لدينهم هو طرح ولاية الاجنبى عنهم وأن العقائد الاسلامية مالكة لقلوب المسلمين حاكمة فى ارادتهم وخلاصة منهجهم : ان يكون سلطان جميع المسلمين القرآن ووجهـة وحدتهم الدين .

وكان احمد خان قد دعا الى الولاء للسلطة البريطانية وعمل على تكوين جيل من شباب الهند معاون الاستعمار باسم التقدم .

٢ — الرد على الدهريين :

بين السيد جمال الدين الافغانى حقيقة مذهب الدهريين — الماديين الذين كانوا يعرفون فى زمنه باسم (النيشريين) نسبة الى نيتشر (الطبيعة) ونقد أرائهم الباطلة بأقوى الادلة العقلية واقطع البراهين المنطقية وكشف مدى ضرر هذا المذهب المدمر على البشرية فعرض للامم التى نكبت بدائهم ووقعت فريسة بين مخالبهم ووصف ما أصابها من الاخذ بتعاليمهم التى جعلوا أولها ابطال عقيدتى الايمان بالله والحياة الابدية — ثم اباحة الاموال وانتهاك الاعراض واشاعة الفساد .

وبعد أن اشبع القول فى اظهار المفاسد التى تصيب بنى البشر من انكار الالوهية التى تدعو اليها المذاهب المادية مما سجله التاريخ ويشهد به الواقع خلص الى بيان حاجة الناس الى (التدين) وانه نظام حياتهم ورباط اجتماعهم وتكلم عن فضائل الدين الاسلامى ومزاياه وانه قام على دعائم راسخة وأركان ثابتة يحفظ باتباعها نظام العمران وتتم سعادة الامم وكذلك بين قيمة الدين وضرورته للانسان وأثره فى رقيه وأثر الالحاد (فى انحطاطه (محمود أبو رية) .

قال جمال الدين : ان أقل ما يعتقد به الدين حيثما يكون هو :

وجود الله تبارك وتعالى والحياة الابدية وهذا أفضل كثيرا من الدهرية بل هو علاج شاف واف لسموم الدهريين .

ورسالة السيد الافغانى هى ان الانسان أشرف المخلوقات وهو عبد الله وسيد الطبيعة .

وقال الشيخ محمد عبده أن السيد ألفها فى الهند عندما رأى حكومة الهند الانجليزية تمد فى الغى جماعة من سكان تلك البلاد اغراء لهم بنبذ الاديان وحل عقود الايمان وان كثيرا من العامة فتنوا بارائهم وخدعو عن عقائدهم .

وكانت النيشرية : (عبادة الطبيعة) قد ظهرت ببلاد اليونان فى القرن الرابع والثالث قبل ميلاد المسيح ومقصد أرباب هذه الطريقة محو الاديان ووضع أساس الاباحة والاشتراك فى الاموال والابضاع بين الناس عامة .

وقد أشار الشيخ محمد عبده فى مقـدمة (الرد على الدهريين) ان النيتشر اسم للطبيعة وطريقة النيتشر هى تلك الطريقة الدهرية التى ظهرت فى بلاد اليونان ومقصدها محو الاديان ووضع أســاس الاباحة وقد كدحوا لاجراء مقصدهم هذا وبالغوا فى السعى اليه وتلونوا لذلك فى الوان مختلفة وتقلبوا فى مظاهر متعددة وكيفما وجدوا فى أمة أفسدوا اخلاقها وعاد عليهم سعيهم بالوبال ولا نتيجة لمقدماتهم ســوى فســاد المدنية وانتقاص بنــاء الهيئة الاجتماعية الانســانية ولن يستحكم أســاس التحديد بدون الدين البتــه .

أما عدم شيوع هذه الطريقة فسببه ان نظــام الالفة الانســانية — وهو من آثار الحكمة الالهية الســامية — كانت له الغلبة على أصولهــا الواهية وشريعتها الفاسدة وبهذا السر الالهى انبعثت نفوس البشر على آخر ما ظهر منها ومن هذا لم يبق لهم ثبات قدم ولم تقم لهم قائمة أمر ولا فى وقت من الاوقات .

● ● ●

ويرى بعض الباحثين : أن خلاصة رأى جمال الدين فى الاســلام أن الدين على العموم أكسب عقول البشر ثلاث عقــائد وأودع فى نفوسهم ثلاث خصال ، كل منها ركن لوجود الامم وعماد لبناء الهيئة الاجتماعية .

العقيدة الأولى : التصديق بأن الانسان ملك أرضى وانه أشرف المخلوقات

العقيدة الثانية : يقين كل ذى دين أن أمته أشرف الامم وكل مخالف له فعلى ضلال وباطل .

العقيدة الثالثة : جزمه بان الانسان ورد هذه الدنيا لتحصيل كمــال يهيئه للعروج الى عالم أرفع وأوسع من العالم الدنيوى .

أما الخصال الثلاث فهى الحياء والامانة والصدق هذه الاسس التى أتت بها الاديان هى علة العمران وعليها تتوقف سعادة الانسان وان الماديين الدهريين النتشرين تؤدى تعاليمهم الى انكار هذه الاسس فتنزل الانســان منزلة الحيوان وتفقده الوازع على الخير وتعده لحياة جامدة ضيقة جــافة لا قلب لها ولا سعة فيها .

وفى هذا انتكاس لخلقه وهدم لكيانه وفى الاسلام مزايا أساسية على سـائر الاديان :

أولها : صقل العقل بصقال التوحيـد وتطهيرها من لوث الاوهام فمن أهم أصوله الاعتقاد بأن الله (تبارك وتعالى) متفرد بتصريف الاكوان متوحد فى خلق الافعال وان من الواجب طرح كل ظن فى انسان أو جماد يكون له فى الكون اثر من نفع أو ضر ، أو اعطاء أو متع أو اعزاز أو اذلال .

ثانيا : ان الاسلام فتح أبواب الشرق للانفس كلها » أ . هـ

حاشية :

١ ــ قال جمال الدين عن أوربا : أن الروح الصليبية لم تبرح كامنة فى قلوب أهل أوربا حتى اليوم كما كانت كامنة فى قلب بطرس الناسك من قبل فالنصرانيـة لم تزل التعصب مستقـرا فى عنـاصرها متغـلغلة فى أحشائها وهى أبدا ناظرة الى الاسلام نظرة العداء والحقد والتعصب الدينى المقوت .

٢ ــ قال جمال الدين عن الجامعة الاسلامية :

هذه الامم الاسلامية وان اختلفت بهم البلدان وتباينت البقاع وتنوعت الاجناس وافترقت الالسنة فقد وحدتهم وحدة الاسلام وجمعتهم جامعة الدين وهى جامعة كبرى تتلاشى أمامها الجامعات الصغرى وتلغى الفروق فيكون جميع المسلمين بها اخوانا .

الباب الثالث

محمد عبده وبناء المسلمين على منهج التربية

الرد على شبهات المستشرقين والفلسفات المادية : بداها جمال الدين الافغانى بكتابه (الرد على الدهريين) ومناقشته لرينان .

ثم جاء محمد عبده فكانت له حلقتين :

« الاولى مع فرج انطون والثانيـــة مع هانوتو (الوزير الفرنسى) ثم توالت الكتابات : فريد وجدى ، مصطفى الغلايينى ، رشيد رضا وقد تناولت مختلف القضايا سواء بالنسبة للاستشراق أم مقارنات الاديان أم بالنسبة للبهائية والقاديانية أم التبشير فى حملات متصلة (اقرأ كتابنا تاريخ الصحافة السياسية : المنـــار) .

وكانت له حملات على طه حسين ، على عبد الرازق ، محمود عزمى .

● ● ●

للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده كتابين فى الرد على خصوم الاســـلام همـــا :

١ ــ الاسلام والرد على منتقديه : رد فيه على الوزير الفرنسى هانوتو

٢ ــ الاسلام والنصرانية فى العلم والمدنية : رد فيه على فرج انطون الذى حاول عن طريق الحديث عن ابن رشد الفيلسوف الفرنسى أن يغمز للاسلام ولقد طبع هذا الكتاب الاخير مرات متعـــددة لانه كشف بالمقارنة الفوارق البعيدة بين الاسلام والمسيحية وجوانب العطاء الواسع الذى تميز به الاسلام بوصفه الدين العالمى والخاتم للبشرية ، كما كشف عن الاخطاء والاضطرابات التى واجهت المسيحية المنزلة بعد أن انتقلت من بيئتها الطبيعية فى المشرق الى روما والغرب .

غير انه يبدو أن هذا الكتاب لم يعجب البعض وأحسوا بخطر ما يعرضه من اراء وأخطار مدللة بالبراهين الحكيمة فعمدوا الى سلبه الجانب الخاص

بالمسيحية وحجبه تماما وأعادة طبع الجزء الخاص بالاسلام وبذلك افقدوه تركيبه الفنى الذى وضع من أجله وقد قام بهذا العمل الخطير رجل عاش فى دار الهلال وأصحابها (أميل وشكرى زيدان) هو الاستاذ طاهر الطناحى ومن العجيب انه استطاع أنْ يقدم هذا الكتاب الى احدى الهيئات الاسلامية التى قامت بطبعه دون أن يتبين الذين أجازوه خطورة ما قام به المرحوم طاهر الطناحى حين أخذ يستعرض فى المقدمة محاولات جرت للتقريب بين الاسلام والمسيحية قام بها الشيخ محمد عبده مما حدث معه ابان مهجره فى بيروت وتعرفه على طائفة من المارون والمستشرقين والمبشرين الذين كان حسن الظن بهم مما يسمى (التقريب بين الاديان السماوية) وما كان لهذا العرض كله اى صلة بموضوع الكتاب فى الحقيقة ، هذا فضلا عن أن كتابات الشيخ محمد عبده لم تحمل اى عداء للمسيحية أو الداعين اليها وانما كانت محاولة لرد هجوم « فرج أنطون » على الاسلام وادعائه بأنه لا يحمى أحرار الفكر .

ولقد بلغت المغالطة بالاستاذ الطناحى ان عرض لمعركة الشيخ الامام مع هانوتو بالتفصيل وعندما اراد أن يعرض لموضوع الخلاف مع فرج انطون — وهو الموضوع الرئيسى والهام — ترك الجــزء الخاص بالمسيحية تماما وبالكامل وقدم الجزء الخاص بالاسلام وأصوله وبذلك فوت على البــاحث معرفة تلك القضية الاساسية والخطيرة التى وضع من أجلها الكتاب ، حدث هذا عام ١٩٦٤ ومن عجب ان جاء بعد ذلك بأكثر من عشرين عاما من أعاد طبع هذا الكتاب بمقدمة جديدة : ذلك هو الدكتور عاطف العراقى الذى يحمل نفس أهواء ووجهة طاهر الطناحى وهو الكتاب الذى صدر عن دار سينــا للنشر .

والحقيقة انه ليس للشيخ محمد عبده كتاب يسمى (الاســلام دين العلم والمدنية) وانما يسمى كتابه (الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) وهو مجموع المواد التى نشرت فى مجلة المنار عام ١٩٠١ .

● ● ●

يقول تشارلز أدمس فى كتابه (الاسلام والتجديد فى مصر) :

كان مقاله رد على ما كتبه المحرر المسيحى لمجلة الجامعة العثمانية عن ابن رشـــد الفيلسوف المسلم الاندلسى المشهور ، عرض فيه الموازنة بين تسامح النصرانية والاسلام نحو العلم والفلسفة وقرر أن المسيحية كانت أوسع صدرا للعلماء والفلاسفة وأقل اضطهادا لهم وان هذا يرجـــع الى ان الجمع بين السلطتين الدينية والمدنية فى الاســـلام جعل التســـامح أصعب فى الاســـلام منه فى النصرانية ودلل على رحابه صدر المسيحية بانتصـــار العلم بالفعل على الاضطهاد المسيحى فى أوربا ولكنه لم يتمكن من التغلب على اضطهاد الاســـلام له الى وقتنـــا هذا ثم ذهب المقال الى أن علمـــاء المسلمين ينكرون تأثير العـــلل الثـــانوية ولا ان ابن رشـــد كان فى الواقع زنديقـــا .

وقد تناول الشيخ عبده الكلام على المسائل الاربعة التى اشتمل عليها مقال فرج انطون — أما الاولى فهى التى تقول أن المسلمين أفسحوا صدورهم لفلاسفتهم دون غيرهم من أهل الاديان الاخـــرى وقد أثبت فى رده ســـعة صدر المسلمين مع أهل الاديان الاخرى والجنسيات المختلفة مما ذكره من أسماء المؤرخين والفلاسفة غير المسلمين الذين عاشوا فى كنف الاسلام .

أما النقطة التى تقول بأن طبيعة الاسلام تقضى على تســـامحه ازاء العلم بينما أن المسيحية تظاهره وتشجعه وكان هذا القول فى نظر الامام أهم ما ورد فى المقال فأفاض فى مناقشته وأسهب فى الرد عليه وتناول الاصـــول التى تبين طبيعة المسيحية وقارنها واحدا واحدا بمبـــادىء الاســـلام وبين ما بينهما من فروق وأظهر غايات كل منهما ونزعاته .

أما النقطة التى ذهب فيها الى القول بأن الاوربيين يجنون ثمار المدنية بفضل ما فى النصرانية من تسامح فقد أجاب عليها مبينا كيف أن المسيحية لم تكتف باضطهاد علمائها فحسب بل اضطهدت أيضـــا العلماء فى سائر الملل الاخرى وأظهر كيف خدم الاسلام العلم والمدنية وكيف ظلل الامراء المسلمون بحمايتهم العلماء ممن يشاركونهم فى الدين أو يخالفونهم فيه .

ثم أسهب فى مناقشته الاسباب التى أدت الى جمود المسلمين فى العصر الحاضر وما أفضى عليه من تأخر أحوالهم » .

ومعنى هذا أن تفصيص الكتاب فى مجمله وحذف جانب منه هو عمل غير مقبول تماما ويتعارض مع الامانة العلمية وهدف المؤلف ، اذ ان المـادة كلها بتركيبها الاول قد أعدت فى مواجهة الرد على شبهات محددة ، فاذا ترك هذا الجانب الذى يتصل بالمسيحية ونشر الجانب الاخر فقد الكتاب قيمته الحقيقية وغرضه الاصلى والاساسى .

وقد كشف الشيخ محمد عبده أن الاسلام قد وضع على اسـاس طلب الغلب والشوكة بينما بنيت المسيحية على المسالمة فى كل شىء والابتعـاد عن السلطة . أما الان فنجـد عكس ذلك فالدولة المسيحية تسـارع الى افتتاح الممالك والتغلب على الاخطار .

أما بالنسبة لهانوتو فقد ناقشه فى مقولاته المغلوطة على النحو الاتى :

١ — قرر أن الحضارة التى وصل اليها الاوربيون لم تصل اليهم الا مع المهاجرين الاولين الذين رحلوا اليها من البـلاد الشرقية وان القوم الذين سماهم هانوتو معلمى أوربا قد اقتبسوا مدنيتهم من مخالطة الامم السامية وبينما كانت أوربا لا تعرف مدنية غير التسافك فى الدماء واشهار الحرب جاء الاسلام حاملا معه علوم أهل فارس والمصريين والرومان واليونان .

٢ — قرر أن دين التوحيد ليس دينا ساميا بل هو دين عبرانى فقط عرف به ابراهيم عليه السلام وبنوه أما بقية الســاميين من عرب وفينيقيين وارامين وغيرهم فقد كانوا وثنيين أما الكلام فى القدر فلم يختص بملة من الملل فقد عظم الخلاف بين المسيحيين أنفسهم فى القول بالقدر والاختيار وقد عاب القرآن على أهل الجبر رأيهم وأنكر عليهم قولهم (ولو شاء الله ما أشركنا نحن ولا أباؤنا ولا حرمنا من شىء) بقوله (كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا أن تتبعون الا الظن وان انتم الا تخرصون) .

وأثبت الاسلام الكسب والاختيار فى نحو أربع وستين آية وجاء النبى والصحابة فى صدر الاسلام فى عملهم وقولهم بما يؤيد ذلك فقد كانوا مثلا فى الدأب والسعى الى نشر الاسلام .

ثم يقول : ولكن لا أنكر أن الزمان ابتلى المسلمين بمن فسد من المتصوفة

فنشـــأ الكسل بين المسلمين وهذا الضرب من المتصوفة أيضا من حسنات الآريين فانه جاءنا من الفرس والهنود .

ثالثا : أما بالنسبة للعقيدة الخاصة بوحدانية الله (تبـــارك وتعالى) وتنزيهه فقد ناقش محمد عبده عقيدة الوحدانية ووازن بالمقارنات التاريخية بين فكرة الله (تبـــارك وتعالى) عند الشعوب الافريقية الساذجة وعند البوزيين والبراهمة وبين نظرية فلاسفة اليونان وكهنة قدماء المصريين .

وقرر أنهم انتهوا وهم فى ذرى مدنيتهم الى التوحيد وانه اسمى ما يصل اليه العقل الانسانى وبينما المسيحيون يصرحون بان عقيدة التثليث لا مجال للعقل فيهـــا .

● ● ●

وكان فرح أنطون صاحب مجلة الجامعة لبنانيـــا مارونيا من جمـــاعة أصحاب المقطم الذين قدموا من الارساليات التبشيرية فى بيروت الى القاهرة ضمن مجموعة (صروف ونمر ومكاريوس وجرجى زيدان وغيرهم) .

وقد اتخذ من دراسة كتبها رينان عن الفيلسوف المســـلم ابن رشـــد تحت عنوان ابن رشد والرشدية ، اتخذ منها واسطة فى سبيل التهجم على الاســـلام واتهامه بأنه لم يكن متسامحا مع العلم وان المسيحية كانت اكثر تسامحا وان الاسلام كان أكثر اضطهادا للعلم والفلسفة من النصرانية .

يقول الشيد رشيد رضا : الكاتب المسيحى صاحب مجلة الجامعة وقد تكلم فى المقابلة بين الدينين المسيحى والاسلامى بالنسبة الى العلم والفلسفة فى ترجمة ابن رشد فساءت تلك الترجمة من قراها من المسلمين لهذه المقابلة ولمسألتين اخريتين أهمهما عزو انكار الاسباب الى علماء الكلام والثانيـــة ما تضمنته الترجمة من الحكم بكفر الفيلسوف ابن رشد فيلسوف المسلمين الاكبر فى الاندلس .

وقد أزعج الاستاذ الامام هذا الاتهـــام الذى وجهه فرح انطون الى الاسلام وتبرئة المسيحية من هذا الاضطهاد بينما تحمل وقائع التـــاريخ من هذا صفحة مزدحمة بالاضطهاد الشـــديد ومحاكم التفتيش والحروب التى امتدت بين البروتستانت والكاثوليك مما لم يعرف الاســـلام شبيها له فى تاريخه

كله وقال ان الاسلام لم يحكم باحراق أحد لمجرد الزيغ فى عقيدته وكم حكمت محاكم التفتيش بذلك .

وقال : أسأل الجامعة أين الاضطهاد الواقع على العلماء اليوم عنـد المسلمين وأين أولئك المضطهدون وكيف ساغ لها أن تقول ما تقول وهى فى أرض مصر ومصر بلاد اسـلامية وحالها كمـا ترى ، فاذا أرادت شاهدا على حال المسيحية والعلم فلتمر بنظرها اليوم على أسبانيا ولنقف برهة من الزمان ثم لتحكم ويمكنها أن تعد من طلبة العلوم المسلين مئين فى مدارس المسيحيين من جزويت وفرير وأمريكان وهى مدارس دينية فهـل يمكن أن أجد طالبا واحدا مسيحيا فى مدرسة دينية مسلمة يبـاح الدخول فيها لكل طالب علم من أى ملة ، لا تجد وهل سمع أن والدا اضطهد لانه بعث بولده الى مدرسة مسيحية يديرها قسس مسيحيون ، الا يعـد هذا من تسـامح الاسـلام مع العلم اليوم .

ثم عرض الاستاذ الامام لطبيعة الدين المسيحى فى عدة أصول :

الاول : الخوارق .

الثانى : سلطة الرؤساء .

الثالث : ترك الدنيا .

الرابع : الايمان بغير المعقول .

الخامس : ان الكتب المقدسة حاوية كل ما يحتاج اليه البشر وغيرهم حتى الاقربين .

ثم تحدث عن مقاومة النصرانية للعلم وتحـدث عن محكمـة التفتيش والفصل بين السلطتين فى المسيحية .

وقدم أصول الاسلام :

أولا : النظر العقلى لتحصيل الايمان .

ثانيا : تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض .

ثالثا : البعد عن التكفير .

رابعا : الاعتبار فى سنن الله فى الخلق .

خامسا : قلب السلطة الدينية .

سادسا : حماية الدعوة لمنع الفتنة .

سابعا : مودة المخالفين فى العقيدة .

وفى الختام جمع الاسلام بين مصالح الدين والدنيا .

وبالجملة فقد اثبت الشيخ محمد عبده خطأ فرج انطون فى دعواه واثبت ان الكنيسة المسيحية لم تتساهل قط للعلم والفلسفة فيستطاع أن يقال ان انتصار العلم فى أوربا دليل على كون المسيحية أكثر من الاسلام تساهلا ويرجع انتصار الاسلام فى أوربا الى اسبابه الحقيقية وهى انتقال العلوم الاسلامية الى الغرب .

(٣)

مصادر فكر الشيخ محمد عبده :

أولا : علوم الازهر التقليدية (العقائد والمنطق) وهى العلوم التى هاجمها الشيخ بعد ذلك ووصفها بأنها رجعية .

ثانيا : الفكر الفلسفى الذى عرفه الفرس والشيعة والذى أحياه جمال الدين الافغانى الذى كان يقرأ لتلاميذه كتب ابن سينا وغيره .

ثالثا : ما قراه من الفكر الغربى وما جاء عن طريق اتصاله بفلاسفة الغرب الذين التقى بهم فى فرنسا وجنيف .

رابعا : مفاهيم جمال الدين الافغانى وخاصة مشروعه عن الجامعة الاسلامية ودعوته الى الحكومة الدستورية .

خامسا : تراجعه وتغيير مشروعه بعد هزيمة الثورة العرابية وعودته من المنفى على نحو يجعل مفهومه للاسلام غير مكتمل فقد كان متحرزا من مفهوم الاسلام السياسى (دين ودولة) وكانت له عبارات ضد السياسة (لعن الله ساس ويسوس الخ) .

سادسا : غلبه مفهوم المعتزلة على خطة الشيخ محمد عبده وخاصة مقولته بتقديم العقل على ظاهر الشرع .

سابعا : مقارنته بين الامام الغزالى والامام ابن تيميه وغلبه تأثره بالامام الغـــزالى .

ثامنا : وضوح نقطة الخلاف بين جمال الدين ومحمد عبده المتركزة فى طريقة الاصلاح الاسلامى حيث يرى جمال الدين أن تكون بالثورة بينما يرى محمد عبده أن تكون بالتربية .

تاسعا : اختلاف الطريق بين تلاميذ محمد عبده بين التبعية للفكر الغربى وبين الأصالة فى الاتجاه الاسلامى .

ممثل الاولى لطفى السيد وممثل الثانية رشيد رضا .

● ● ●

دعا محمد عبده الى :

١ — تحرير الفكر من قيد التقليد .

٢ — فهم الدين على طريقة سلف الامة قبل ظهور الخلاف والرجوع فى كسب معارفه الى ينابيعها الاولى واعتبـــاره من ضمن موازين العقـــل البشرى التى وضعها الله تبارك وتعالى لترد من شططه وتقـــلل من خلطه وخبطه وانه على هذا الوجه صديقا للعلم باعثا على البحث فى اسرار الكون داعيا الى احترام المطالب الثابتة مطالبا بهـــا فى أدب النفس واصـــلاح العمـــل .

وقد فصل محمد عبده الجانب السياسى عن الجانب الدينى وذهب الى أن نظام الخلافة لا يدخل فى نطاق العقيدة الاســـلامية .

وهو فى هذا يتحرك فى دائرة ضيقة هى الدائرة التى وجدها ممكنـــة بعد الاحتلال البريطانى لمصر وتغير أشياء كثيرة نتيجة لذلك .

وكان بطبيعته داعيا الى التغيير بالتربية وهو المنهج الذى وســـعه وعمقه وقننه الشيخ حسن البنا من بعد .

وكان امتداد الشيخ محمد عبده فى الشيخ رشيد رضا قد حاز طابعا متصلا بالعصر متحررا من قيود العقلانية التى أطلق عليها « المعتزلة الجدد » فقد التمس رشيد رضا السنة النبوية مكملة للقرآن وأحصى على شيخه بعض

المواقف التى اعتمد فيها على العقل واشار من طرف خفى الى ان اطلاع الشيخ محمد عبده على السنة كان ضئيلا .

وهكذا خالف محمد عبده خطة التغيير الثورى التى كان يحمل لوائهـا جمال الدين الافغانى فى واقعة معروفة حين طلب محمد عبده استقدام مائة شاب مسلم وتربيتهم فى جزيرة نائية ثم بثهم فى العالم الاسلامى واغضب هذا المشروع جمال الدين الذى قال له : انت مثبط .

ولكن الاحداث والايام اثبتت صدق وجهة محمد عبده على اساس ان التربية هى السبيل الامثل فى مواجهة تحديات الاستعمار ونفوذه .

وكان الشيخ محمد عبده قد تأثر بالامام الغزالى اكثر مما تأثر بابن تيميه الذى قاد خطط التجديد الاسلامى ممثلا فى الدعوة الى التوحيد التى قادها الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

وقيل انه اعتمد فى رسالة التوحيد على مقدمة ابن خلدون فى اعتبـار الدين أمرا لا غنى فيه فى تحقيق السعادة الفردية ومع الغزالى فى اعتبـاره مسألة تتعلق بالقلب .

وكان يتحامى الاتجاه الصوفى .

وقد اطلع على الفكر الاوربى ونظريات علم الاجتماع والتطور التاريخى (سبنسر وفريزر ورينان وجوستاف لوبون وماكس نودو) الذين قرأ لهـم وتأثر بهم .

وهناك تساؤل ملح عن مدى صلة الشيخ محمد عبده بتلاميذه سعد زغلول ولطفى السيد .

ويرجع هذا الى ان محمد عبده بعد أن عاد من منفـاه كان يقترب كثيرا من كرومر (الحاكم الفعلى لمصر ان ذاك) نتيجة خلافة مع عبـاس (الحاكم الشرعى) .

وقد وسع سعد زغلول ولطفى السيد العلاقة مع كرومر وسارا فى الطريق الذى رسمه .

وقد نال الشيخ محمد عبــده من ذلك مقولة التقبــل للنفوذ الاجنبى، ومعايشته والتعامل معه .

وقد ظهر أثر ذلك فى مواقف كثيرة للشيخ الامام اما تلاميذه العلمــانيين فقد ساروا فى الشوط الى نهايته وظهر ولائهم واضحا للمشروع الاستعمارى المفروض على مصر والعالم الاســلامى وأحلوا الدافع الوطنى — بمفهوم الغرب — محل المفهوم الجامع للاسلام .

وقد كان الصراع واضحا بين جماعة الحزب الوطنى وبين جمــاعة الشيخ محمد عبده ، ثم ظهر الصراع بين جماعة الجريدة التى قادها لطفى السيد وبين الوطنيين بقيادة مصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش حتى صفى النفوذ الاجنبى هذه القيادات قبل نهاية الحرب العالمية الاولى واعد المسرح لسعد زغلول ولطفى السيد وجماعة العصريين الذين كونهم كرومر خلال ربع قرن من الزمان .

وكانت التبعية هى مفهوم هذه القيادة السياسية التى تشكلت من خلال حزب الامة (الذىكان يمثل أصحاب الولاء للاستعمار والنفوذ البريطانىويرأس (لطفىالسيد) قيادته الصحفية (جريدة الجريدة) ثم تولى قيادتها الوفد المصرى بعد الحرب العالمية الاولى بقيادة سعد زغلول وكان حزب الاحرار الدستوريين الذى انشق عن الوفد صاحب القيادة الفكرية العلمانية الجديدة المسيطرة والتى كان ابرز رجالها طه حسين وعلى عبد الرازق ومحمود عزمى .

ومن خلال هذه القيادة السياسية التى كونها كرومر ورباها خلال ربع قرن حكمت مصر خلال أكثر من خمسين عاما ١٩٠٧ — ١٩٥٢ وقد تأكد أن تلاميذ محمد عبده (سعد زغلول — لطفى السيد) هم الذين أسسوا حزب الامة ١٩٠٨ — ١٩١٦ ثم الوفد المصرى بعد الحرب العالمية الاولى بينما اتجــه جناح محمد عبده الاخر بقيادة رشيد رضا الى العمل الاسلامى الذى أبرز بعد ذلك جمعية الشبان المسلمين التى انشأها السيد محب الدين الخطيب ثم جمعية الاخوان المسلمين بقيادة الاستاذ حسن البنا والتى شكلت التيار الاسلامى الذى حمل لواء الدعوة الاسلامية وبناء الاجيال الجديدة على مفهوم الاسلام الجامع : (دين ودولة ومنهج حياة ونظام مجتمع) .

ويروى تشارلز ادمس فى كتابه (الاسلام والتجديد فى مصر)

ان الحزب الوطنى (الذى اسسه مصطفى كامل والذى كان يقاوم نفوذ بريطانيا فى مصر) قد أخذ يناوئه ويناهضه طائفة من الاحزاب (المعتدلة المبادىء) ! وكان من اكثرها اعتدالا حزب الامة الذى ضم عددا كبيرا من شيعة الشيخ محمد عبده وقد اشار اليهم اللورد كرومر فى تقريره السنوى عن سنة ١٩٠٦ فقال انهم فئة من المصريين قليلة ولكن عددها آخذ فى الازدياد ، لا يسمع عنهم الا الشىء القليل ولكنهم ليسو اقل استحقاقا لوصف الوطنية من الحزب الوطنى الذى اختص نفسه بهذا الوصف وهم ينشدون رقى بلادهم ويعملون على تقدم اخوانهم فى الدين دون أن يصطبغوا بفكرة الجامعة الاسلامية وهم يرغبون فى التعاون مع الاوربيين على ادخال المدنية الاوربية فى مصر ثم يقول اللورد كرومر : أنى أرى أن الامل الوحيد للوطنية المصرية فى معناها العملى الصحيح انما هو معقود بأعضاء حزب الامة .

ويقرر تشارلز ادمس أن حزب الامة الذى دخل ميدان السياسة عام ١٩٠٧ قد وضع برنامجا مفصلا يتضمن كثيرا مما دعا اليه الشيخ محمد عبده وأهمها نشر مبادىء الحكم النيابى (بالتدريج) .

وقد ضم هذا الحزب (الذى هو فى الحقيقة ما انشأه كرومر ليقاوم به الحزب الوطنى) ضم طائفة من أغزر الرجال علما وأبعدهم نظرا وقد تولاه حسن عبد الرازق — محمود باشا سليمان — أحمد لطفى السيد ، على التوالى .

وقال أن (الجريدة) التى كان يرأس تحريرها لطفى السيد كانت تدافع عن الاراء الاصلاحية التى كانت تدعو اليها شيعة الشيخ عبده .

ثم يضيف تشارلز ادمس : كل العصريين الموالين للعلمانية وللنفوذ الاجنبى فى قائمة تلاميذ الشيخ محمد عبده .

لطفى السيد — سعد زغلول — قاسم أمين

بل انه يضم الى هؤلاء الذين جاءوا من بعد وفى مقدمتهم على عبد الرازق وطه حسين وهما الذين اثارا ضجة كبرى حين أصدرا كتبا تهاجم الاسلام فى صميم مفاهيمها .

يقول هذا فى نفس الوقت الذى يعلن طه حسين فى صراحة انه بعد سفره الى أوربا اختلف مع منهج الشيخ محمد عبده وراه قاصرا وغير قادر على اللحاق بالغرب على النحو الذى يدعو اليه .

وقد أطلق رشيد رضا — كما يقول تشارلز أدمس — على طه حسين وجماعة السياسة (محمود عزمى — على عبد الرازق — عنان ، ...) الدعاة الجدد للالحاد فى مصر (ص ٣٥٢) .

وقد ناقش رشيد رضا صاحب الامتداد الصحيح للشيخ محمد عبده كلا الكتابين (الشعر الجاهلى) لطه حسين والاسلام وأصول الحكم لعلى عبد الرازق وأعلن مخالفتهما لمفهوم الاســـلام الصحيح وفى هذا المجال يمكن أن نذكر عبارة الشيخ مصطفى صبرى شيخ الاسلام فى الدولة العثمـــانية فى كتابه موقف العقل والعلم من رب العالمين حين اشـــار الى دور الشيخ محمد عبده فقال : (الصفحات ١٣٣/١٣٤) .

اما النهضة الاصلاحية المنسوبة الى الشيخ محمد عبده فخلاصتهـــا أنه زعزع الازهر من جمـــوده فى الدين فقـــرب كثيرا من الازهريين الى اللادينيين خطوات ولم يقرب اللادينيين الى الدين خطوة كما أنه هو الذى شجع قاسم أمين على ترويج السفور فى مصر .

وكان من مضار الشيخ بالاسلام وعلمائه الناشئة بعده أن حملة الاقلام المنحرفين من الثقافة الاسلامية لما أكبروا الشيخ وارائه الشاذة أوجدوا له من السمعة العلمية السامية ما تزال طنينة فى اذان الشرق الاسلامى » .

(٣)

وقد نشرت فى السنوات الاخيرة وثائق بريطانية خطيرة لأول مرة عرض لها المرحوم الاستاذ محمد عطية خميس ونشرتها مجلة الاعتصـــام (يونيو ١٩٧٥) جاء فيها الاشارة الى كتاب ظهر فى انجلترا عام ١٩٥١ ولم ينشر فى مصر ولم يترجم الى اللغة العربية يتضمن عدة تقارير كان قد كتبها اللورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر فى عصر الاحتلال البريطانى رفعهـــا الى البرلمان الانجليزى وصدرت فى لندن عام ١٩٥١ تحت عنوان :

تقارير القنصل العام ومعتمد جلالة الملك عن الاحوال المالية والادارية والوضع فى مصر والسودان .

قال كرومر فى تقرير عام ١٩٠٥ :

فى خلال العام الماضى اختفت شخصية عظيمة ممتازة من مسرح الحياة السياسية والاجتماعية فى مصر وذلك بموت الشيخ محمد عبده وأجب أن أسجل هنا اعتقادى الراسخ بأن موته المبكر كان خسارة كبرى لمصر .

حين وصلت الى القاهرة عام ١٨٨٣ كان الشيخ محمد عبده فى محنة فقد كان أحد زعماء الحركة العرابية قد عفا عنه الخديو السابق بما جبل عليه من فطره طيبة وقد أدى عمله القضائى بأمانه وكفاءة وفى سنة ١٨٩٩ ارتقى لشغل منصب مهم هو وظيفة (المفتى) فكان لمعرفته العميقة بالشريعة الاسلامية ولارائه المتحررة المستنيرة أثرها فى جعل مشورته والتعاون معه عظيم الجدوى ويمكننى أن اشير هنا على سبيل المثال الى الوجهة التى اختارها حين ثارت مشكلة صناديق التوفير وتساءل الناس أن كان الاسلام يبيح للمسلمين استثمار أموالهم فيها فقد استطاع الشيخ محمد عبده وقتذاك أن يقترح طريقا يمكنهم من ذلك دون اخلال بالشريعة الاسلامية .

وهذا النموذج من المصلحين الاسلاميين الذى ينتمى اليه الشيخ محمد عبده معروف فى الهند بأكثر مما هو معروف فى مصر .

فقد كان هذا النوع من المصلحين ممثلا هناك تمثيلا ممتازا بالسيد أحمد (خان) العظيم الاحترام ذى الشهرة الواسعة التى انشأ منذ نحو ثلاثين سنة كلية فى عليكرة ويمكننا أن نقول بوجه عام أن الغرض الأساسى لهؤلاء الذين مثلوا ذلك الجانب من التفكير الاسلامى هو اصلاح الأنماط الاسلامية القديمة دون أن تختل العمد الأساسية للعقيدة الاسلامية بأية حال ، بل دون التخلى عن الاساليب التى تعتمد على أساس دينى فى قليل أو كثير .

ومهمة أمثال هؤلاء المصلحين هى احدى المهمات الصعبة لأنهم للنقد الدائم — المخلص أحيانا والمغرض فى كثير من الاحيان ، الذى لا يقتصر على أنها لهم بمخالفة الشريعة بل يتجاوز ذلك الى اتهامهم بانتهاك حرمتها .

واتباع الشيخ محمد عبده فى مصر ان كانوا ممتازين بذكائهم فهم نفر قليل ويمكن أن نسميهم (جيروندين) الحركة الوطنيـة المصرية وهم بمـا يستحدثونه من بدع يجعلون أنفسهم موضع الريبة بحيث لا يستطيعون أن يجتـذبوا الى صفوفهم جماعة المحـافظين من المسلمين الذين يتمسكون بالاساليب القديمة فى كل شأن من الشؤون ويصرون على ذلك كما أنهم من ناحية اخرى تفصلهم هوة واسعة من ذلك النفر من المتفرنجين الذين لم يبق لهم فى اسلامهم الا الاسماء .

ومن ذلك نرى أنهم يقفون فى منتصف الطريق بين الطرفين المتناقضين وهم بذلك يتعرضون للنقد والتجريح من الطرفين كليهما كما هو الشـأن فى السياسيين الذين يسلكون مسلكا وسطا ولكنى أحب أن أضيف الى ذلك : ان المعارضة التى تصدر فى المحافظين ، اكثر أهمية الى مدى بعيد من تلك التى تصدر من المتفرنجين فى المجتمع المصرى وهى معارضة لم تعد تسمع فى الايام الاخيرة الا قليلا .

والايام وحدها هى التى ستكشف عما اذا كانت الاراء التى تمثلهـا المدرسة التى تزعمها الشيخ محمد عبده سوف تستطيع التسرب الى المجتمع الاسلامى وانا شديد الرجاء فى أن تنجح فى اكتساب الأنصار تدريجيا فلا ريب أن وصول الاصـلاح الاسلامى فى صورته الصحيحة المبشرة بالامال يكمن فى ذلك الطريق الذى رسمه الشيخ محمد عبده وأن اتباعه يستحقون أن يعاونوا بكل ما هو مستطاع من عطف الاوربى وتشجيعه .

ولعل مما يشجعهم الى حد ما ان اقدم لهم ما قاله أحد اخوانهم فى الدين

وهو وصف مختصر مما لقيه مؤسسو كلية عليكرة التى أشرت اليها من قبل من معارضة وكيف استطاعوا أن يتغلبوا عليها فى آخر الامر .

لقـد وصف سيد محمود فى صفحة ١٦٢ من كتابه (تاريخ الثقـافة الانجليزية فى الهند) انصراف مسلمى الهند عن التعليم خلال نصف القـرن الاخير وعدم اكتراثهم به ثم قال :

واذا كان هناك ضيق بضآلة التقدم الذى حققته جماعتهم فى التعليم العالى فان هذا الضيق ينصب عليهم هم أنفسهم مثل انصرافه الى ذلك

النوع من التعليم الذى اهملوه ولكن السير سيد احمد خان لم يكن من ذلك النوع الذى يقنع بالبحث عن سبب الخطأ والتزمر فقــد صمم هؤلاء السادة المسلمون حين عاينوا الشر على اكتشاف الدواء فساروا بقيادة سير أحمد خان الذى وهب عمره الطويل لتربيته المتحررة وكونوا جماعة هدفها الاول هو تحقيق أسباب تذمر المجتمع الاسلامى من نوع التعليم الذى تقدمه الحكومة والوصول الى معرفة نوع التعليم الذى يمكن ان يقابل بالترحيب عوضا عنه وقد كان واضحا فى اذهانهم أن العودة الى أساليب التعليم الشرقية القديمة غير ممكنا وتبينت هذه الجماعة انه فى الوقت الذى يوقرون فيه تقاليد الاجداد ويقدرون التراث الادبى فى عزارته وبلاغته فان النوع الوحيد من التعليم الذى يستطيع أن يجعل قومهم فى تجانس مع المدنية التى تحيط بهم ويردهم من ثم الى مكانهم من السلطة والنفوذ هو التعليم الذى يعترف صراحة بتقدم العلوم الطبيعية والذى يتسم بالشمول فى تجاوبه مع كل ما هو رائع من اداب الامم الاخرى وتاريخها وفلسفتها فهو يجمع بين سعة الافق فى شكله العــام بين الدقة والاتقان فى دراساته وقد كان هذا هو الطابع المسرف فى التحرر هو الخطر الذى هدد مهمة هذه الجماعة فى بدء عملها ، كما كان متوقعا وقد كان الاحتكام الى المجتمع الاسلامى بوجه عام فى مبادىء شديدة المخالفة للدين ، لا فى عقائده الاساسية فحسب ، بل فى فهمه وتفسيره كما يدل عن اكثر المسلمين ، كان ذلك خليقا أن يثير خلافا شديدا وعداوة مريرة ، وكانت الجماعة على معرفة واعية بذلك ومع ذلك فقد كانوا يؤملون النصر فى آخر الامر .

وقد كان التأييد الذى ظفرت به الجماعة فى أول الامر داعيا الى النفور ومثبطا للهمم ولكن المعارضة ما لبثت ان تراخت شيئا فشيئا فى وجه الشجاعة والدأب العتيد الذى اتسمت به هذه العصبة القليلة العدد من المصلحين ولم يلبث أن تقدم لتأييدها رجال من أصحاب الشهرة والمكانة أمثال سير مالاريونخ وهو تأييد لا تقتصر اثاره على قيمته المادية ولكنه تجاوز ذلك الى ماله من تأثير فى أولئك الذين تبعث الاسماء الكبيرة فى نفوسهم قدرا كبيرا من الاطمئنان وقد كان قادة هذه الحركة فى سلوكهم الشخصى مثلا حيا يدل على نزاهة قصدهم وبراءتهم من الغرض ولم تثبت الشكوك والمخاوف التى لا تقــوم

على أساس معقول ان تراجعت أمام البدعة الجديدة وانقلب بعض خصوم الدعوة الالداء الى أولياء شديدى التشيع لها .

وقد مر الان ثلاثون عاما على هذه الجماعة منذ قامت لترسم خطة العمل ولعل أكثر الناس حيوية ونشاطا بين هؤلاء النفر الذين كرسوا أنفسهم لهذه المهمة لم يكن يؤمل الحصول على مثل هذا النجاح السريع الذى قدر لهم أن يعيشوا ليشاهدوه باعينهم » .

وهكذا نرى أن كرومر يريد أن يطبق التجربة التى تمت فى الهند الاسلامية على يد احمد خان فى مصر ويتخذ لها من جماعة الشيخ محمد عبده منطلقا ولكن الحقيقة ان حزب الامة والجريدة ولطفى السيد والخطة التى حمل لوائها سعد زغلول قد جاءت عام ١٩٠٧ وذلك بعد وفاة الشيخ محمد عبده ولو كان الشيخ الامام حيا لكان له موقف مخالف بالنسبة لها .

(٥)

ويقول الاستاذ فتحى رضوان فى بحث عن مواقف الشيخ محمد عبده :

عاد الشيخ محمد عبده الى مصر بفضل وساطة الاميرة نازلى وكانت على صلة طيبة باللورد كرومر معتمد الاحتلال البريطانى وقد كانت عودته الى وطنه بعد هذا السبيل مستحيلة اذ أن الخديو وصله سوء رأى الشيخ فيه فنقم عليه وأصر على استبعاده ولكن كرومر ضغط على الخديو فأرغمه على أن يأذن بعودة الشيخ الى مصر فكان ذلك عربون مودة وحسن علاقة بين الشيخ وبين اللورد كرومر وقد بقيت هذه العلاقة حتى توفى الشيخ عام ١٩٠٥ .

وأرسل جمال الدين الافغانى الى محمد عبده يعنفه فى شده وفسدت العلاقة بينهما كما فسدت علاقة محمد عبده بمصطفى كامل وبالوطنيين كافة .

وكان من أسباب سوء ظن المصرين بالشيخ محمد عبده (فى عهدى الخديو عباس والزعيم مصطفى كامل) حسن صلته باللورد كرومر الذى كان رمزا للاحتلال والذى كان شديد الوطأة فى مطاردة الحركة الوطنية ومهاجمة زعمائها .

وقد خاصم الشيخ فى ذلك الوقت شيوخ الازهر المحافظين لما زاع من ارائه فى اصلاح الازهر والمحــاكم الشرعية والدراسة الدينية فى المدارس وادارة الاوقاف .

والعيب الذى تورط فيه الشيخ وأسرف والذى يؤاخذ عليه هو حسن ثقته بالانجليز وعلى راسهم كرومر واحتماؤه بنفوذ هذا الاخير فى حربه مع الخديو اسماعيل ثم استدراجه بعد ذلك الى محاربة الحركة الوطنية وعلى راسها مصطفى كامل والسخرية من مبادىء هذه الحركة الامر الذى أصبح (ديدن جماعة ممن الفوا لحزب الامة) ومالوا ميــلا واضحــا الى سياسة بريطانيا ودافعوا عن منهج عميدها فى ادارة البلاد .

وقد حارب كرومر مجانية التعليم بعد ان كانت فى عهد اسماعيل بجهود على مبارك شاملة لجميع درجات التعليم والتى افاد منها أبنــاء الفلاحين أما السياسة المالية التى كانت جوهر فخر السياسة البريطانية فكانت وبالا على مصر افقرت الخزانة البريطانية ولا تدر دخلا كبيرا ومع مطاردة كل مشروع مصرى وخاصة اذا كان للصناعة وكان وقوف محمد عبده مع عميد الدولة البريطانية يخالف كل ما دعا اليه فى مجال الدين والوطنية » .

هذا ما يراه الاستاذ فتحى رضوان وهى وجهة نظر الحزب الوطنى فى حركة الاصلاح التى قادها الشيخ محمد عبده .

ولقد كان ذلك طبيعيا أن يقف مصطفى كامل والوطنيين مع الخديو عباس الذى أيد حركتهم وأمدهم بالمؤازرة فى المرحلة الاولى وحتى توقيع اتفاقية ١٩٠٤ المسماة باتفاقية الوفاق بين انجلترا وفرنسا .

بينما ان الشيخ محمد عبده كان منفيا وعاد الى مجتمع تغير تمــاما بعد الاحتلال البريطانى ومن ثم كان لابد له من خطة مقاربة وكان دعوته الى التربية والاصلاح لفتح الباب واسعا أمام العمل الاسلامى الذى لم يعــد فى الامكان أن يجرى وفق أسلوب جمال الدين وقبل الاحتلال .

وعندما وجد الشيخ محمد عبده أن هناك محــاولة لتحقيق آماله فى اصلاح الازهر فى مقابل اطلاق يد الخديو فى الاوقاف تحتم على الشيخ المفتى أن يعترض ومن هنا كان موقفه قريبا من موقف المعتمد البريطانى .

وهذا موقف يقاس بمقياس عصره .

(٦)

هناك عدة مسائل اختلف فيها العلماء مع الشيخ محمد عبده .

وقبل كل شيء يجب أن نقول أن الشيخ محمد عبده كان بين مخافتين : الاولى الحملة الخطيرة التى وجهها المستشرقون ومحاولة وصف الاسـلام بالجمود وعدم القدرة على مجاراة العصر .

الثانية : محاولة النفوذ الاجنبى فى احتواء الاسـلام بتأويله واستخدامه لتحقيق أهداف الحضارة فى تبرير فسادها واضطرابها .

وكان الشيخ محمد عبده حريصا على ان يقدم الاسلام للغربيين على انه دين عصرى لا يتعارض مع العلم .

ولما كان الشيخ محمد عبده قد بدأ مع جمال الدين من منطلق الفلسفة والاعتزال فقد أثر ذلك على تصوره الفكرى جميعا من عدة نواحى :

أولا — التأويل :

كتأويل الطير الابابيل بأنها الاوبئة (الجدرى والحصبة) .

يقول الاستاذ سيد قطب نحن لا نرى أن هذه الصورة التى افترضها الاستاذ الامام : صورة الجدرى أو الحصبة من طين ملوث بالجراثيم وتلك التى جاءت فى بعض الروايات من أن الحجارة ذاتها كانت تخرق الرءوس من الاجسام وتنفذ اليها وتمزق الاجسام فتدعها كفتات ورق الشجر الجـاف وهو (العصف) لا نرى أن هذه الصورة أو تلك أدل على قدرة الله (تبارك وتعالى) ولا أولى بتفسير الحادث فهذه كتلك فى نظرنا من حيث امكان الوقوع ومن حيث الدلالة على قدرة الله (تبارك وتعالى) وتدبيره ويستوى عندنا أن تكون السنة المألوفة للناس المعهودة المكشوفة لعلمهم هى التى جرت فأهلكت قوما أراد الله اهلاكهم أو أن تكون سنة الله قد جرت بغير المألوفة للبشر وغير المعهود المكشوف لعلمهم فحققت قدره .

الى أن يقول : فأما فى هذا الحادث بالذات فنحن أميل الى اعتبار أن الامر قد جرى على أساس الخارقة غير المعهودة وان الله تبارك وتعالى أرسل طيرا ابابيل غير معهودة وانه لم يكن هناك حاجة الى قبول الروايات

التى تصف أجسام الطير واشكالها ، اننا ندرك ونقدر دوافع المدرسة العقلية التى كان الاستاذ الامام رحمه الله على رأسها فى تلك الحقبة ونقدر وندرك دوافعها الى تضييق نطـاق الخوارق والغيبيات فى تفسير القرآن الكريم واحداث التاريخ ومحاولة ردها الى المألوف والمكشوف من السنن الكونية

ونلاحظ عنصر المبالغة فى هذا الجانب واغفال الجانب الاخر للتصور القرآنى الكامل وهو طـاقة مشيئة الله تبـارك وتعالى وقدرته من وراء السنن التى اختارها .

ويرد على المدرسة اسرافها فى استعمال العقل قائلا :

وهذا العقل وان يكن فى ذاته قوة مطلقة لا يتقيد بمفردات التجـارب والوقائع بل يسمو عليها الى المعنى المجرد وراء ذواتها الا أنه فى النهـاية محدود بحدود وجودنا البشرى ، وهذا الوجود لا يمثل المطلق كما هو عند الله (تبارك وتعالى) والقرآن صادر عن هذا المطلق فهو الذى يحكمنا ومقرراته هى التى نستقى منها مقرراتنا العقلية ذاتها ومن ثم لا يصلح أن يقـال أن مدلول هذا النص يصطدم مع العقل فلابد من تأويله كما يرد كثيرا فى مقررات أصحاب هذه المدرسة .

ثانيا — مسألة اخضاع الوحى للعقل :

يقول الأستاذ محمد المنتصر الريسونى : لقد انتشرت أفكار الشيخ محمد عبده مع انتشـار المد الاستشراقى فظهر طه حسين وعلى عبد الرازق وهيكل وخلف الله وينطلق الشيخ محمد عبده فى التعامل مع قضايا العصر من الفكرة التى يؤمن بها وهى وجوب موافقة الوحى للعقل .

وهو فى هذا ينهج ما نهج من قبله ابن رشد فى القرن السادس الميلادى وهذا هو الحافز الذى جعله يرفض التقليد ويدعو الى الاجتهاد فى الدين .

ويجب فى (الاجتهاد) التزام النص ولا يعنى الاجتهاد احلال ما حرم الله (اخذ على الشيخ محمد عبده فتواه فى حل اليانصيب الخيرى) .

ومن أخطائه حين تعرض للغيبيـات فأجرى التأويلات المتعسفة .

وهى محاولة من الشيخ للتوفيق بين الوحى والعقل ودفع التهمـة

عن الاســـلام من انه دين يحارب العقل كما قال المستشرق رينان الذى حاوره الشيخ نفسه فى كتابه (الاسلام والنصرانية) .

وأشار الباحث الى موقف الشيخ محمد عبده من الملائكة من قوله (كل أمر قائم بنظام مخصوص تمت به الحكمة الالهية فى اتحاده قائما قوامه بروح الهى سمى على لسان الشرع ملكا) .

وقال أن ما ورد فى القرآن يقطـــع بأن الملائكة مخلوقات لهم عالمهم الخاص .

ثالثا — النظرية التوفيقية :

تحدث الكثيرون عن محاولة الشيخ محمد عبده فى التوفيق بين الاسلام وبين الفكر الغربى .

ويقول الشيخ أبو الحسن الندوى : ان هناك فارقا بين منهجين منهج الشيخ محمد عبده ورفاعه الطهطاوى وقاسم أمين فى مصر وأحمد خـــان وأمير على وصلاح الدين خدابخش ومنسى جراع على وغيره وقد نهج منهجهم محمد على اللاهورى وخوجة كمال الدين .

هؤلاء السادة بحكم ثقافتهم ونشأة وكون الحضارة الغربية فى نظرهم قضية بديهية لا تقبل نظرا ولا جدلا وكونها آخر ما وصل اليه العقل البشرى والعلم البشرى لا يفكرون فى نقـــد الحضـــارة الغربية وقيمهـــا ومفاهيمها ومناقشتها فضلا عن ان يفكروا فى هجوم أو تحد أو تناول للاسس التى قامت عليها ببحث أو تمحيص ، هذا المنهج مخالف للمنهج العلمى القوى الهجومى الذى اثره حجة الاسلام الغزالى فى تهافت الفلاسفة فى نقد الفلسفة اليونانية وشيخ الاسلام ابن تيميه فى الرد على المنطق وفى نقد المنطق اليونانى وفلسفة أرسطو ثم هجر هذا الاسلوب قرونا طويلة حتى جاء دور نهضة الغرب وران سحره على العقول والنفوس .

وان من لطف الله (تبارك وتعالى) ان نشأ (أبو الحسن) فى بيئة تمردت على الحضارة الغربية واغراءاتها واستقامت على الفكرة الاسلامية النقية البعيدة عن الافراط والتفريط فى عصر بدأ فيه سحر الحضارة الغربية بضعف ويزول بتأثير حركات تحررية وثورات سياسية فى البلاد وفى حضـــارة

حزب أخذ من الثقافتين القديمة والحديثة رجعيتهما واحتفظ بأفضل ما عندهما (المدرسة الاسلامية الهندية) التى تشكل عليها ابو الحسن والتى تعـــاف الادب الضعيف والكتابات المتراجعة والادب المنهزم وكان أول من وجـــد فى أدبه ما يرضى ضميره ويشحن نفســـه بشحنة جديدة من الثقة والاعتزاز وسمو النظر وقوة العاطفة هو ثقة الدكتور محمد اقبال الذى آمن بخلود الرسالة المحمدية وقيـــادة صاحبها لكل زمان وكفر بالحضارة الغربية وتحدى زعمائها .

يقول الشيخ أبو الحسن : واشعر بان مدرســـة السيد جمال الدين قد أثرت فى أساليب الكتاب العرب فهم اذا خاضوا فى السياسة وانتقدوا الاستعمار كانوا شجعانا معاصرين ولكنهم اذا تناولوا بوضوح الحضارة الغربية والفلسفات الاقتصادية والعلوم العمرانية تأجأجت السهام وضعف أسلوبهم حتى يظهر من خلال كتاباتهم أن الغرب هو المثل الاعلى وأن المقاس للنهضة والسعادة هو الدنو من هذه الغاية » .

ويلزمنا هنا أن نذكر بأن أول من هاجم الحضارة الغربية فى المشرق العربى ودعا الى نقدها هو الامام حسن البنا .

الذى يعتبر تطورا عمليا وواسعا لمفاهيم الدعوة الى التربية الاسلامية التى حملها الشيخ محمد عبده وتصحيحها لمفاهيم الاتجاه الفلسفى وعلم الكلام والمعتزلة الجدد وتخطيا لمسألة السياسة التى عارضها الشيخ الامام فكان مفهومه بعد أكثر من عقدين بعد وفاة الامام وبضعة أعوام من سقوط الخلافة عودة الى مفهوم الاسلام الاصيل الجامع بوصفه منهج حيـــاة ونظام مجمع حتى يمكن أن يقال بأننا عدنا مجددا الى المنابع وتحررنا من الخطوات الضيقة — التى كان لابد منها فى مرحلة الشيخ محمد عبده .

وقدمنا المفهوم الصحيح الجامع المستمد من مفهوم الاســـلام قبـــل ظهور الخلاف والمتحرر من المفاهيم التى ادخلها الاعتزال أو التصوف الفلسفى أو غيرهما بحيث يمكن أن نقول اننا نعيش الان فى (المرحلة القرآنية) من الدعوة الاسلامية بمعنى أننا نلتزم فيهـــا بمفهوم القرآن الاصيل الجامع وهى مرحلة بدأت مع حركة اليقظة منذ أكثر من ستين عاما والتى قادها الاستاذ

حسن البنا فى العصر الحديث وكان المسلمون قبــل ذلك يعيشون مرحلة أخرى يمكن أن يطلق عليها المرحلة التوفيقية .

وهى المرحلة التى غلبت عليها مفــاهيم الفلسفة أو الاعتزال وهى المرحلة التى قادها جمال الدين الافغانى والشيخ محمد عبده والتى امتدت الى اقبال والعقاد ومن اليهم ممن اعتبروا ان علم الكلام أو الفهم الفلسفى للاسلام قادر على أن يخرج المسلمين من دائرة الجمود أو الجبرية الصوفية .

(وقد عرض لهذا فى توسع الاستاذ سيد قطب فى كتابه (التصــور الاسلامى) .

وكانت تلك المرحلة تعنى بقراءة كتب المنطق وتقبل مفــاهيم الفلاسفة المسلمين (المشاءون) أمثال الكندى والفارابى وابن سينا وهم الذين قادوا حركة ما بعد ترجمة الفلسفة اليونانية والذين جاء الغزالى وابن تيمية وغيرهم للكشف عن أخطائهم .

بل أن باحثا من صفوف الدعوة الاسلامية وتلاميذ الشيخ البنــا هو (على سامى النشار) هو الذى قنن مفــاهيم التحرر من الاتجاه الفلسفى الى الاتجاه القرآنى فى كتابه :

(مناهج البحث عند مفكرى الاســلام) اقرا بحثنــا عنه فى كتــابنا (مصابيح العصر والتراث) .

كذلك فقد جاءت هذه المرحلة سابقة (تاريخها ١٩٣٢ تقريبا) لمقولة الشيخ مصطفى عبد الرازق (١٩٤٢) بأن مبدأ الفلسفة الاســلامية هى (الرسالة للامام الشافعى) وان الامام الشافعى فى الفكر الاســلامى بمقام ارسطو فى الفكر اليونانى .

وقد كشف هذا التيار بتوسع الدكتور على سامى النشار كما أوردنا كما كشف التيار الفلسفى الحديث المنتسب الى من سموا المعتزلة الجــدد الاستاذ سيد قطب فى كتابه التصور الاسلامى كما أسلفنا ولقد عنى بتوجيه هذا الموضوع الشيخ أبو الحسن الندوى من خلال تجربة اليقظة الاســلامية فى مسلمى الهند وابان دور اقبال فى هذا الامر ثم دور الموردى ودوره هو أيضــا .

هذا التطور الحقيقى هو الانتقال من النظرية التوفيقية (**مذهب المعتزلة** الجدد) الى نظرية **العـودة الى المنابع** وقرآنية المصدر والكشف عن فســاد الحضارة الغربية التى قادها الشيخ حسن البنا وتلاميذه وأتباعه .

ثم جاءت مرحلة أسلحة العلوم والمناهج وتقديم البدائل نتيجــة طبيعية لهذه الخطوات .

هذا وتقف المدرسة الاسلامية الهندية التى انشــأت محمد اقبــال وسليمان الندوى وأبو الحسن الندوى والمودودى موقفا واضحا من الحضارة الغربية وتحتمى دائما بمفهوم الاسلام الصحيح المحرر وتضع الشيخ محمد عبده وأمير على واحمد خان (وصلاح الدين خدابخش ومنسى جراغ على ومحمد على اللاهورى وخوجة كمال الدين فى منزلة مساوية لرفاعة الطهطاوى وقاسم أمين ولطفى السيد وسعد زغلول وطه حسين والعقاد وهيكل) .

وبين هذه المدرسة التوفيقية وبين المدرسة القرآنية التى تحمل طابع الاصالة خلافاتواسعة فهؤلاء بحكم ثقافتهم ونشأتهم — وعلى حد النصالذى نقلناه عن الشيخ الندوى — وكون الحضــارة الغربية فى نظرهم قضيــة بديهية لا تقبل نظرا ولا جدلا وكونها آخر ما وصل اليه العقل البشرى والعلم البشرى لا يفكرون فى نقد الحضارة الغربية .

رابعا : تفسير الاســلام وتأويل نصوصه بما يبرر الحضــارة الغربية وهذه مسألة تحدث عنها كثيرون ممن عرضوا لتاريخ الشيخ محمد عبده ويرى الدكتور محمد محمد حسين أنها من أخطر الدعوات الهدامة من حيث أنهــا ترمى الى اعادة تفسير القرآن وتأويل نصوصه بما يبرر الحضارة الغربية ويساعد على ترويجها بين العرب والمسلمين وذلك لكى يمحو الطابع المميز لهم والذى هو قوام شخصيتهم والذى يستمدون منه ثوراتهم التحررية المهددة لمصالح الاستعمار .

ويرى أن محمد عبده فى مصر وأحمد خان فى الهنــد كانوا الخلفــاء الطبيعيون للمصلح الاوربى .

وقد يقل (نيومان) قول كرومر فى هذا ثم قال :

ان التطورات التى يجتازها العالم الاسلامى تجعل كلمات كرومر ذات دلالة خاصة .

وأكد (جب) فى كتابه وجهة الاسلام وكتابه
(Madern Trandio in Islam)
الذى وصـــف فيه مذهب الشيخ محمـــد عبـــده بأنه (خشبة الخلاف فى حركة التحرر العلمانية) .

ثم عاد لورد لويد الى تأكيده فى كتابه (مصر فى عصر كرومر) حين أشار الى الخطة الانجليزية التى ترمى الى ازبال شوكة العصبية باسم التسامح والاخوة الانسانية تمهيدا لخلق رأى عام موال للانجليز لكى تقوم العلائق الانجليزية المصرية على أساس من التفاهم والتعاطف المتبـــادل .

ومن أهم ما ترمى اليه هو استخدام نصوص الشريعة الاسلامية فى تبرير أنماط الغرب الفكرية والاجتماعية وهو شر من تقليد هذه الانمـــاط تقليدا أعمى ، لان الناس يمكن أن يعيشوا على أمل التخلص من الدخيل اذا قامت فيهم حركة أصيلة للاحياء أما فى الحالة الاولى وهى حالة اندماج وتفاعل فان ادراك الحدود بين الاصيل والدخيل تدق وتخفى حتى تكاد تستحيل .

ويرمى الدكتور محمد محمد حسين الى الخطوات التى جاءت بعد ذلك من خلال مفاهيم على عبد الرازق وامتداده فى كتابات عبد الحميد متـــولى وفيما يتصل بالدور الذى قام به السنهورى بدعوته الى تطور الفقـــه .

كما جرت أبحاث كثيرة حول ما وصف بمقولة جعل العقل البشرى ندا للوحى فى هداية الانسان ووجوب تأويل النص ليوافق مفهوم العقل .

يقول محمد محمد حسين : ان هذا مبدأ خطر فاطلاق كلمة العقل يرد الامر الى شىء غير واقعى فهناك عقلى وعقلك وعقل فلان وعقل علان ، وليس هناك عقل مطلق لا يتناوبه النقص والهوى والشهوة والجهل .

فاذا أوجبنا التأويل ليوافق النص فانه بالنسبة لهذه العقول الكثيرة ينتهى الامر الى فوضى .

وقال : ان العقل له مكانة فى مجال التلقى من الوحى ولكن ليس هو الحكم الاخير ما دام النص محكما فالمدلول الصريح لنص من غير تأويل هو الحكم وعلى العقل أن يتلقى مقرراته هو من مدلول هذا النص الصريح » .

وقد اختلفت الاراء فى الشيخ محمد عبده كما تختلف مع كل عظيم ورائد وكان عمله لتحرير الفكر الاسلامى وتحطيم الجمود ورفضه الجبرية الصوفية التى كانت سائدة اثره الكبير فى انقسام رأى الناس فيه بين مؤيد ومعارض .

ولقد كان موقفه فى الجانب المتصل باللورد كرومر وتردده على صالون نازلى فاضل المعارضة للخديو والموالية لنفوذ الاستعمار اثره البعيد فى مواقف كثيرة منها موقف قاسم أمين من المرأة .

وقد عرف من بعد كيف أن الشيخ محمد عبده شارك فى اعداد بعض نصوص كتاب تحرير المرأة (خاصة فى الجزء الفقهى منه) كما يردد الكثيرون ممن يقايسون الاساليب والعبارات .

ولكن الشيخ محمد عبده رغم هذا كله قدم للفكر الاسلامى أرضية عريضة كانت ذات أهمية كبرى فى حركة تجديده ويقظته .

فقد قدم منهجا كاملا فى هذا الصدد قوامه :

١ — النظر العقلى لتحصيل الايمان .

٢ — تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض (وهذه فيها نظر) .

٣ — البعد عن التكفير (من أصول الاحكام فى الاسلام) .

٤ — الاعتبار بسنن الله (تبارك وتعالى) فى الخلق (ان الله تبارك وتعالى فى الامم والاكوان سننا لا تبتدل) .

٥ — هدم الاسلام السلطة الدينية ومحا اثرها ولم يدع الاسلام لاحد بعد الله تبارك وتعالى ورسوله سلطانا على عقيدة أحد ولا سيطرة على ايمانه .

٦ — تآخى العقل والدين لاول مرة فى كتاب مقدس على لسان نبى مرسل بتصريح لا يقبل التأويل .

٧ — لا تعارض بين الدين والعلم .

٨ — معارضة دعاة الفصل بين العلوم الدينية والعلوم العقلية .

٩ — العودة الى النبع الصافى والسلف الصالح وفهم الدين على طريقة سلف الامة واستيعاب الميراث الحضارى الاسلامى قبل ظهور الخلاف.

١٠ — استخدام العقل فى فهم الاصول الاسلامية .

(حيث يرى أن العقل مظهر التفكير الذى حث عليه جوهر الاسلام للتعرف على أساس الاسلام الصحيح) .

١١ — لم يسرف الامام فى ثقته بالعقل بل أقر بوجود حدود له خاصة فيما يتعلق بعالم الغيب .

١٢ — استيعاب قوانين العصر تبعا للمصالح المرسلة والمتجددة للبشر

١٣ — معجزة القرآن جامعة بين القول والعمل .

١٤ — تحرير الفكر من قيد التقليد .

١٥ — اصلاح اللغة العربية فى التحرير .

١٦ — رفض الاوضاع المتخلفة لحياة المسلمين وخاصة سلوكياتهم العقائدية .

● ● ●

لم يبق من منهج الشيخ محمد عبده الا مسألة الفتاوى واهمها :

١ — تعلم اللغات الاوربية والاستعانة بغير المسلمين .

٢ — اباحة الصور والتماثيل .

٣ — لبس البرنيطة وأكل اللحوم التى يذبحها غير المسلمين .

(٧)

رجلان تابعا محمد عبده فى منهجه الاسلامى الاصلاحى هما : رشيد رضا والمراغى . أما رشيد رضا فقد عدل اتجاه حركة الاصلاح الى اعتماد السنة والتقيد بها وبذلك تحرر من الاتجاه المعتزلى القائم على علم الكلام والفلسفة .

أما الشيخ المراغى فقد دعا الى التقريب بين المذاهب .

يقول : يجب العمل على ازالة الفروق المذهبية أو تضييق شقة الخلاف بينها فان الامة فى محنة من هذا التفرق ومن العصبية لهذه الفرق ومن هنا يجب الرجوع الى أسباب الخلاف ودراستها دراسة بعيدة عن التعصب المذهبى .

ان بعض هذه المذاهب والاراء قد أحدثتها السياسة فى القرون الماضية لمناصرتها فشقت وحدة أهلها وخلقت فيهم تعصبا يساير التعصب السياسى ثم انقرضت تلك المذاهب السياسية وبقيت تلك الاراء الدينية لا ترتكز الا على ما يصوغه الخيال وما افتراه أهلها .

وهذه المذاهب فرقت الامة التى وحدها القرآن الكريم وجعلتها شيعا فى الاصول والفروع ونتج عن ذلك التفرق حقد وبغضاء يلبسان ثوب الدين ونتج عنه سخف مثل ما يقال فى فروع الفقه من أن ولد الشافعى كفاء لبنت الحنفى — الخلاف فى التوسل والوسيلة وغذبات العمائم وطول اللحى حتى أن بعض الطوائف لا تستحى من ترك مساجد جمهرة المسلمين وتسعى لانشاء مساجد خاصة .

يجب أن ندرس الفقه الاسلامى دراسة حرة خالية من التعصب لمذهب وان تدرس قواعده مرتبطة بأصولها من الادلة وان تكون الغاية من هذه الدراسة عدم المساس بالاحكام المنصوص عليها فى الكتاب والسنة والاحكام المجمع عليها والنظر فى الاحكام المجمع عليها والنظر فى الاحكام الاجتهادية يجعلها ملائمة للعصور والامكنة والعرف وأمزجة الامم المختلفة كمـا كان يفعل السلف من الفقهـاء .

ويقول الامام المراغى أن الدين فى كتاب الله غير الفقه ، وأن من الاسراف فى التعبد أن يقال عن الاحكام التى استنبطها الفقهاء واختلفوا فيها وتمسكوا بها حينا ورجعوا عنها أحيانا انها أحـكام الدين وان من أنكرها فقد أنكر شيئا من الدين فانما الدين هو الوحى من الله تبارك وتعالى الى الانبيـاء جميعـا .

اما القوانين المنظمة للتعامل والمحققة للعدل فهى آراء الفقهـاء المستمدة من أصولها الشرعية وهى تختلف باختلاف الظروف والبيئات » .

● ● ●

وقد جاء قرار المجمع الفقهى فى مكة المكرمة بشأن موضوع الخـلاف الفقهى بين المذاهب (منار الاسلام رمضان ١٤٠٩ — ابريل ١٩٨٩) وافيـا للغرض محققا لآمال علماء الاسلام قاضيا على استغلال بعض الناس لهذا الخلاف للتشكيك فى المذاهب والطعن فيها .

القـــرار :

أن اختلاف المذاهب الفكرية القائمة فى البلاد الاسلامية نوعان :-
١ — اختلاف فى المذاهب الاعتقادية .

٢ — اختلاف فى المذاهب الفقهية .

أما الاختلاف الاعتقادى فهو فى الواقع مصيبة جرت الى كوارث فى البلاد الاسلامية وشقت صفوف المسلمين وفرقت كلمتهم فعلى الأمة أن تجتمع على مذهب أهل السنة والجماعة الذى يمثل الفكر الاسلامى النقى السـليم فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلافة الراشدة .

٢ — اختلاف المذاهب الفقهية فى بعض المسائل له أسبـاب علمية اقتضته ولله تبارك وتعالى فى ذلك حكمة بالغة ومنها الرحمة بعباده وتوسيع مجال استنباط الاحكام من النصوص ، ثم هى نعمة وثروة فقهية تجعل الامة الاسلامية فى سعة من أمر دينها وشريعتها فلا تنحصر فى تطبيق شرعى واحد حصرا لا مناص لها منه الى غيره بل اذا ضاق بالامة مذهب أحد الائمـة الفقهـاء فى وقت ما أو فى أمر ما وجدت فى المذهب الاخر سعة ورفقـا ويسرا سـواء فى العبادات والمعـاملات وشئون الاسرة والقضاء على ضـوء الادلة الشرعية .

٢ — هذا الاختلاف لا يمكن أن يكون لان النصوص الاصيلة كثيرا ما تحتمل اكثر من معنى واحـد ، كما أن النص لا يمكن أن يستوعب جميع الوقائع المحتملة لان النصوص محدودة والوقائع غير محددة فلابد من اللجوء الى القياس والنظر الى علل الاحكام .

وغرض الشارع والمقاصد العامة للشريعة وتحكمها فى الواقع والنوازل المستجدة وفى هذا يختلف مفهوم العلماء وترجيحاتهم بين الاحتمالات .

وليس صحيحا أن اختلاف المذاهب الفقهية كما لو كان اختلافا اعتقاديا كما يصوره المستشرقون .

٣ — خطأ القول بنبذ المذاهب وحمل النـاس على خط اجتهـادى جـديد . أ . هـ .

الباب الرابع

كرومر ودنلوب وزويمر

وبناء قاعدة التغريب

أما كرومر فهو الذى رسم منهج التغريب والغزو الثقافى ووضع اصوله وركائزه التى ما زال يستمد منها دعاة العلمانية خططهم ومناهجهم .

وكان كرومر قد ولى منصبه فى مصر ممثلا للدولة البريطانية فترة لا تقل عن ربع قرن (١٨٨٣ — ١٩٠٧) حارب خلالها الاسلام حربا عوانا وقال أريد أن أهدم ثلاثا : الاسلام والازهر والكعبة وكانت خطته البقاء فى مصر حتى يشكل جيلا جديدا له ولاء كامل للغرب وللنفوذ الاستعمارى لبريطانيا وقد تم له تحقيق ذلك ولم يغادر مصر الا بعد أن أسلم الصحافة والحزب الى لطفى السيد ووزارة المعارف الى سعد زغلول والقضاء الى عبد العزيز فهمى .

ومما يؤثر عنه قوله : ان الساعين لارجاع مجد الاسلام يحاولون أن يحيوا فى القرن العشرين المبادىء التى تكونت قبل أكثر من ألف سنة لقيادة أمة بدوية فى حالة الفطرة وان من تلك المبادىء ما يخالف الفكر العصرى ويناقضه من اباحة الاسترقاق وما جاء عن العلاقات بين الجنسين .

وقد رفض ارائه كثير من الباحثين ولكنه تمكن من تكوين جيل يحمل هذه الاراء ويدافع عنها فقد كان ذا نفوذ بالغ سيطر على كل أجهزة الحكم جميعا حتى أطلق عليه صاحب السلطة الفعلية بينما أطلق على الخديو صاحب السلطة الشرعية .

وأهم ما دعا اليه كرومر :

١ — القضاء على الاسلام دينا ودولة .

٢ — القضاء على الوحدة الاسلامية .

وقد استطاع خلال هذه الفترة الطويلة أن يؤكد النفوذ الغربى فى مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والسياسية والتعليمية والقانونية المصرية وتمثل تقاريره فلسفة كاملة للتعامل بين النفوذ الاستعمارى والمصريين .

وقد استطاع كرومر أن يعد ركيزتين هامتين فى سبيل دعم الاحتـــلال البريطانى والنفوذ الاستعمارى كان لهما أثرهما البعيد بعد ذهاب كرومر والى وقت بعيد : هاتان الركيزتان هما :

وضع لطفى السيد على رأس صحيفة الجريدة لسان حال ضرب الامة منذ عام ١٩٠٧ الى عام ١٩١٤ ليبث يوميا فلسفة استعمارية اقليمية تمثل المنهج الغربى الاستعمارى الذى ورثناه خلال فترة الاحتلال البريطانى كله والذى ما تزال اثاره ممتدة الى اليـــوم بالرغم من كل محـــاولات التحرير والاصـــلاح .

وكانت دعوته مغلفة بغلاف من الدعوة الى القومية المصرية واعلانها فى مواجهة العروبة والاسلام جميعـــا .

وكذلك وضع سعد زغلول على رأس نظارة المعارف تأكيدا للمعـــانى التى حرض النفوذ البريطانى على تحقيقها من خلال التربية والتعليم وأهمها فرض اللغة الانجليزية على مختلف مناهج التعليم ورفع مناهج القرآن والتاريخ الاسلامى والمفاهيم الاخلاقية والاجتماعية والتربوية الاســـلامية من المناهج وكان كرومر خفيا بتكوين جيل يرث الاحتلال البريطانى ويتكون من متفرنجة المصريين الذين يؤمنون بصداقة بريطانيا ويوالون النظريات الغربية فى مختلف مجالات الاجتماع والسياسة وقد تحقق هذا فعـــلا وتحققت ثمرته بعـــد الحرب العالمية الاولى وفى فترة ما بين الحربين على أوسع نطاق .

ومن خلال كرومر تشكلت الشبكة التغريبية الخطيرة التى استطاعت أن تسيطر على المجتمع وتوجيهه .

١ — القانون الوضعى والمحاكم الاهلية والغاء الشريعة أو حجبها .

٢ — المصرف الربوى القائم على السيطرة على الاقتصاد المصرى .

٣ — تغريب نظم التربية والتعليم على النحو الذى قام به دنلوب .

٤ — فرض مذهب دارون على التعليم الاسلامى معارضا مفهوم القرآن فى خلق الانســـان .

٥ — توسيع وتأمين عملية التبشير الغربى بقيادة زويمر وأتباعه .

(٢)

أما كرومر فقد عمد الى تغريب الفكر الاسلامى من خلال تقاريره السنوية التى كانت ترسل الى الحكومة البريطانية ولا يترجم منها وينشر فى المقطم والمقتطف الا الجانب الخادع وفى خلال ربع قرن استطاع كرومر أن يرسم مخططا كاملا سار عليه من بعده كل دعاة التعريب واتخذته منظمات التبشير ومعاهد الارساليات دستورا لهـا .

وقد تبلورت خطة كرومر فى نقاط هامة أساسية :

١ — اثارة الشبهات حول الاسلام وذلك بالادعاء بانه دين مناف لأمدنية ولم يكن صالحا الا للبيئة والزمان الذى وجد فيهما .

٢ — ان المسلمين لا يمكنهم أن يرقوا فى سلم الحضارة والتمدن الا بعد أن يتركوا دينهم وينبذوا القرآن وأوامره ظهريا لانه يأمرهم بالخمول والتعصب ويبث فيهم روح البغض لمن يخالفهم والشقاق وحب الانتقام وان المانع الاعظم فى سبيل رقى الامة هو : القرآن والاسلام .

٣ — ان الاسلام يناقض مدنية هذا العصر من حيث المرأة والرقيق وان الاسلام يجعل المراة فى مركز منحط .

٤ — الطعن فى شريعة الاسلام وسياسته ومعاملاته .

٥ — ان الشاب المصرى المسلم أثناء ممارسته التعليم الاوربى يفقد اسلامه أو افضل قسم منه ويقطع حبل المرساة الذى يربطه بمرفأ ايمانه وان الشبان الذين يتلقون علومهم فى أوربا يفقدون صلتهم الثقافية والروحية بوطنهم ولا يستطيعون الالتجاء فى نفس الوقت الى البلد الذى منحهم ثقافته فيتأرجحون فى الوسط ويتحولون الى مخلوقات شاذة ممزقة نفسيا .

٦ — هاجم القرآن وقال أنه ينافى العمران وهاجم الاسلام لانه أباح الطلاق وأنه حرم الربا والخمر .

٧ — قال ان الاسلام خال من التسامح ويغلب عليه التعصب ، وأنه يغرس فى العقول الانتقام والكره الذين يجب أن يكونا أساسا للعلاقات بين الرجل والمراة بدلا من المحبة والاحسان .

٨ — دعا الى اطلاق الحرية للمرسلين والمبشرين فى مصر والسودان

وان ينشئوا مدارسهم وضمن تقاريره احصائيات عن اعمال التبشير فى جنوب السودان .

٩ — دعا الى خلق طبقة من المتفرنجين المستغربين من الوجهة الاوربية والمدنية الحديثة وقال ان هؤلاء جديرون بكل تنشيط ومعاونة يمكن أن يعطيها لهم وقال أن هؤلاء هم خلفاء الاوربى المصلح ومساعدوه وسوف يجد محبو الوطنية المصرية أحسن أمل فى ترقب اتباع الشيخ محمد عبده للحصول على مصر مستقلة بالتدريج .

● ● ●

هذه النصوص التى قدمها كرومر هى جمـــاع ما دعا اليه المبشرون والمستشرقون ودعاة التغريب والشعوبيون وهم ما يزالون يعتبرونها القاعدة الاساسية للعمل حتى اليوم وهى مجموعة من الاكاذيب المنبعثة من التعصب واستخدام سلاح الشبهات للقضاء على مقومات الامة وقيم فكرها بعد أن تأكد الاستعمار والنفوذ الاجنبى من أن هذه المقومات هى مصدر القوة فى العالم الاسلامى لمقاومة كل ضغط أجنبى .

(٢)

وقد كان أخطر ما تركز فى عهد كرومر وكان قد بدأ من قبل الاحتـــلال فرض قانون نابليون على المسلمين فى مصر بديلا عن شريعتهم الاســـلامية التى عاشوا فى اطارها منذ بزغ فجر الاسلام حتى حجبها الاحتلال البريطانى والنفوذ الاجنبى فأقام نظاما ربويا فى مجال الاقتصاد وقوانين تفسح الطريق أمام تحلل الاسرة واضطرابها وشيوع الرزيلة فيهـــا لانها لا تحكم ضبط العلاقات بين الرجل والمرأة فهى تبيح جرائم الزنا وهتك العرض وتضع لها اجراءات بعيدة الاثر فى اضطراب المجتمع الاسلامى والاستهـــانة بالعرض والبكارة وفتح باب من الشر فى مجال المسرح والمرقص وعلب الليل .

وبذلك زالت الفوارق العميقة بين المرأة المسلمة العفيفة وبين بائعات الهوى وغلبت مفاهيم الازياء الوافدة والقصص الجنسى بما أحدث شعورا نفسيا عميقا فى المجتمع بان مسائل العرض والشرف والحدود القـــائمة فى علاقات الرجل والمرأة لا أهمية لها بل صارت من بعد موضع السخرية وغلبت

مفاهيم تقول بالتجربة قبل الزواج وتقول بكسر قوامة الرجل بعد أن زارت مصر كاتبات غربيات وكتاب يدعون الى الوجودية وحرية العلاقات الجنسية ومن التغريبيين من دعا المرأة الى أن تقاوم سلطان الرجل وتفرض نفوذها عليه وجاء القصص والمسرحيات والمسلسلات لتفرض نوعا من الحوار الهابط الذى لا يحترم رجولة الرجل ولا أنوثة المرأة ولا علاقات الرجل بالمرأة أو علاقات الاباء والابناء .

وقد بلغ هذا الاتجاه الخطير مداه نتيجة (قانون نابليون) الذى كان بعيد الاثر فى افساد المجتمع الاسلامى بعد توقف الحدود الاسلامية مما فتح باب الربا والسرقة والاختلاس فتكونت ثروات من مصادر غير أصيلة واضطرب الميزان الذى أنزله الله تبارك وتعالى للتعامل بين الناس وغلب التطفيف وانتقاص عمل العاملين والسخرية بالمتمسكين بالحق واضطرب مفهوم الاخلاق الاسلامى الذى كان يجب أن يسود المعاملات التجارية والاقتصادية والاجتماعية .

ونشأت نظرة الى القيم والمقومات والاعراف مختلفة تماما عن قيم الاسلام ونظرته الى العلاقات الاجتماعية حيث تبدو جرائم الزنا والشذوذ الجنسى وهتك الاعراض هناك مسائل عادية بينما هى فى مفهوم المجتمع الاسلامى أمورا خطيرة وحيث لا يهتم الغربيون بمسائل الجنس وشئون العرض ولا يرون للحياة الاجتماعية السليمة تقديرا بل تشعب حياتهم عورات منها صديق العائلة وتبادل الزوجات وهى أعاصير فاسدة طالما أذت مجتمعنا ونحن المسلمون ننظر الى ذلك كله نظرة خطيرة ونقيم للعرض والشرف والغيرة مقاما كبيرا وقد فتحت هذه المحرمات فى مجال التقاضى بابا خطيرا من الباس الباطل ثوب الحق وتدخل الوكلاء والمحامين وافلات المجرم من العقوبة وضياع الحقوق على أصحابها .

وقد استفاد الاستعمار كثيرا من هذه المؤامرة فقد وجد أولياء له من الذين يخدمون غاياته .

وفى خلال هذه المائة عام التى سيطر فيها (قانون نابليون) على البلاد الاسلامية وحجبت الحدود والشريعة والنظام الاسلامى الاقتصادى

اضطراب المجتمع خلالها اضطرابا شديدا ولن يستطيع المجتمع الاسلامى أن يسترد وجوده الحقيقى الا اذا طبق منهج الاسلام الاصيل فى العلاقات الاجتماعية والمعاملات التجارية .

• • •

هذا بالنسبة للمجتمع أما بالنسبة للاقتصاد فقد سيطر النفوذ الاجنبى على المعاملات التجارية فى بلاد الاسلام وفى مصر وأخضعها كلها للنظام الربوى .

وكان منهج دنلوب فى التعليم وتربية الاجيال من أخطر المؤامرات التى فرضت على مصر والبلاد العربية والاسلامية (وفى كل بلد دنلوب على نفس أسلوب تدمير مقومات المجتمع الاسلامى) .

وكان اسم دنلوب من الاسماء الاستعمارية الضخمة فقد وكل اليه كرومر شئون التعليم فكان مستشار نظارة المعارف منذ وقت طويل وامتد نفوذه الى قبيل الحرب العالمية الاولى وكان فى الاساس قسيسا أرلنديا اختاره كرومر ليحقق به سيطرة النفوذ الغربى على مناهج التعليم والتربية فكان عمله أشد قسوة مما حققت مناهج مدارس الارساليات الاجنبية فقد استطاع اسقاط كل الجوانب التى من شأنها أن يتبنى العقل العربى الاسلامى من مناهج التعليم وخاصة فيما يتعلق بالقرآن والتاريخ واللغة والادب ، واضاف كثيرا من تراث الفكر الغربى (الوثنى والمادى) وخاصة الادب الانجليزى بهدف خلق طاقة اعجاب وتقدير للمستعمر واعلاء شأن الحضارة الغربية والنفوذ الاستعمارى وعمد الى خلق ولاء أوربى فى النفس المصرية يستهدف احتقار القيم العربية والاسلامية والمصرية فى محاولة لتصوير المصرى بانه طوال التاريخ مستعبدا بالفرس واليونان وبالعرب أيضا فقد اعتبر دنلوب العرب من المستعمرين للمصرين وجرى على هذا المنهج كثيرون فى مقدمتهم الدكتور طه حسين كما أعلى فى نفوس الشباب المصرى من الاعجاب بالاوربى والنظر الى الاستعمار البريطانى على أنه عملية تجديد للشعوب المتأخرة وحاول ان يجعل العلاقة بين المصريين والبريطانيين علاقة صداقة وولاء ، غير أن هذه المناهج جميعا لم تلبث أن فشلت ولم تحقق الاهداف التى طمع النفوذ الاجنبى فى تحقيقها .

وكانت سياسة دنلوب تهدف أساسا الى انهاء دور الازهر الشريف حصن اللغـة والشريعة فكانت وزارة المعـارف فى عهده بمثابة معهد يعـد الطلاب بعيدا عن البيئة الاسلامية الى أن يصير مفهوم التقدم والحضـارة عندهم هو تقليد الغرب وقد قام طه حسين ولطفى السيد وساطع الحصرى فى العراق بدور خطير فى هذه المؤامرة كما قام بدور خطير أيضا فى هذا الصدد اسماعيل القبانى وعبد العزيز القوصى وغيرهما .

وقد عمل دنلوب على تحقيق هدفين أساسيين :

الأول : العمل على محاربة اللغة العربية والاسـلام والازهر وذلك عمد الى اضطهاد معلمى اللغة العربية من الازهريين .

الثانى : نشر لواء اللغة الانجليزية وتأهيلها للسيطرة الكاملة على كل شئون التعليم وبذلك أمكنه القضاء على نفوذ اللغة العربية ولقد مضى فى ذلك الى حد أنه جعل تعليم سائر العلوم كالرياضيات والتاريخ والكيمياء والجغرافيا والرسم باللغة الانجليزية وضيق على اللغة العربية تضيقا كبيرا .

وقد قاوم دنلوب نشر التعليم العالى فى مصر وسجل ذلك كرومر فى ثورة ١٩٠٧ حين قال أن انجلترا لا تريد نشر التعليم العالى فى مصر وأنهـا لا تريد الا اعداد جمهور من طبقة الافندية يشغل الوظائف الثانوية فى الحكومة وان المصريين لا يصلحون للعلوم العالية وان زيادة التعليم تصرف عن فلاحة الارض وتعود على مصر بالافلاس .

وحرص دنلوب على معاملة الطلبة الوطنين بمنتهى القسوة فعـدل سنة ١٩١٠ المادتين ٨٨ ، ١٠٠ من قانون نظام المدارس بفرض عقـوبات على التلاميذ وقد سجل ادوار لامبير ناظر مدرسة الحقوق فى تقريره الذى نشره فى جريدة الطان ١٩٠٧ بعد أن أبعده كرومر ودنلوب صورة الصراع بين الفرنسيين والانجليز على المناصب الكبرى فى التربية والتعليم وكشف من الخطة التى رسمها كرومر ونفذها بدلا منهم ، كما أشـار الى الانظمـة الاستبدادية التى اتخذها بالنسبة للطلبة وكيف عاملهم بقسـوة متناهية واضطهدهم وجرح كرامتهم مما أحال مدرسة الحقوق معقـلا للوطنية المصرية بحيث أصبح كل طلابها الاربعمائة تابعين للحزب الوطنى .

وان كرومر حين اضطر تحت ضغط الراى العام الى تعيين سـعد زغلول ناظرا للمعارف عمل على سلب سلطته الفعلية وأشار الى الخطط الذى كان دنلوب يدبرها مع نظار المدارس وكبار المواطنين للاتصـال به شخصيا وتلقى أوامره وتعليماته قبل أن يكتبوا تقاريرهم الرسمية وقال لامبير فى تقريره أن الموظف القابض على الادارة الحقيقية لوزارة المعـارف هو دوجلاس دنلوب فى ظل هذه الفترة التى قضاها دنلوب فى وزارة المعـارف وقد امتدت الى عام ١٩٢٠ ثم تبعه خليفة له فى تحقيق تنفيذ خطة التعريب الكاملة للتعليم على النحو الذى استمر يشق طريقه من بعد وكان هدف هذا المخطط أساسا هو تغريب ثقافتنا ومحـاولة تدمير شخصيتنا الاسـلامية العربية وأحالتها الى مزيج مضطرب من نتف الثقافات المختلفة ومحـاولة التشكيك فى عظمة تراثنا الفكرى وأمجادنا وتاريخنا الحافل بالمواقف الخالدة فى الدفاع عن الحرية ومقاومة الغالب والمشاركة فى الحضـارة وحمـاية اثارها والاضافة اليهـا .

● ● ●

وقد عمد دنلوب فى مجال التربية والتعليم الى تكوين أجيـال مفرغة من الدين والتعليم لهدم روح الاسـلام فى المناهج والمخططـات الخاصة بالتاريخ واللغة والثقـافة والعقـائد .

وكان هدفه تخريج أجيال تحمل فى أعماق مشاعرها ذلك الاحساس العدائى للاديان جميعا واقامة روح مادية مجردة من المشـاعر الروحية فاذا لم تكن هذه الاجيال منكرة للعقيدة الدينية فهى مزعزعة الايمان على الاقل بالقيم الربانية وقد شهد كثير من الباحثين التربويين أنه صاغ المواد فى دراسـة التاريخ والمطالعة بروح معادية للوجدان الدينى وبطريقة يتخرج فيها التلميذ والطالب وهو يعادى روح الدين وينفر من كل ما يذكره به .

وكان هدف دنلوب تحطيم قوة العقيدة فى نفس الاجيال حتى لا تتماسك فى وجه النفوذ الاجنبى وازاء مغرياته .

وبذلك فتحت صفحة سوداء شديدة السواد وتخرجت أجيـال كثيرة وفى أعماق مشاعرها الاعجاب بالغرب وبالمستعمر ورغبة فى تقليده وكراهيتها

للفكرة الاسلامية واحتقار لتاريخها ولغتها وعقيدتها جريا وراء سراب خادع .

وبذلك كان لهذه الاجيال أثرها البعيد فى التبعية والموالاة للنفوذ الاجنبى وتأخير النهضة واستبقاء هذا النفوذ بل انه فتح الباب واسعا أمام الماركسية وأمام سموم الفكر التلمودى فى مفاهيم فرويد وماركس ودور كايم وسارتر مما الم بالفكر الاسلامى من مذاهب الوجودية والماركسية والتفسير المادى للتاريخ والمدرسة الاجتماعية وما يتصل بالفلسفة المادية والوثنية والاباحية التى تفشت فى الادب والفكر والثقافة وما طرحت من مفاهيم خطيرة فى مجال الاجتماع وعلوم النفس والاخلاق والتربية .

وما يزال خطر المنهج العلمانى فى التعليم بعيد الاثر فى تأخير النهضة . وما يزال يقف عقبة فى وجه الصحوة الاسلامية .

وقد علت الاصوات الواعية منذ وقت بعيد الى ضرورة اعادة النظر فى مناهج التعليم وأقامتها على منهج الاسلام ، ليس بوضع مادة معينة فهذه مسألة لا تحقق شيئا الا اذا كان مفهوم الاسلام نفسه هو القاسم المشترك الاعظم على جميع مناهج التعليم حتى علوم الكيمياء والطب والفلك والتكنولوجيا .

وذلك لتحرير هذه العلوم من مفاهيم النفوذ الاجنبى التى ما تزال تفرض أن يكون تعليم العلوم باللغات الاجنبية ولا ريب ان قيام الحضارة الاسلامية الجديدة يتطلب أن تتحول العلوم كلها فى اطار مفهوم الاسلام الذى لا يقتصر معطياتها على الشعوب البيضاء ويحول بين الشعوب الملونة وبين أسرار العلوم والتكنولوجيا فتظل مراكز للاستهلاك ومصادر للخامات دون أن يمتلك ارادتها فى تصنيع ثمرات أرضها وثرواتها وخاماتها .

ولتظل تتحرك فى افق تلك الرأسمالية العالمية مع تجاهل عناصر جديدة تدخل أمن العالم الاسلامى فى هذا العصر وهو امتلاكه للثروة والطاقة والتفوق البشرى مقدمة لصناعة حضارة التوحيد مجددة بعد أن توقف فترة عن العطاء .

ولقد بدت حاجة المجتمع البشرى الى الاسلام وعقيدته ومفاهيمه ونظامه الاجتماعى والاقتصادى على النحو الذى كشف عنه الباحثون المنصفون على

مدى تاريخ يمتد أكبر من قرن من الزمان وعلى أيدى درابر وجوستاف لوبون وكارليل والدكتورة سجريد هونكة واخيرا جارودى .

(٣)

٤ — فرض منهج دارون على التعليم الاســلامى معــارضا لمفهــوم القرآن فى خلق الانسان .

وكان من أخطر أعمال كرومر واثاره فى الثقافة الاسلامية افســاح المجال لادخال نظرية دارون فى الثقافة والتعليم المصرى والعربى على النحو الذى ادخلت فيه نظرية الطبيعة (النيشيرية) فى التعليم الهندى .

وتأتى نظرية دارون لترسم اخطر تحد واجــه الفكر الاســلامى فى العصر الحديث فقد فتحت مجلة المقتطف صفحــاتها لطرح هذه القضية وقام شبلى شميل بترجمة كتاب (بخنر) وجرت المساجلات من أجل تأكيــد هذه النظرية فى نفوس المثقفين ليس بوصفها نظرية بيلوجية بل بوصفها قاعدة علمية تنكر وجود ما سوى المحسوس وتقف فى وجه الاديان وتعارض الايمان بالله أساسا .

ولما كانت هذه النظرية ناقصة اساسا وفيها الحلقة المفقــودة فقد جرت المحاولات لاعطائها قداسة زائفة واحيطت بكثير من المغريات وأثبتت بروتوكولات صهيون أنها كانت فى خدمة مخطط الصهيونية العالمية .

وهكذا استغلت فى خدمة النفوذ الاجنبى المفروض على المسلمين وفى كل مرحلة من مراحل البحث العلمى تظهر حقائق جديدة تطمس هذه النظرية وتكشف فســادها عن طريق البحث العلمى نفسه وعن طريق الحفريات التى أكدت ما جاء به القرآن من استقلال خلق الانســان واستقــلال خلق الانواع .

ولكن هذه القوى ما زالت تعمل فى قوة لتجديد المغالطات والاكاذيب لتستمر هذه النظرية فى خداع أكبر عدد من الناس حيث تقوم على أساسها فلسفات مادية خطيرة منها النظرية الماركسية ذاتها .

ومن حيث أنها تقدم مفهوما زائفا للانسان حيث تصوره بأنه حيــوان ومن حيث تركيز مفــاهيم الاستعمار التى تقرر أن البقــاء للاقوى والهلاك للامم الضعيفة ، نعم أن هناك استماتة من جانب قوى الباطل فى مقاومة

الحقيقة التى ظهرت وسوف تظهر يوما بعد يوم حتى تتكشف كل صـــور الضـــلال .

والمعروف أن دارون قدم نظريته على أنها فرض من الفروض وأعلن أن هناك حلقة مفقودة لم يصل اليها ولم يستطع العلماء الوصول اليهـــا بعد مائة عام وانما الذى وجده العلماء فى الاحافير هو انسان كامل له قامته الكاملة منذ ملايين السنيين لا صله له بالقرد ولا باى سلالة من السلالات ..

ولعل الاكتشاف العلمى الذى هدم نظرية دارون من أساسه هو اكتشاف اختلاف (وحدات الوراثة) التى اثبت استحالة تطور الكائن الحى وتحوله من نوع الى آخر ، فقد تبين أن هنـــاك عوامل وراثية كامنة فى خلية كل نوع تحتفظ له بخصائص نوعه وتحتم أن يظل فى دائرة النوع الذى نشـــأ فيه ولا يخرج قط من نوعه ولا يتطور الى نوع جديد وهذا الاكتشاف العلمى هو الذى أعدم نظرية دارون وأقبرها وقضى عليهـــا وهو ما أشـــار اليه الفيلسوف برتراند رسل فى كتابه النظرة العلمية حين قال : لقـــد أخطأ دارون فى قوانين الوراثة حتى غيرتها قوانين مندل تغييرا كليا ، لقد تأكد لنا بالدليل العلمى القاطع فساد وزيف هذه النظرية .

وقد تبين أيضا أن نظرية دارون كما يقول الاستاذ فيصل تيـــلانى — لم يقبل نظرية دارون الا العلماء الملاحدة الذين لا يؤمنون بالخالق جل وعلا ، هذا فضـــلا عمـــا أعلنه علماء فى هذه المادة وفى مقدمتهم (والاس) أعلنوا أنه من المستحيل أن يكون الانسان قد تم تكوينه على طريقة التطور والارتقاء حيث ان الارتقـــاء بالانتخاب الطبيعى لا يصدق على الانسان .

ومنذ طرح شبلى شميل مفاهيم الفيلسوف المادى (بخنر) فى أفق الفكر الاسلامى عن طريق مجلة المقتطف وقد توالت كتابات اسماعيل مظهر وسلامة موسى عن التطور والامر واضح فان الهدف هو اعلاء شأن الفلسفة المادية وفتح الطريق أمام الماركسية والوجودية والفرويدية وغيرها من مفاهيم .

وقد تصدى علماء الاسلام للنظرية وكشفوا زيفهـــا جملة وتفصيـــلا مستلهمين روح القرآن وفى مقدمة هؤلاء جمال الدين الافغانى ومن بعـــده فريد وجدى والمودودى وغيرهم .

ولكن القضية التى ما تزال فى حاجة الى نظر هى تناقض النظرة فى مجال التعليم من حيث ما تزال نظرية دارون تدرس على أنها حقيقة علمية بينما هى فى نظر العلماء الذين يتبعوا دارون هى فروض ثبت عدم صحتها وفضلا عن أن علماء الاحافير كشفوا عن جماجم وأجساد الانسان ما يكسف شمس هذه النظرية .

ومن ثم فقد وجب ان تعامل على هذا الاســـاس وان ينتهى دورها المسموم على مدى هذا الزمن الطويل فى افساد العقائد وبلبلة الخواطر .

٥ — توسيع دائرة التبشير المغربى بقيادة زويمر واتباعه :

وقد تميز عصر كرومر ومرتكزاته التى وضعها للعصور التالية وحتى اليوم بالاهتمام بالتبشير فى مختلف البلاد العربية والاسلامية .

وقد قام زويمر بدور ضخم فى هذه المرحلة يكمل دور دنلوب الذى كان مختصا بالتعليم فجاء دور زويمر ليشمل الثقـــافة والصحافة فقـــد رأس مؤتمرات التبشير التى عقدت فى القاهرة ولكنو (الهند) والقدس وأدلى فيها بتقارير ضافية عن الخطوات التى حققتها محاولاته فى تغريب العالم الاسلامى ونزع مقومات فكرة عن طريق التعليم والصحافة والمستشفى وقد أفسح له كرومر فى مجالات كثيرة وقد بدأ عمله فى البحرين ثم انتقل منها الى مسقط والكويت والبصرة حتى عام ١٩١٣ واقام مؤتمرا للتبشير فى منزل احمد عرابى فى باب اللوق تحديا لشعور المسلمين ثم قصد الى لكنو مقر جماعة العلماء التى يراسها شبلى النعمانى ثم راس مؤتمرا فى القدس ١٩٢٤ ، ثم فى ١٩٢٦ وتولى تحرير مجلة العالم الاسلامى وله عشرات الكتب عن الاســـلام تحمل وجهة نظرة .

وقد كتب فى مجلة العالم الاسلامى الانجليزية يقول :

ان لعمل ارساليات التبشير فى البلاد ميزتين :

مزية تشييد ومزية هدم وتحليل وتركيب ، ان خطر المبشرين من التعبير الذى اخذ يدخل على عقائد الاســـلام وعبادته الخلقية فى البلاد العثمانية والقطر المصرى اكثر بكثير من خطر الحضارة الغربية عليه .

ومن اخطر اعمال زويمر اقتحامه الازهر الشريف وتوزيعه منشورا على الطلاب فى قاعات الدرس تحت عنــوان (لماذا لا ترجــع الى القبلة القديمة) .

وقد تبين بعد وفاة زويمر انه كان يهوديا اساسا تخفى تحت ستــار التبشير المسيحى وانه كان يدعو فى منشوره الى عودة المسلمين الى قبلة اليهــود .

وكان من دعوته عدم ادخال المسلمين فى المسيحية وانما اخراجهم من الاسلام حتى يكونوا ملاحدة يكرهون الاسلام اساسا ويحاربونه .

وهكذا نجد كرومر وقد وضع اساس القاعدة التغريبية العريضــة التى انتجت بعد ذلك كل العلمانيين والتغريبيين وفى مقدمتهم سعد زغلول ولطفى السيد وقاسم امين .

فقد مهد لهم الطريق للقيادة السياسية بعد الحرب .

وانشأ الاجيــال الجديدة المتمثلة فى طه حسين ومحمــود عزمى وعلى عبد الرازق ويرى بعض المؤرخين ان الكادر كله قد اعد على اساس فلسفة لطفى السيد المستمدة من تعاليم كرومر وهى التى قادت المسيطرين سياسيا ففكريا خلال فترة ما بين الحربين وما بعده بقليل وكان كرومر يقول (ان المسلم غير المتخلق بأخلاق اوربية لا يصلح لحكم مصر) ومن ثم اصبحت القاعدة ان المستقبل الوزارى سيكون للمصريين المتربين تربية اوربية .

وقوله (ان المتفرنجين من المصريين اذا قيســوا الى مواطنهم كانوا اصلح الناس للتعاون مع الادارة الانجليزية) .

وكان من جملة ما نقلوه نقلا اعمى السخرية برجال الدين والاستخفــاف بأمر الدين نفســه .

وقد اشاد كرومر فى خطاب الوداع عندما خرج من مصر برجلين اثنين هما مصطفى فهمى وسعد زغلول .

قال عن مصطفى فهمى انه اعظم من التقيت بهم فى حياتى لطفا واكرمهم

خلقا وأحسنهم مناقب فقد امتاز بتمام الاخلاص والاستقامة والحرية والصدق وانه خدم بلاده بطريقته المعهودة من السكينة والهدوء والابتعاد عن التعرض لغيره .

وقال عن سعد زغلول : لقد علمتنى معاشرتى القصيرة له أن احترمه احتراما عظيما وان أصاب ظنى ولم يخطىء كثيرا فسيكون امام ناظر المعارف الجديد سعادة سعد زغلول باشا مستقبل عظيم للمنفعة العمومية لانه حائز لكل الصفات اللازمة لخدمة بلاده .

● ● ●

الباب الخامس

سعد زغلول

أكبر تلاميذ كرومر ومقنن العلمانية فى مصر

لمع اسم سعد زغلول فى تاريخ مصر فى العصر الحديث لمعانا خاطفا ربما وصف به من انه قائد ثورة ١٩١٩ — غير أن سعد زغلول من الشخصيات التى انقسم حولها الراى والتى لم تظفر بالطمأنينة الكاملة فى الحكم عليها من جميع الاطراف ، ذلك ان سعد زغلول كان قبل الحركة الوطنية له ولاء مشبوه مع النفوذ البريطانى تجلى فى أكثر من مظهر وكان أبرز مظاهرة مصاهرته لمصطفى فهمى ذلك الرجل الذى فرضه الانجليز رئيسا للحكومة بعد الاحتلال فأمضى ثلاثة عشر عاما حاكما مطلقا والرجل الذى كان موضع ثقة كرومر وموضع نقمة وكراهية المصريين جميعا .

وعن طريق هذه المصاهرة التى تمت فى حضانة كرومر وفى مجال الدعوة التى دعاها الى ظهور طبقة من الشباب المصريين المتفرنجين الذين يعاونون الاجنبى ويتولون حكم البلاد ظهر سعد زغلول لاول مرة ناظرا للمعارف عام ١٩٠٧ .

وكان شقيقه فتحى زغلول أحد قضاة دنشواى ، وفى خلال نظارة سعد حدثت أحداث كان لها أكبر قدر من الولاء للنفوذ الأجنبى فقد صادر اللغة العربية بالرغم من الاصوات التى ارتفعت لجعلها لغة التعليم وفرض اللغة الانجليزية وايد امتياز قناة السويس أربعين عاما فى الجمعية العمومية وانه الرجل الوحيد الذى ذكره كرومر فى خطاب الوداع بعد أن حكم مصر ربع قرن ووصفه بالرجل العظيم صهر الرجل العظيم،كل هذه الجوانب الخافية لصورة سعد زغلول على رأس الحركة الوطنية تكشف بوضوح عن الدور الذى أعده الاحتلال البريطانى له ، والذى يتمثل فى احتلال شخصيات لها ولاء بريطانى محل شخصيات وطنية خالصة ، ومن هنا فقد كان سعد زغلول ولطفى السيد وعبد العزيز فهمى فى مقدمة الرجال الذين عملوا فى

الحركة الوطنية السياسية من داخل دائرة النفوذ الاستعمارى ووفق مفاهيمه وهى الدائرة التى حلت محل دائرة اليقظة والاصالة التى اسقطها الانجليز من زعامة البلاد واقصاها ونفاها قبل الحرب العالمية الاولى .

● ● ●

ولقد اخذت شخصية سعد زغلول حيزا كبيرا وأفسح لها النفوذ الاجنبى من الدعوة وذيوع الصيت ما يمكن لما تحمله من مذهب ومنهج ومفهوم هو بديل للانطلاقة الوطنية الصحيحة التى حمل لوائها مصطفى كامل ومحمد فريد وذلك فى اطار طبيعة النفوذ الاجنبى المسيطر على الاقطار العربية من تصفية نفوذ الحركات الوطنية الاصيلة التى تستمد مفهومها من الرابطة الاسلامية الجامعة تحت لواء الخلافة والتى تتخذ من الجهاد الاسلامى منطلقا لها لحرب ومقاومة القوى الغازية للوطن وهى الخطة التى حولها مصطفى كامل والحزب الوطنى وان لم يبلغ الغاية بها ومن هنا كان لابد للنفوذ البريطانى الزاحف الى مصر من تصفية هذا المفهوم وقد تحقق ذلك خلال الفترة من ١٨٨٢ الى قيام الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ حيث اضطهدت تلك القيادات الوطنية الحقيقية محمد فريد ، وعبد العزيز جاويش وغيرهم ممن اضطروا الى الهجرة وذلك ليعد المسرح لجيل لطفى السيد وحزب الامة الذى كان يعد لقيادة البلاد بعد الحرب مما تحقق تماما على النحو الذى رسمه النفوذ الاجنبى حيث تجمعت هذه القوى أولا تحت اسم (الوفد المصرى) بقيادة سعد زغلول ثم تفرقت وتصارعت ولكنها لم تخرج فى كل حركتها حتى سقوطها عام ١٩٥٢ عن ولائها للنفوذ الاجنبى والتعامل مع بريطانيا بأسلوب المصالحة .

ولا ريب أن شخصية سعد زغلول قد اخذت قدرا كبير من القداسة والتخليد فان حجمها الحقيقى وجوهرها الصحيح ومكانها فى تاريخ مصر الحديث بين بطولات أخرى كانت اكثر منها تضحية وأعمق اخلاصا وابعد أثرا فى مواجهة النفوذ الاجنبى وثباتا على طريق الله تبارك وتعالى بالحق امثال احمد عرابى والبارودى ومحمد عبده ومصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش وأمين الرافعى وعشرات غيرهم قدموا نبض قلوبهم

وعصارة ارواحهم فى سبيل تحرير الوطن وتصحيح الفكر والتماس الاصالة واعادة بناء الامة بالحق .

كان الهدف من مدرسة سعد زغلول اساسا هو هدم قيم اساسية فى الامة :

اولا : الخروج من دائرة الجهاد الاسلامى الى الالتقاء بالنفوذ الاستعمارى فى منتصف الطريق .

ثانيا : قبول النظام الغربى الوافد وحجب الشريعة الاسلامية والخضوع للقانون الوضعى فى المحكمة والمدرسة والمصرف .

ثالثا : اعلاء شأن الاقليمية المصرية والعزلة التامة عن كلا الشطرين العربى والاسلامى (وقد اعلن سعد زغلول ذلك صراحة حين قال أن عربى + عربى = صفر) .

وكان النفوذ الاجنبى قد أعد العدة لذلك خلال ربع قرن سهر فيه كرومر على تربية واعداد واختبار هذه العناصر التى ستتولى السيطرة على حكم مصر بعد خروج بريطانيا (وكان قد وضع لطفى السيد فى مجال الصحافة) وسعد فى مجال التعليم ثم كانت المرحلة الثانية هى أن مارسة لطفى السيد كان هو مخطط النظام السياسى المصرى الذى تولاه سعد زغلول لقيادته لاكبر الاحزاب المصرية اغلبية وكان لطفى السيد ورجاله فى الجانب الاخر (حزب الأحرار الدستوريين الذى حمل لواء الدعوة العلمانية وكان ابرز رجاله طه حسين (الشعر الجاهلى) وعلى عبد الرازق (الاسلام واصول الحكم) وهما معدودين عند كل رجال التغريب قاعدة العمل الكبرى بالاضافة الى محمود عزمى وسلامة موسى وجماعة المارون فى الاهرام والمقطم ودار الهلال والمعروف ان الحركة الوطنية المصرية قد بدأت أول أمرها فى اطار الجهاد الاسلامى ومن خلال مفهوم وحدة الامة الاسلامية التى ربطها القرآن وحملها الاسلام تحت زعامة محمد صلى الله عليه وسلم ومن ثم تكونت تلك القيادات الوطنية الاسلامية (الى تجمع بين الاسلام والسياسة بمفهوم القرآن وجهاد العدو الذى اقتحم أرض المسلمين وذلك على طول البلاد العربية والاسلامية وعرضها فى قيادات عبد القادر الجزائرى وعبد الكريم الخطابى والمهدى السودانى واحمد بن عرفان فى الهند والسنوسى وعمر المختار وأحمد عرابى والشيخ شامل ، كل هذه القيادات وأدها الاستعمار

وأعد اتبـــاعه ليحلوا محلهم فى كل مكان وذلك للسيطرة على هذه الامـــة والقضاء على فكرة المقاومة تحت راية الاسلام ولواء الجهاد بمفهوم وحدة الامة الاسلامية وان كل أرض هى أرضها وعمد الى تحريف وتجزئة الحركات مع سيطرة رجاله على قيادها .

فنشــــأت فكرة التجـــزئة الوطنية والاقليمية على يد الزعامات التى صنعها الاستعمار .

ولقد واجه الاستعمار أمة مؤمنـــة وزعامات تكافح فى سبيــــل تحرير أرضها ووطنها ولكنها تؤمن بالوحدة الاســـلامية والارتباط العميق بين الارض وبين منهج الله تبـــارك وتعالى ولذلك فقد وجد الاستعمار فى أمره عسرا فى المرحلة الاولى فقد واجه قيادات مؤمنة تضع أزواجها على أكفها وتتحرك داخل اطار المفهوم الاسلامى الجـــامع .

تلك الصفوة من المجاهدين الصادقين الذين يؤمنون بتكامل الدعوة الى تحرير الارض والى تحرير المجتمع ويرون ان المنهج الاسلامى هو وحــــدة الكفيل باعادة بناء الامة من جديد .

ولما كان النفوذ الاستعمارى يريد تثبيت أقدامه وتركيز دعائمه فقد عجز عن التفاهم مع هؤلاء المؤمنين الصادقين بربهم ودينهم وأوطانهم وقاوموهم شر مقاومة وعمل على تحطيمهم وتدميرهم اما السجن أو النفى أو الابادة واخذ فى نفس الوقت فى بناء الزعامات الجديدة الموالية له والتى تتحرك فى دائرة نفوذه وهى زعامات تؤمن به وتستجيب له وتلتقى به فى منتصف الطريق وتتحرك فى اطار مفاهيمه أساسا ولا بأس أن تختلف معه خلافا ظاهرا ما دامت هذه الزعامات تؤمن بوجوده وتتعامل معه ويقبل سلطـــانه وتقر بتنفيذ قانونه الوضعى ونظامه السياسى وتخضع لمندوبية وتنفذ نصـــائحه باعتبـــارها أوامر ، هذه البيئة المسمومة التى صنعها النفـــوذ الاستعمارى فى أرض الاسلام انما كان سعيها لتحكم هذه الاقطار طويلا وذلك فقد اختارها بعناية وكونها ورباها ومنحها القدرة على أن تكسب اعجاب الجمـــاهير بالخـــلاف الفرعى معه ولكنها كانت فى مجموعها من صنع يده وصاحبة ولاء أكيد له .

ونحن حين ندرس تاريخ الحركة الوطنية فى العالم الاسلامى كله نجد

هذه البدائل واضحة وقائمة وقد مهد الاستعمار لها وأجلى رجال الوطنية الحقة بالنفى أو السجن .

وفى مصر نرى كيف استطاع الاستعمار منذ دخوله البـلاد ١٨٨٢ الى أوائل الحرب العالمية ١٩١٤ ان يتخلص من هذه الجماعة الوطنية الصـادقة الايمان بالعمل عن طريق الجهاد والمقاومة وفق أسلوب الاسلام لانها أخطر على بقائه وهى حائل دون نشر مفاسده وسوءاته وسمومه وغزوه الفكرى واستطاع كرومر خلال خمسة وعشرين عاما أن يخرج جيـلا جديدا من المتفرنجين أوليـاء النفـوذ الاستعمارى القابلين للوجود البريطانى والذين يؤمنون بأسلوب المناورة والمفاوضة والتفاهم مع الاستعمـار مع التقبـل والاعجاب والتقدير لاسلوب الليبرالية الراسمالية والديمقراطية الغربيـة والنقل عن نظامها السياسى والاجتماعى والاقتصـادى اى بمعنى أوضح الخضوع لاسلوب العيش الغربى : الاسلوب الربوى فى الاقتصاد والليبرالى فى السياسة والعلمانى فى الاجتماع والتربية .

وكان أبرز من خرجتهم هذه المدرسة التى انشأها كرومر ثلاثة ابرزهم سعد زغلول الذى استطاع أن يخدع الكثيرين بالزعامة والوطنية بعـد أن هاجر محمد فريد وجاويش وعشرات من أبطال الحركة الوطنية التى يمكن القول بأنهم (الخميرة) الحقيقية التى صدرت منها ثورة ١٩١٩ فى مواجهة الاستعمار والنفوذ الانجليزى المحتل .

ولكن سعد زغلول استطاع ان يركب موج الثورة التى لم يصنعها ولم يكن له أثر فى اندلاعها ، بل على العكس من ذلك ، لقد دهش عنـد ما علم بها وهو فى منفـاه .

لقد كان موقف سعد زغلول من قديس الوطنية كما يسمونه (محمد فريد) الذى هاجر فى سبيل مصر ومرض أبان مقامه فى المانيا وعاش عيشة الكفاف وقد باع كل أملاكه فى سبيل القضية المصرية كان موقفه منه موقفا مشينا بالغ السوء فقد رفض أن يغيثه من مال الامة الذى جمع له وقال كيف أدفعه لمجنون .

ان قصة سعد زغلول ، هى قصة الخداع الاستعمارى الخطير الذى مهد لرجل من أتباعه ان يكون زعيما وبطـلا بأن أخلى له المسرح تمـاما من

الزعامة الاصلية وقدمه بأسلوب درامتيكى ، بأن نفــاه بضعة عشر يوما ليشد انتباه الناس اليه ويضعه فى صورة البطولة والجهاد .

(٢)

يقول لويد جورج فى كتابه (مصر منذ عهد كرومر) :

وبفضل مجهود اللورد كرومر تأسس فى أكتوبر ١٩٠٧ (حزب جــديد هو حزب الامة وصحيفته (الجريدة) وقد كان أكثر اعضاء هذا الحزب بعثا للامل رجل أصبح اسمه فيما بعد أهم الاسماء فى تاريخ مصر الحديثة ، ذلك هو سعد زغلول .

ولما كان سعد زغلول قد اختار لنفسه مهنة المحاماة فقد وقع عليه اختيار الاميرة نازلى فاضل ليكون محاميها ووكيل قضاياها وقد أوحت اليه أن يتعلم الفرنسية ولقد كانت الخطوة الثانية من خطواته اقترانه باســم مصطفى فهمى رئيس الوزراء الذى كان صديقا دءوبا على ولائه لبريطــانيا وقد كان سعد فى هذه الفترة من حياته قد ظفر بعــلاقات سياسية من طبقة عالية وقد كان مؤمنا بالصداقة البريطانية وكان خصما شديدا قويا لسياسة الخديو ونشاطه السياسى ولذلك كان لامناص لكرومر اذا أراد أن يشجع الرأى المصرى الموالى لبريطانيا واذا أراد فى الوقت نفسه ان يقدم عربونا للود لصديقه مصطفى فهمى من أن يختار ســـعد زغلول لوزارة المعــارف المنشـــأة حديثا » .

فى هذا الجو الذى غام على مصر بالاحتلال وفى مواجهة الحركة الوطنية التى قادها مصطفى كامل ومحمد فريد صنع الاستعمار اتباعه ورجـــالة ومن الجيل الاول مصطفى فهمى الذى حكم مصر ثلاثة عشر عاما صفى فيها وجود مصر كله منذ أيام محمد على ، عاش صنيعة للانجليز وخصما للوطنيين ، ومن خلاله ظهر سعد زغلول زوج ابنته ولقد باع مصطفى فهمى البواخر المصرية بأبخس الاثمان وانشأ البنك الاهلى ومؤسسوه الراسماليون الانجليز وباع ٣٠٠ الف فدان من أملاك الدائرة السنية الى شركة سوارس مقابل ستة ملايين و ٤٠٠ الف جنيه وفى عهده وقعت مأساة دنشواى ووقعت اتفــاقية السودان وانشأ الانجليز حزب الامة بزعامة لطفى السيد الفكرية وعين سعد زغلول ناظرا للمعــارف تحت قيــادة دنلوب .

وكان تعيين سعد زغلول ناظرا للمعــارف هو ايذان بنجاح خطــة كرومر فى تسليم القيادات الفكرية والتعليمية الى أولياء النفــوذ الاجنبى ولقد حارب سعد الحركة الوطنية منذ يوم ان تولى الوزارة وقدم محمد فريد الى المحاكمة وهو وزير الحقانية وانسحب من مشروع الجامعة وســوغ جعل التعليم باللغــة الانجليزية ورفض طلب الجمعية العمومية باستبداله بالعربية .

وقال : اننا اذا جعلنا التعليم باللغة العربية أسأنا الى بلادنا اساءة كبرى » .

وكانت هذه أولى خطوات اندماجه فى صفوف الاحتلال وقال مصطفى كامل : أن الناس قد فهموا الان بأوضح مما كانوا يفهمون من قبل لماذا اختار كرومر لوزارة المعــارف صــهر رئيس الوزراء مصطفى فهمى الامين على وحيه الخادم لسياسته وفهموا لماذا قامت الصحافة الانجليزية والصحف المتحيزة للانجليز وزرت الرماد فى العيون قائلة ان الوزير الجديد من الحزب الوطنى فى حين ان كل شىء من أحواله وشئونه يدل على شدة ميله الى السلطة » .

ولقد كان ابراز سعد ولطفى السيد على هذا النحو كبتا وحجبا لاولياء الحركة الوطنية الاصلاء الذين كانوا يزعجون الانجليز فى المطالبة بالجــلاء وينكرون المفاوضة معهم ولذلك قدموا هذا الجيل وسمحوا له بالظهور بعد ثورة ١٩١٩ فكان سعد زغلول وأعوانه الذين آمنوا بالتفــاهم والصداقة الانجليزية هم الخصوم الشرفاء المعقولون ، وكان سعد الذى حارب الحركة الوطنية أمام محمد فريد بتقديم فريد للمحاكمة واعادة قانون المطبوعات القديم بعقوباته الشديدة على كتاب الوطنية هو زعيم هذه الامة .

ومن هنا ظهرت فكرة الوفد عن أولئك الذين ذهبوا لمقابلة المعتمــد البريطانى (سعد زغلول — عبد العزيز فهمى — على شعراوى) فى ١٣ نوفمبر ١٩١٨ .

لقد كانت تصريحات هؤلاء الزعماء هى جواز المرور لهم الى الحيــاة السياسية فقد أعلنوا ولائهم الكامل لبريطانيا واعلنوا تبرؤهم من الحــزب الوطنى وأكدوا انهم من جمــاعة حــزب الامة الذين قبلوا الصــداقة مع الانجليز .

وكان تصريح سعد زغلول هو أشـــد هذه التصريحات ولاء وخضوعا للانجليز حيث قال :

(متى ساعدتنا انجلترا على استقلالنا التام فاننا نعطيها ضمانة معقولة على عدم تمكين أى دولة من استقلالنا أو المساس بمصلحة انجلترا فنعطيها ضمانة فى طريقها للهند هى قناة السويس بأن نجعل لها دون غيرها حق احتلالهـــا عند الاقتضاء بل نحالفها على غيرها ونقـــدم لهـــا عند الاقتضاء ما تستلزمه المحالفة من جنود) .

وبذلك نجح سعد زغلول فى امتحـــان الزعامة والقيـــادة وقدم مصر للانجليز لقمة سائغة تحت اسم (الاستقـــلال) وهى الكلمة التى كان قد استعملها بديلا لكلمة (الجلاء) التى كان يستعملها الحزب الوطنى والواقع أن كل ما قدمه سعد زغلول الى السادة الانجليز لم توكله الامة فيه وما كان للامة أن تطلب هذا مطلقا ولو طلبت هذا لأمكن تحقيقه بأسهل الاســـاليب وبدون اراقة الدماء وتضحية الشباب ومعنى هذا أن سعد زغلول قد قتل روح النهضة التى أنشأها المجاهدون منذ جمال الدين ومحمد عبده ومصطفى كامل ومحمد فريد وحمل اثما خطيرا فهو أول من حول مفهوم الوطنية فى العالم الاسلامى من صيغته الاسلامية متمثلا بالجهاد الذى دعا اليه الاسلام الى المفهوم الغربى الوافد القائم على المفاوضات والتفـــاهم وقبول الامر الواقع والخضوع والذلة للمستعمر وبذلك كان وليا لخصوم الاسلام مؤازرا للنفوذ الاجنبى وحاميا للمحاذير والمخاطر التى وقع فيها الوطن الاسلامى بتعطيل شريعته وغلبة المصـــارف الربوية والقـــانون الوضعى وأسلوب التربية العلمانى والتعليم الغربى عليه .

بل لقد قال سعد فى تصريحه ما هو أخطر من ذلك الذى نقلناه حين قال :
(نحن نعترف بأن انجلترا هى أقوى دولة فى العالم وأوسعها حرية وانـــنا نعترف لها بالاعمال الجليلة التى باشرتها فى مصر ونطلب انها باسم المبادىء أن تجعلنا أصدقائها وحلفائها صداقة الحر للحر ، واننا نتكلم معك بصفتك مشخصا لهذه الدولة العظيمة : وعند الاقتضاء نسافر للتكلم فى شـــأنها مع ولاة الامور فى انجلترا ولا نلتجىء هنا لسواك ولا فى الخارج لغير رجـــال

الدولة الانجليزية ونطلب منك بصفتك عارفا لمصر ان تساعدنا للحصول على هذا المطلب) .

ومن هنا يتبين أن سعد زغلول لم يتوجه الى دار المنـــدوب البريطانى ليفرض عليه حقوق الوطن ولا حركة الشعب ولا الجلاء الناجز وانما كان حديثه معه بمثابة تقديم برنامج عمله لو أصبح زعيما لهذه الامة كواحد من الذين شكلهم كرومر وبناهم فكريا وثقافيا كما سيظهر بعد من دراســـة مذكرات سعد زغلول وهكذا كانت الردة الخطيرة التى قام بهـــا سعد فى وجه الحركة الوطنية التى كانت على ايدى مصطفى كامل ومحمد فريد تتحرك فى اطار المفهوم الاسلامى للجهاد وتستوعب الوحدة الاسلامية الجامعة وتؤمن بأن هذه الامة لا يصلحها الا منهج الله تبارك وتعالى .

(٣)

عرض كرومر فى تقريره ١٩٠٦ بمناسبة تعيين سعد زغلول وزيرا للمعارف فوصف المدرسة الفكرية التى ينتمى اليها سعد زغلول بأن برنامجها يقوم على التعاون مع الاوربيين لا على معارضتهم فى ادخال المدنية الاوربية الى بلادهم ونصح بان يمنح كل تشجيع ممكن .

وقال أن اختيار سعد زغلول لمنصب وزير المعـــارف ليس الا تنفيذا لسياسة ترمى الى تأييد هذه المدرسة ووضع تقاليد السلطة فى ايديها .

ثم قال (.. وسوف نراقب ما تتمخض عنه هذه التجربة من آثار فى عناية وانتبـــاه فاذا نجحت التجربة وذلك ما آمله وأعتقده فســـوف يمنح قدرا أكبر من التشجيع للسير فى الاتجاه نفسه الى مدى أبعد أما اذا فشلت التجربة فستكون النتيجة الحتمية لذلك هى الاعتماد فى شئون الاصلاح على الاوربيين وعلى الانجليز خاصة الى مدى أكبر .

وأيا ما كان عليه الحال فلن يكون هناك سبيل الى التراجع ذلك أن العمل يسير بجد ونشاط فى ادخال المدنية الغربية الى مصر وهو يأخذ طريقه بتقدم ونجاح فى كل ادارة من ادارات البلد حسب خطة مرسومة وضعت خطوطها بعد دراسة الموقف يقوم على التطور والتدرج لا على الانقلاب العنيف والتغير المقـــامر .

وهكذا استخدم سعد زغلول فى ثلاث مهام اساسية :

١ — ادخال الفكر الغربى محل الفكر الاسلامى .

٢ — نشر الحضارة الغربية .

٣ — تحقيق رسالة الرجل الابيض .

ولكى تتضح الصورة فان علينا أن ندرس المراحل الاولى التى اعد خلالها الدور الذى سيقوم به .

● اعداده للدور الذى سيقوم به :

منذ أن وقع الاختيار على سعد زغلول بواسطة القوى الاجنبية لمنصب القيادة السياسية وقد أعد لذلك اعدادا تاما .

وقد اعترف هو فى مذكراته فى أكثر من موضع انه كثير الالتقاء باللورد كرومر الذى كان يوجهه الى الوجهة الصحيحة فى مختلف الامور .

ووقائع حياته بعد الاحتلال البريطانى تؤيد اتجاهه المرسوم فقد اشتغل بالمحاماة ثم عين قاضيا فمستشارا فوزيرا للمعارف ١٩٠٧ وهو قمة المناصب التى اعدته لها السلطة الحاكمة ثم وزيرا للحقانية .

وفى خلال وظائفه كلها كان خصما للحركة الوطنية معارضا لها وقد اشترك فى اصدار قانون المطبوعات الذى كان يتيح تعطيل الصحف اداريا ويفرض عليها الرقابة .

وكان له موقف واضح من تأييد مد امتياز قناة السويس اربعين سنة وهو الموقف الذى قام به خلال عمله وكيلا للجمعية التشريعية ، هذا فضلا عن عمله فى وزارة المعارف واصراره على أن يكون التعليم فى المدارس المصرية ولاولاد المصريين باللغة الانجليزية .

وقد انفرد وحده دون غيره من جميع المصريين بالدفاع عن مد امتياز قناة السويس بينما اجمعت الامة بجميع طوائفها واحزابها مستنكرة سعى بريطانيا لمحاولة هذا الامتياز .

وقد اضربت الامة عندما فرضت عليها الحماية فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ بينما خرج سعد على اجماع الامة ولبس ردنجوته وذهب الى محطة

مصر ليستقبل أول مندوب للحماية البريطانية ثم صرح بأنه يتوسم فى مقـــدم هذا المندوب خيرا .

وحينما رشح نفسه لانتخابات الجمعية التشريعية ١٩١٣ نشر منشورا انتخابيا ذكر فيه ان برنامجه يقتصر على رصف الشوارع وانارتها والتعجيل بالفصل فى القضايا ونشر التعليم .

ولم يذكر حرفا واحدا عن قضية البـــلاد الكبرى : الحماية والاحتلال

٢ — ويقول اللورد لويد فى كتابه (مصر من عهد كرومر) لقد كان اللورد كرومر فى هذه الاثناء يسعى لصد تيار الحزب الوطنى والحد من نفوذه وتمكن من حمل بعض عقـــلاء المصريين على تأليف حزب جديد هو حزب الامة وكان من أعضاء هذا الحزب سعد زغلول وكان قد درس الحقوق وتعاطى مهنة المحاماة فعهد اليه بقضايا دائرة الاميرة نازلى وبايماء من الاميرة تعـــلم اللغة الفرنسية التى من دونها لم يكن قادرا على دخول مضمار الشئـــون السياسية .

وكانت الخطوة الثانية فى تقدمه اقترانه بكريمة رئيس الوزراء مصطفى باشا فهمى وكان عند تأليف حزب الامة قد قبل دورا عظيم الشأن فى السياسة واظهر مزايا بارزة فى الشجاعة الأدبية مع الاعتدال .

ولما كان اللورد كرومر شديد الميل الى تشجيع المصريين المعتدلين والى مكافاة صديقه مصطفى باشا فهمى فقد وافق على تعيين سعد زغلول وزيرا للمعـــارف .

٣ — وقال رشيد رضا (م ٢٨ — المنـــار) أن سعد زغلول دخل فى أطوار التفرنج فى معيشته وأفكاره الاجتماعية والقـــانونية وغلبت نزعته الوطنية المصرية على فكرة الجامعة الاسلامية ولا نعلم ان كان يذهب الى المساجد الا فى بعض الاجتماعات الرسمية فى عهد وزارته وبعض صلوات الجمعة فى عهد زعامته .

وانكر عليه أهل الدين أمورا منها عمله على تجرئة النساء على السفور المتجاوز للحـــد الشرعى ولكن قاوم الدعوة الى لبس القبعة على أنه كان شديد الاعجاب بنفسه وعدم المبالاه بخصمه بل غلبت عليه ما سبق له فى

الاولى من العدالة القضائية مضار يؤثر المتملقين له على المنزهين على التملق والدهان حتى فى محبيه الناصحين .

٢ — وزير المعـــارف :

أختير سعد زغلول وزيرا للمعارف ٢٨ أكتوبر ١٩٠٦ وكان ذلك كما سيتحدث المؤرخون كمحـــاولة من الانجليز لتهـــدئة الشعور الوطنى وقد استقبل مصطفى كامل ذلك التعيين بتفاؤل وكتب فى اللواء ٢٢ أكتوبر ١٩٠٦ (نحن لا نبتهج بتعيين سعادة سعد بك زغلول وزيرا للمعارف الا بأمل أن يكون كما كان على مبارك باشا والفلكى باشا ممن خدموا هذا القطر خدمات جليلة) .

وكان سعد رئيسا لمشروع الجامعة والتى دعا مصطفى كامل اليهـــا فلما تولى وزارة المعارف أعلن انسحابه من رئاسة اللجنة .

وكتب مصطفى كامل يقول : كيف يهتم المستشار فى الاستئناف بمشروع علمى ولا يهتم به ناظر المعارف ، ان تخليه يظهر الخطر الذى يحيط بالمشروعات العامة اذا كان لرجال الحكومة دخل فيها .

وقال انما هو فعل ذلك استجابة وتحقيقا لرغبة الغاصب حيث انشأت وزارة المعارف مشروع الكتاتيب ودعت الاهالى الى المساهمة فيه .

واتبع سعدا هذه الاستقـــالة بخطبة القـــاها فى الجمعية العمومية (٣ مارس ١٩٠٧) برر فيها التزام الطلاب المصريين بتعلم جميع العـــلوم بالانجليزية .

وقد جاء فى هذه الخطبة قوله :

أن مركز الامة بين الامم الاخرى واختلاطها بالاجانب واشتباك المصالح الاجنبية بالمصالح الوطنية كل ذلك أوجب ان يكون تعلم العلوم باللغـــة الاجنبية لكى يتقوى الطـــلاب فيها كما ينبغى عليهم ان يستفيدوا من المدنية الاوربية ويفيدوا بلادهم بها ويقووا على الدخول مع الاجانب فى معتـــرك هذه الحياة : حياة العلم والعمل .

وساق سعد حجة اخرى خلاصتها أن عدم تعلم التلاميذ المصريين العلوم

المختلفة باللغة الانجليزية يقعدهم عن شغل وظائف مصلحة الجمارك والبريد والمحاكم المختلفة وترك هذه الوظائف للمتمصرين » .

وقد أغضب هذا التصريح الوطنيين وأثار نقمة الشيخ جاويش فحمل على سعد فى عدد من المقـالات المتتالية عنوانهـا جميعا بعنوان واحـد (ظلموك يا سـعد) .

● ● ●

وكتب اللواء يقول : وقعت أمور غضب اللواء من سعد من ذلك انه ما كاد يلى وزارة المعارف حتى استقال من عضوية اللجنة المشكلة لانشاء الجامعة الاهلية معتذرا بأن اعماله ومشـاغله الوزارية تحول بينه وبين استمراره فى عضوية هذه اللجنة بينما اللجنة هنا ادخل فى عمله كوزير للتعليم منها فى عمله كمستشار يفصل فى قضايا الناس .

ومنها خطبة القاها فى الجمعية العمومية فى ٣ مارس ١٩٠٧ برر فيهـا التزام الطلاب المصريين بتعلم جميع العلوم بالانجليزية وجاء فى هذه الخطبة ما نصـه :

(ان مركز الامة بين الامم الاخرى واختلاطها بالاجانب الخ كل ذلك يوجب أن يكون تعلم العلوم باللغة الاجنبية الخ وساق سعد حجة اخـرى خلاصتها ان عدم تعلم التلاميذ المصريين العلوم المختلفة باللغة الانجليزية يعقدهم عن شغل وظائف مصلحة الجمارك والبريد والمحاكم المختلطة .

● ● ●

تقول جريدة اللواء : بدأ موقف وزير المعـارف الجـديد من الروح الوطنية يتجلى بوضوح سـنة ١٩٠٨ حينمـا طالبت الجمعية العمومية من الحكومة ان تحل اللغة العربية محل اللغة الانجليزية فى التدريس بالمدارس فاعترض سعد زغلول على ذلك والقى خطبة صاخبة فى هذا الصدد مدافعـا عن بقاء اللغة الانجليزية كأساس للتعليم .

وقد جاء قوله : اننا اذا قلنا ذلك فانما نكون قد أسأنا الى بلادنا وأنفسنا اساءة كبرى .

وهذا دفاع صريح عن سياسـة الاحتـلال فى صبغ الامة بالصبغة

الانجليزية والقضاء على لغتها حتى تندمج فى النهاية بالدولة المحتلة .

وقد رفضت الجمعية العمومية دفاع سعد زغلول وقررت باغلبية عظمى احلال اللغة العربية كأساس للتعليم بدلا من اللغة الانجليزية وكان لموقف سعد ضجة استياء .

وقد كتب مصطفى كامل على اثر ذلك تحت عنوان (فشـــل وزير) فى ٩ مارس ١٩٠٧ .

ان الناس فهموا لماذا اختار اللورد كرومر لوزارة المعـارف صهـر رئيس الوزراء مصطفى فهمى باشا الامين على وحيه .

وقد فهموا ايضا لمـــاذا قامت الصحف الانجليزية والصحف المتحيزة للانجليز وزرت الرماد فى العيون قائلة ان الوزير الجديد هو من الحـــزب الوطنى فى حين أن كل شىء من أحواله وشئونه يدل على شدة ميله الى السلطة فسعد زغلول قد فشل فشلا عظيما فى الجمعية العمومية وان الذين كانوا يحترمون الوزير كقاضى ليأسفون على حاضره كل الاسف وليخـــافون على مستقبله كل الخوف ويفضلون ماضيه كل التفضيل ذلك لان الوزير قائم على منحدر هائل مخيف .

وكتب الشيخ على يوسف رئيس تحرير جريدة المؤيد :

أرى ان ما فعلته نظارة المعـــارف من نسخ التعليم باللغة العـــربية وجعله باللغات الاجنبية لم يكن تلبية لحاجة البـــلاد وليس سببه اقبـــال الامة على المدارس التى كانت تعلم باللغات الاجنبية كما يقول بل الاولى ان يقـــال ان اقبالهم على مثل مدارس الجزويت والفرير كان منشؤه ضعف التعليم من حيث هو فى مدارس الحكومة .

وقد قال ناظر المالية ان التعليم فى مدارس الحكومة ضعيف الى حد انه يتطلع الى ارسال ابنائنا الى المدارس الاجنبية .

وقد وافق المجلس على التعليم باللغة العربية ولكن ناظر المعـــارف وضع عبارة قالها انه لا يمكن تنفيذ المشروع الان للصعوبات الموجودة ومتى زالت الصعوبات أمكن تنفيذه .

اما عن موقفه من الجامعة فقد كتب مصطفى كامل يقول :

كان سعد زغلول اول وزير رحب المصريون بدخوله الوزارة وقد كان قاسم قد اختاره رئيسا للهيئة التى تألفت لانشاء الجامعة المصرية الاهلية وكان اللورد كرومر يرى فى انشاء هذه الجامعة مالا يتفق مع سياسته فى ان الغرض من التعليم فى مصر هو تخريج موظفين الحكومة ، لكنه لم يستطع التصريح بهذه المعارضة من غير ان يجد وسيلة لتحويل التيار الى ناحية قوية اخرى لذلك بدأت ابواقه تذيع ان نشر التعليم الاولى بين طبقات الشعب اجدى على البلاد من انشاء الجامعة واخذت الحكومة تشجع انشاء الكتاتيب فلما عين سعد وزيرا للمعارف قيل أن الغرض من تعيينه ان يترك رئاسة مجلس الجامعة اضعافا لهذا المشروع .

قال عبد الرحمن الرافعى وقد تبين بعد انسحابه من رئاسة اللجنة ان ذلك كان تحقيقا لرغبة الاحتلال لكى تحبط المشروع وقد أصابه الركود فعلا بعد انسحابه من اللجنة وبخاصة لان الحكومة خلقت فى هذا الحين بايعاز من الاحتلال حركة انشاء الكتاتيب واستجدت الاعيان فى مختلف الجهات على التبرع لها معارضة بذلك مشروع الجامعة .

قال تشارلز ادمس : ان سعد زغلول اختير لمنصب نظارة المعارف ليقضى على روح الثورة التى نشرها مصطفى كامل بتهييجه المتواصل بين تلاميذ المدارس وكان قد عظم تأثيرها فى نفوس الطلاب وانتشرت بينهم انتشارا سريعا .

مد امتياز قناة السويس :

دافع سعد عن مد امتياز قناة السويس وعارض الوطنيون الخطة بزعامة محمد فريد الذى شن على الحكومة هجوما عنيفا اثار ضدها الرأى العام منذ علم بخبر محاولة المد وظل يطرق الحديد وهو ساخن شهورا طويلة حتى نضج الرأى العام ووقف ضد محاولة سعد زغلول .

وفى يوم ٩ فبراير ١٩١٠ وقف سعد زغلول يدافع فى الجمعية التشريعية عن الطلب الذى تقدمت به شركة قنال السويس لمد عقد امتياز القنال اربعين عاما من ١٩٠٨ الى ١٩٤٨ .

وكان يوافقه رئيس الحكومة بطرس غالى باشا الذى كان حديثه عن المشروع مصدر ثائرة الصومائى بك واباظة بك وقتل بطرس غالى فى ٢١ فبراير ١٩١٠ قبل ان يتم نظر المشروع وقال التحقيق أن تأييده للمشروع هو سبب اغتياله .

وفى ٤ ابريل عاود سعد زغلول تأييد المشروع .

ولكن المجلس لم يأخذ برأيه ووافق أغلبية النواب على رفض المشروع وصفق النــواب وصفقت الشرفات الخاصــة بالزائرين وانهزمت الحكومة وانهزم الوزير وانهزم المندوب البريطانى .

وبدات مظاهرة لم تتكرر فى حياة مصر ، خمسة عشر ألفا من المصريين كانوا قد تجمعوا خارج القاعة . فما ان عرفوا القرار حتى طافوا شوارع القاهرة بموسيقاهم وأعلامهم وكانت أول مظاهرة ضد الاحتلال .

● ● ●

زعيم الماسونية :

هذان الموقفان الخطيران ضد ارادة الامة كانا عربون زعامة سعد زغلول لمصر الذى كان قد أعد نفسه لهذه الزعامة من خــلال أكثر من خطة فى مقدمتها صالون نازلى فاضل الذى كان يرتاده كل انصار الاحتلال ودخوله الماسونية .

ومن خلال صالون نازلى هانم فاضل نفذت كل خطط كرومر وحبكت مؤامرة قاسم أمين وتحرير المرأة التى شارك فيها سعد زغلول من بعــد .

أما الماسونية وانتماء سعد اليها فذلك واضح من عدة مصادر أول نشر المصور ٢٣ سبتمبر ١٩٢٧ تحت عنوان :

الامة والحكومة يشيعان الفقيــد العظيم

وفد البنائين الاحرار الماسون فى تشييع جنازة الزعيم فقد كان رحمه الله قطبا من اقطاب الماسونية .

أما جريدة المقطم فتزيد هذا التأكيد بما جاء فى عددها الصــادر يوم الجمعة ٢٦ أغسطس ١٩٢٧ فى الصفحة الأولى ما يلى :

حداد الماسونية على فقيد البلاد الاعظم

(فقدت الماسونية المصرية بفقد سعد العظيم الخالد عضوا كبيرا وفضلا

كثيرا وذخرا وفيرا كان يعتز بفضله وسيقام حفلة جناز ماسونية للفقيـد العظيم يعلن عنها فيما بعـد .

ونشرت المقطم نعى سعد زغلول من قبل المحفل الاكبر الوطنى المصرى الى الاخوان الماسون : لقد ريعت البناية الحرة من الفاجعة الاليمـة التى أصابت عشيرة البنائين الاحرار خاصة والامة المصرية عامة بموت زعيم مصر وواحدها المرحوم المغفور له سعد باشا زغلول الاستاذ الاعظم الفخرى .

وقد قرر المحفل الاكبر الوطنى اجلالا لفقيد الوطن العظيم الحـداد تسعة أسابيع كاملة وتأجيل حفلة افتتاح مدارسه وملجأه الى موعد يحـدد فيما بعد وتعطيل الجلسات فى مصر وسوريا وفلسطين ثلاثة أيام .

والاخوان الماسون مدعوون للحضور بالملابس السوداء الى دار المحفل الساعة الثالثة تماما للسير فى جنازة الفقيد العزيز الهمنا الله جميعا الصبر على فقده وتولاه بعميم رحمته وطيب رضوانه .

السكرتير الاعظم : محمد رفعت .

الاستاذ الاعظم : الفريق السيد على .

وقالت المقطـم :

وكان زغلول باشا من المتأثرين بتأثير الشيخ محمد عبده وكان الشيخ أول من لفت نظر اللورد كرومر اليه وقال انه يتفاءل بان يكون من خير دعاة الاصلاح والتجديد المصريين وانه مستعد لان يعمل مع انجلترا .

ولما خطب اللورد كرومر خطبة الوداع فى القاهرة سنة ١٩٠٧ وقال ان زغلول رجل نزيه مقتدر شجاع وان مجال التقدم أمامه متسع وقد دافع زغلول باشا عن الاقتراح الذى اقترحته بريطانيا لاطالة مدة امتياز قنـاة السويس فلقى معارضة شديدة دبرها الخديو السابق غير ان زغلول أولى المهمة التى عهد اليه بها بشجاعة وبلاغة وعاودت المقطم فى ٢٦ اغسطس ١٩٢٧ الحديث عن حداد الماسونية وفى ٩ سبتمبر ١٩٢٧ الماسونية تبـكى فقيـد مصر .

ولقد كانت درجة سعد زغلول فى الماسونية ورواد صالون نازلى فاضل فى التنظيم الماسونى تفسر لنا نوع الصداقة مع قاسم أمين وتوضح الخطر الفكرى الذى سار فيه رائد تحرير المرأة واهدائه كتـاب المرأة الجـديدة الى سعد زغلول .

(٤)

من حزب الامة الى الوفد المصرى

تشكل فكر سعد زغلول فى دائرة مفاهيم حزب الامة خـــلال أكثر من عشر سنوات حيث عمل فى وزارات الاحتلال وقاوم اللغة العربية ودافع عن

أمتياز قنـــاة السويس ، واصدار قانون المطبوعات — (١٨ مارس ١٩٠٩) حيث اشترك فى وزارة بطرس غالى الذى استهل عمله بكبت الحريات فأعاد فى مارس ١٩٠٩ العمل بقانون المطبوعات القديم والذى فرض على كل صاحب مطبعة او جريدة والذى يعطل الجريدة بمجرد أمر يصدر من وزير الداخلية بعد انذارين أو بقرار من مجلس الوزراء دون أى انذار .

وكان لهذا العمل من الاثر فى ازدياد الهياج ما كان لمشانق دنشـــواى فقد عطل وأوقف عددا كبيرا من الصحف الوطنية وحكم على محرريها وكتابها بالسجن وكانت اللواء أول جريدة ذهبت ضحية قانون المطبوعات حيث أرسل محررها عبد العزيز جاويش الى السجن ولم يلبث محمد فريد أن تعرض لنفس المصير ثم ما لبثت أن عطلت وأقفلت صحف وطنية اخرى .

واصدر فى عهده قانون النفى الادارى الذى وضع فى يد السلطة الادارية حق نفى الاشخاص الذين يرى أنهم خطرون على الامن الى جهـــة نائية بالقطر .

ولم يمانع سعد من اتخاذ هذه الاجراءات التى كانت موجهة بالدرجة الاولى الى الحزب الوطنى .

ثم ورث سعد ميراث الحزب الوطنى ١٨٩٢ — ١٩١٩ بعد ان اضطهد الوطنيين — وهاجم محمد فريد منفيا وامتنع ان يقدم له أى عون .

وفى هذه الفترة أصهر الى رجل الاستعمار وحاكم مصر بالحديد والنار (مصطفى فهمى) الامر الذى مكن له من رئاسة الوزارة ثلاثة عشر عاما متصلة ، وكان زواج سعد زغلول المستشار من ابنة مصطفى فهمى رئيس الوزراء زواجا سياسيا لا شبهة فيه .

وكان توليه الوزارة فى نفس العام الذى أنعم فيه على فتحى زغلول ،

شقيقه بمنصب رفيع مما عد مكافأة له على اشتراكه فى محكمة دنشواى .

● ● ●

كان واضحا أن مفهومه السياسى قد تحول الى العلمانية :

فقد اشار الى ذلك مصطفى كامل : قال أعداءنا أنا نخلط الاسلام بالسياسة ونتكلم دائما عن المسلمين ونطلب ادخال التربية فى التعليم ونشروا ذلك بأنه تعصب زميم فكيف لا تكون انجلترا والمانيا متعصبتين وهما الدولتان المتمسكتان بالتعليم الدينى فى مدارسيهما ونتهم نحن بالتعصب الدينى لماذا يكون الانجليزى وطنيا بروتسنتيا فى ان واحد ولا يكون المصرى المسلم وطنيا مسلما ولا تكون الوطنية صحيحة الا اذا قضت على الدين ومحته الا أن الحقيقة الساطعة التى لا ريب فيها ان الوطنية والدين يتفقان بل وقد يكونا متآزرين .

لذلك كان من المستحيل احياء الامة وانهاضها بغير الحقيقة الدينية فالتعليم الدينى ليس فرضا من الوجهة الدينية فحسب بل هو كذلك أيضا من الوجهة الوطنية » .

أما سعد والذين جاءوا بعده فقد تجاهلوا الحقيقة الاسلامية وجهر سعد بمبدئه الجديد فى خطابه بفندق الماجستيك فى يوم الاربعاء ٦ ابريل ١٩٢١ بالاسكندرية فقال :

اشكر العلماء والقسس الذين باتحادهم ابطلوا حجة الخصوم الذين طالما اتخذوها سلاحا قاطعا وازالوا الفوارق واثبتوا ان الديانات واحدة تأمر بالدفاع عن الوطن وانه ليس لها تأثير الا فى عبادة الخالق اما فى الوطن فالكل سواء » .

وهذا اصرح تعبير عن العلمانية كما أعتنقها سعد وطبقها ويقول فون قنجان فى حديث مع سعد زغلول ونشرته السياسة اليومية ٢٢ ديسمبر ١٩٢٥ : انه راض كل الرضا عن تحول الحركة بسرعة من الروح الدينية الى الروح القومية فى بلاد افريقيا المحتلة وفى مصر والشرق الادنى وترحيبه بتلك الروح واعتبارها فاتحة سعيدة للمستقبل وأفضى الى باعتقاده فى انه متى وقف الراى العام الحر فى أوربا وأمريكا على هذه الحقيقة الجوهرية وهى

من شعوب المشرق تريد أن تحكم نفسها حسب طريقتها مع الاستعانة بالنصائح الفنية وخبرة الغرب فى المسائل الاقتصادية والمالية والتعليمية وغيرها فان شعوب الغرب لن تؤمن بالزعم القائل بأن هذه الحركة هى حركة الشرق ضد الغرب » .

● ● ●

وهكذا عبر سعد زغلول عن علمانيته مرتين : الاولى بانكار منهج الاسلام فى بناء المجتمع واعتباره دينا لا هوتيا على النحو الذى كان يؤمن به حزب الامة ولطفى السيد والذى عبر عنه أحد خلفائهم فى الاحرار الدستوريين الشيخ على عبد الرازق .

والثانى بنزع الحجاب من فوق وجه المسلمات اللائى قدن المظاهرة لتحيته بعد عودته من المنفى وتأييده لقاسم أمين فى دعوته واهداء قاسم له كتابه (المرأة الجديدة) .

وكان دليله الاكبر ما قاله لعبد الرحمن عزام حينما حدثه عن الوحدة العربية : اذا جمعت صفرا الى صفر فصفر .

ومن هنا فان سعد زغلول يحمل اثم انه أول من حول الوطنية فى العالم الاسلامى من مفهوم الاسلام الجامع الى المفهوم الغربى منزوعا من العقيدة وانه كان وليا لخصوم الاسلام وأعداء الدين وانه آزر النفوذ الاجنبى .

وانه كان خطوة متقدمة على نفس الطريق الذى رسمه النفوذ الاجنبى ممثلا فى رفاعة الطهطاوى وغيره .

● ● ●

وهكذا اعتمد سعد مفهوم الغرب فى السياسة أو المفهوم الذى رسمه كرومر للعمل مع بريطانيا وتحركه من داخل هذا المفهوم الذى اذاعته مدرسة الجريدة وحزب الامة ولطفى السيد خلال أعوام من ١٩٠٧ الى ١٩١٨ حيث ذهب سعد وصحبه لمقابلة المعتمد البريطانى معلنين انهم من أتباع حزب الامة واعلنوا الخصومة على الحزب الوطنى .

واعلن سعد فى صراحة تامة أنهم لا يتفاهمون فى مصر الا مع بريطانيا

ولا فى خارج مصر مع غيرها . ثم لما طلب اليهم ان يقدموا توكيل الشعب لهم بدأ جمع التوكيلات .

وأراد الانجليز أن يجعلوا لسعد تاريخا وطنيا فاعتقلوه ونفوه ولم تزد مدة اعتقاله ونفيه عن ٢٨ يوما فقد نفى سعد وصحبه الى مالطة فى ٨ مارس ١٩١٩ ثم أفرج عنهم فى ١٧ ابريل ١٩١٩ وأرسلوا الى باريس لحضور مؤتمر الصلح حيث قضى سعد عامين فى أوربا وقد جمع المصريون لسعد عند سفره الى أوربا أربعمائة الف جنيه وقد استبعد سعد قيام حركة فى مصر وقامت الثورة فى غيبة سعد زغلول وقد دهش هو لها وكان عبد الرحمن فهمى الذى أبعده سعد من بعد هو منظم هذه الثورة .

وقد استبعد سعد فى منفاه ان تقوم البلاد بحركة احتجاج فضـــلا عن ثورة وعندما سمع بأول أحداث ثورة ١٩١٩ واعمالها العنيفة اعلن ان هذا من تدبير الاعداء وانها وقعت للكيد لمصر .

وغاب سعد عامين كاملين فى انتظار ان يؤذن لهم بعرض القضية على مؤتمر الصلح فلما يئسوا من ذلك بدأ الامل يراودهم فى أن يجروا مع بريطانيا مفاوضة وبعد ان ارسل سعد الى المصريين ان لا يتحدثوا مع مبعوث بريطانيا فقد اجتمع به هو وبدأ المفاوضة لاول مرة مع بريطانيا .

وقد واجهه ملنر فى أول لقاء بقوله : اننا واضعون يدنا فى مصر على كل شىء وانا لا نريد منكم أكثر من أن يصبح وضعنا شرعيا وكان شعار سعد بعد المفاوضة : ان الانجليز شرفاء معقولون وهكذا كانت كل قضية المنفى ٢٨ يوما قضاها فى مالطة ثم غادرها وذهب الى أوربا وترك زملائه فيهـــا خمس سنوات كاملة .

وللمرة الثانية ارادت بريطانيا ان تفرض شروطها على مصر فرفض سعد زغلول واضطرت بريطانيا أن تأمر بنفيه مرة اخرى وذلك بعد ثمانية شهور من عودته فأبعد عن مصر حيث وصل الى عدن (ديسمبر ١٩٢١) ومنها الى سيشل ثم نقل الى جبل طارق وبقى بها الى مارس ١٩٢٣ (وقضى فى هذه المرة ٤٦٣ يوما) .

وقد بدأ الخلاف بين عبد الرحمن فهمى وســـعد زغلول خـــلال فترة السنوات التى قضاها بين باريس ولندن خاصة عندما بدأ يجنح أى قبـــول

المفاوضات وقد اختلف سعد مع زملائه فى أوربا الذين غادروا أوربا عائدين الى مصر .

اما عبد الرحمن فهمى فلم يوافق على سفر الوفد الى لندن للمفاوضة خشية انتقاد الراى العام وقال :

كيف نخدع الراى العام فى قبول المفاوضة مع الانجليز .

وقد تبين فى هذه الفترة ان خميرة الثورة المصرية كانت من عمل الحزب الوطنى خلال سنوات ما قبل الحرب العالمية الاولى وان الحركة الوطنية كانت موجودة أساسا ولكن سعد حولها من اتجاه الى اتجاه آخر .

حولها من العمل على الجلاء الى التفــاهم مع الانجليز والالتقــاء بهم فى منتصف الطريق وقد ورث سعد هذه التركة بعد غياب أصحابها .

وقامت الثورة بدون أمره أو علمه ولكنه احتواها وأفاد منها وضرب الذين قاموا بها ومنهم من مكث فى السجن الى عام ١٩٣٦ .

ولم يكن لسعد قبــل ثورة ١٩١٩ أى دور فى الحركة الوطنية وأول أدواره هى مقابلة المندوب البريطــانى وتصريحه بالالتجــاء الى بريطانيا للحصول على ما يمكن من مزايا الحكم الذاتى فى ظل الاحتلال .

وقد رفضت مصر ان تقابل ملنر فلما عاد هو الى ملنر بعد أن رفضته الامة قدموا له اسوأ مشروع معــاهدة .

فلما عارضه زملائه اعتبر الذين اختلفوا معه خارجين على الامة وعلى الوفد .

● ● ●

لقد كانت ثورة ١٩١٩ باجماع المؤرخين ثمرة العمل الذى قام به الحزب الوطنى منذ عام ١٨٩٢ الى ١٩١٨ لان سعدا لم يكن قد بدأ عملا ما أو تعرف الشعب اليه وان ســـعدا دهش لقيام الثورة وان اجمــاع الامة على رفض مقابلة (لجنة ملنر) أفسده سعد بقبوله التفاوض معه وسمع منه ما يكره .

وكان الحزب الوطنى يطلب الجلاء فجاء سعد ليطلب (الاستقــلال) وهى كلمة غامضة .

وكان خطأ سعد زغلول فى قبوله الحكم مع وجود الاحتلال البريطانى . ولم يبق فى الحكم الا بضعة شهور وخرج منه اثر اغتيال سرلى ستاك سردار الجيش وحاكم السودان وكان موقفه مهينا فقد قبل الانذار البريطانى ودفعت مصر الغرامة الضخمة (نصف مليون جنيه) كتعويض عن مقتل السردار وترك الوزاره ليجىء احمد زيور ليحقق كل أهداف الانجليز ثم قبل سعد بعد ذلك التعاون مع خصميه (عدلى وثروت) بعد ان اعلن الانجليز أنه لن يتولى الوزارة بعد .

● ● ●

كان عبد الرحمن فهمى هو قائد ثورة ١٩١٩ الحقيقى ، وكان كما وصفه فتحى رضوان مصدر الحركة وملتقى الخيوط ومستودع الاسرار وصاحب الحق فى اصدار الاوامر اليومية وتلقى أول الانباء عن التطورات والاحداث .

وقد كان من حق عبد الرحمن فهمى على بلاده أن يذكر له أنه ساهم فى أعظم اعمالها ومراحلها ولكن السلطات البريطانية سرعان ما لفقت له قضية وهمية واتهمته فيها بأنه عمل على قلب الحكومة وعلى خلع السلطان وقتله وسميت هذه القضية (المؤامرة الكبرى) وانتهت بالحكم عليه بالاعدام ثم بالاشغال الشاقة .

وقد دلت الرسائل التى بعث بها سعد من الخارج الى عبد الرحمن أنه هو وحده الذى يطلع على مجريات الامور فى أوربا .

● ● ●

وقد اثبت احدى الاطروحات التى كتبها دكتور عاصم محروس عن دور الطلبة المصريين فى الحركة الوطنية أن الطلبة هم الذين فجروا ثورة ١٩١٩ ضد ارادة حزب الوفد بعد نفى سعد زغلول ودللت على أن طلبة مدرسة الحقوق كانوا اول من اضربوا عندما توجهوا الى بيت الامة فقابلهم عبد العزيز فهمى احد اقطاب الوفد ونصحهم بان يخلدوا الهدوء والا يزيدوا النار اشتعالا وان يتركوهم يعملون فى هدوء ولكن طلبة الحقوق رفضوا النصيحة وخرجوا فى مظاهرة ضمت طلبة التجارة والطب والأزهر .

وامتدت المظاهرات الى المدارس وكان أول الشهداء مصطفى ماهر من المدرسة السعيدية بعد نجاح الطلبة فى تأجيج نار الثورة بين المواطنين وبدأت اللجنة المركزية للوفد تعتمد عليهم حتى أن الجهاز السرى كان معظمـه من الطلبة : عبد الفتاح عنايت وشقيقه عبد الحميد الذى اعـدم فى حـادث السردار .

● ● ●

وقد أثنى الانجليز على سعد وجماعته وقال ملنر :

ان الهيئة المستحقة للاعتبار المعروفة بالوفد والتى يرأسها سعد زغلول باشا والتى تتسلط على عقول المصريين تمام التسلط ولو فى هذا الحين على الاقل ، مؤلفة من الاعضاء أكثرهم ليسوا من الغلاة المتطرفين بل أصلهم من حزب الامة القديم الذى كان غرضه التقدم الدستورى تدريجيا بخلاف الحزب الوطنى الذى هو حزب الثورة ومعارضة البريطانيين .

وكان الوفد قد نص فى مشروع انشائه على هذا المعنى حين قال (السعى بالطرق السلمية حينما وجد السعى سبيلا فى استقلال مصر استقلالا تاما)

وكان الخلاف العميق بين سعد وزملائه يدور حول عدة عوامل أهمها : انه كان ضيق الصدر بمخالفيه وبالمعارضة ايا كانت ولا يقبل المنـاقشة ويراها تغض من قدره ..

وفى أوربا تبين أنه يسير على سياسة انفرادية فقد وضع لنفسه خطة ونفذها هى اهماله الوفد وأعضائه واضرابه عن عقد الجلسات وانفراده بالعمل المستقل فقد كان يكتب الى ملنر ومراسل بلنت ويقوم بنشاط سياسى فى انجلترا لا يعرف أحد سبيله أو معناه .

وقد أدى هذا الى انقسام الوفد على نفسه وخاصة خلافة مع عبد العزيز فهمى وعدلى ولطفى السيد .

وكان خلافه الكبير حول تعديل الاساس بعد العودة مع أمين الرافعى وكان الوفد قد أعلن أنه لن يقبل المفاوضات الا على أساس التحفظـات التى ابدتها الامة على مشروع ملنر ، وفجأة أعلن سـعد زغلول رغبته فى الدخول فى المفاوضات بدون قيد أو شرط .

وهنا أعلن أمين الرافعي مخالفته للوفد المصري وجاهر باختلافه في الرأي على سعد زغلول مما عرف فما بعد بنظرية تعديل الاساس وقد انطلقت المظاهرات تهدد أمين الرافعي وجريدته .

ولكن الرافعي لا يتراجع عما قاله في الوفد ورئيسه منذ أعلنه وقد نصحه أصدقائه أن يكف عن معارضة سعد ولكن الرجل يصر على رأيه ويعلنه على رءوس الاسماء .

وقالت جريدة الاخبار التي يصدرها أمين الرافعي أن سعد قد تحول من قائد ثورة الى قائد سياسي فلما أعتقل سعد للمرة الثانية ١٩٢٢ كانت الاخبار أقوى مدافع عنه وهاجمت سعد مرة أخرى بعد ان تولى الحكم ١٩٢٤ .

ومما قاله أمين الرافعي : أن سعدا لم يذكر الا نفسه ظنا ان الامة تكرمه لشخصه لا من أجل المبدأ الذي يدافع عنه وتوهم أنه ما دام قد وصل الى قمة المجد وان الامة التفت حوله هذا الالتفاف فقد أصبح يستطيع ان يحرك الناس جميعا كما يشاء .

● ● ●

وقد تردد كثيرا أمر استعلاء سعد عن الزعماء وعن القيادات أو استشارتهم في أمر القضية المصرية حتى يقول اللواء المصري سنة ١٩٢٤ كان يجدر بسعد منذ تولى زعامة الامة أن يستعين بآراء ذوي الخبرة والتجارب الواقفين على أسرار السياسة الانجليزية وما كان عليه في ذلك من غضاضة ما دام يرمي الى غرض واحد هو سلامة بلادنا وتحرير رقبتها من الرق الذي طوقته يوم وقعة التل الكبير ولكن سعدا أعرض ونأى بجانبه عن كل ما أسدى اليه الخبيرون من النصائح الغالية يوم كان في صفوف الامة ويوم انتخب رئيسا

لقد صارحنا الوفد قبل توليه الحكم بأن الانجليز في السياسة الخارجية كلهم سواء لا اختلاف بين محافظيهم وأحرارهم ولو قد عرف القوم حق المعرفة لكانوا أكبر منا تشاؤما ويأسا من اقناعهم بما لا يوافق مصالحهم الاستعمارية من مبادىء الحق والعدل (عبد العزيز جاويش) .

ومن تناقضاته قوله قبل الحكم انني كلما قرأت دستور ثروت باشا

اعترتنى الحمى وأخذنى الدوار وقال عن لجنة الدستور انها لجنة الاشقياء فلما تولى الحكم بناء على هذا الدستور قال انه دستور موضوع على أحدث النظم العالمية .

(٥)

الوجـــه الآخـــر لسعد زغلول

فى ضوء هذه الوقائع أعدت شخصية سعد زغلول لتحمل لواء الزعامة الوطنية بعد الحرب العالمية الاولى ولقد استطاعت بالرغم من كل مثالبهـــا أن تحرز التفوق وأن توضع موضع الزعامة فماذا كان دور ســـعد زغلول فيما بعد .

كان أخطر مبدأ صاغه سعد زغلول هو الولاء للفكر الوافد والتـــأقلم فى اطار الغزاة محطمـــا أسلوب الجهـــاد الاسلامى الذى عرفته الهيئـــات والاحزاب من قبـــل .

وأخطر من ذلك قبوله مبدأ التفاهم والصداقة مع الانجليز وبل قبل مبدأ الحكم وفى البلد جيش الاحتلال وسلطان الانجليز الفعلى وبعد ان كان الاحتلال غير شرعى أصبح شرعيا بقبول الحكم فى ظله وتحت الوية الاستعمار .

ولقد حقق قبول سعد للحكم فى ظل الاحتـــلال ما قصد اليه الانجليز وهو ان يضعوه فى قفص كمـــا صرح بذلك اللورد التبى وان تقتلوا قوته كزعيم .

وقالت جريدة الاخبار التى كان يصدرها أمين الرافعى : ان سعدا ما كاد يتولى الحكم حتى بدأ لا يعتبر الانجليز خصوما بل صار يعدهم أصدقاء له وللبـــلاد وكانت قاعدته السياسية بعد تولى الحكم توطيد العـــلاقات مع انجلترا .

ان سعدا لما ذهب للمفاوضـــات الاولى ظن أن السياســـة العملية تقتضى التساهل فى حقوق البـــلاد فوضع مشروعه المعروف الذى قدمه للورد ملنر واذا يقبل فيه احتلالا جزئيا عسكريا ويمنح الانجليز امتيـــازات متعددة ويخول لهم حق الدفاع عن مصر ، ولم يكتف بهذا التفريط بل أقصى (الســـودان) عن المفاوضـــات ، وقـــد بادر الانجليز بالاستفادة من هذه

التساهلات وسجلوا على سعد قبوله نقطتين اساسيتين (الاولى) وجود قوة عسكرية انجليزية فى ارض مصر و (الثانية) عدم مساواة السودان بمصر .

وقد ظهر من تصرفات سعد فى عهد وزارته انه كان محتفظا لسياسته العملية المشئومة ولا سيما فيما يتعلق بالسودان فقد وقف جامدا حيال اعتداءات الانجليز المتكررة وامتنع عن دعوة البرلمان للنظر فى هذه الحوادث الخطيرة ودافع الوفد عن هذه السياسة الحزقاء بحديث لوكيله زعم فيه ان دعوة البرلمان تفيد ان البلاد فى حالة زعر وانزعاج كأن العمل على فصل السودان لا يدعو لاى زعر ولا يحمل على الانزعاج .

وكان على سعد أن يواجه البلاد بالحقائق التى وصل اليها خلال المفاوضات ولكنه اكتفى بان قال انه لا يحمل تصريحا من ماكدونالد على أن ماكدونالد (رئيس وزراء بريطانيا) نفسه قد تكلم وتكلم بصراحة وأعلن اعتدائه على حقوق مصر وحدد مركز الانجليز فى مصر والسودان تحديدا ظالما .

وقد عرف سعد بالتردد والتحول فقد كان له موقفه من الدستور قبل ان يتولى الحكم لان الوفد لم يشترك فى اعداد الدستور فكان حربا عنيفة عليه ، فلما كان هذا الدستور وسيلة الى الوزارة رضى عنه ودافع واعتبر نفسه وحزبه حماة له .

وكان له موقفه من المفاوضات مع الانجليز فلما تولى الحكم تجاهل هذا الاساس الذى تبنى عليه المفاوضات وأسلم أموره كلها لخصوم البلاد .

وكان له موقفه مع زملائه فى جبهة الوفد ، حيث تخلص منهم جميعا وكانت له مواقف مريرة من اللدد فى الخصومة مع عدلى وثروت وعبد العزيز فهمى وهى من باب العناد والاستعلاء قبل ان تكون من باب الحق والشرف .

وقد عرف عن سعد التعصب للرأى والاستبداد به وطلب السيطرة على وفد المفاوضات دون رئيس الحكومة ثم محاربة الحكومة لاختلافه معها ومحاربة وفد المفاوضات فى لندن بالبرقيات وارسل مندوبين لهذه المهمة

وكان لهذا الاستبداد أثره في انسحاب الرجال المخلصين من حوله فضـــلا عن طغيانه باسم توكيل الامة وهو لا يبالى فى سبيل أهوائه بالوحدة الوطنيـــة بل كان يفرض نفسه فرضا ويوهم الناس بأن كل خير يأتى للبلد على غير يديه فهو شر ولذلك نادى اتباعه بمقولة (الاحتلال على يد سعد خير من الاستقلال على يد عدلى) .

والمعتقد أن سعدا لم يكن يقدر تبعه تسليم الامة قيادها له حق قدره فهو كان لا يعترف بهذا التسليم وكان يسخر من الشعب ويسخر من نواب الشعب ونهج على هذا المبدأ خلفاؤه فى الحزب ثم استمرت هذه النغمـــة واتسعت حتى أصبحت نوعا من عبادة الاصنام .

ومن أكبر آفات سعد أنه وضع أسس الاستثناءات فقال : (وددت لو جعلتها حكومة زغلولية لحما ودما) .

ووضع قاعدة المفاوضة مع الانجليز وادعى بأن هذه المفاوضـــات لا تكون صحيحة الا اذا تولاها هو ، والحكومة ولا تكون وطنية الا اذا رأسها هو ، وبهذا الاسلوب العجيب من الدكتاتورية والصلف والعنـــاد ســـار خلفاته .

وقد عرف سعد باستبداده برأيه وقلة صبره على مناقشيه فضـــلا عن أنه كان رجلا مهدم الصحة معتل الاعصاب قد تولى الزعامة فى العقد السابع من عمره ،فهو لا يحتمل العمل ولا المشقة ، ومن هنا فانه لم يوجه الامة الى أى لون من الوان المجد أو الجهاد أو التربية ولم يستطع جمع الامة الى كفاح بل اكتفى بهذه الزعامة الصورية وانه علم الزعماء الا يعملوا شيئا خـــارج الحكم الا الفتن والتربص بالخصوم لتزول دولتهم ويعود هو الى الحكم .

ولم يكن سعد وهو الذى تربى فى الازهر ينزع نزعة اســـلامية اطلاقا فى أى حال من الاحوال حتى اللغة ، وهى أوليـــات علوم الازهر فقـــد كان ضعيفا فيها ولقد حارب الفكرة الاسلامية قولا وعملا فى حين كان من الخير أن يعاونها ويعينها فقد شجع على السفور وعلى خروج المرأة ، وكان من أسوأ أعماله تمزيق النقاب عن وجه المرأة رغبة فى اخراجها الى ميـــادين الاغراء .

فضلا عن دفاعه عن التشريعات والقوانين الوضعية والتنكر للشريعة

الاسلامية ويتسم دائما فى تصرفاته بسمة الروح الغربية ولا يلجأ الى الصلاة فى الازهر الا ليحـــاول اغراء الازهريين وضمهم الى صفه وكان لا يبـــدو فى اهاب الحازم الحكيم وقد أسرف على احاطة نفسه بجو من الفكاهة والنكتة واسرف فى ذلك الذين كان علمهم تملقه مما لم يكن خليفا بزعيم له هدف كبير يسعى اليه يستدعى منه الوقار والجلال والرجولة الكاملة العاملة .

ومن الناحية الاخرى كان غضوبا عصبيا لا يصبر على النضال وهذه أيضا هنة كبرى فى الزعامة ومن هنا نرى ان سعدا لم يكن فيه من الزعامة ما هو مطابق لهذا اللون الذى اسبغه على بعض الكاتبين .

(٢)

وفى دراسة الدكتور عبد الخالق شاهين عن سعد زغلول جوانب عديدة جديدة بالاعتبار فهو يقرر أن ثلاث شخصيات فى حياة سعد زغلول هى كرومر، مصطفى فهمى ، لطفى السيد ، وليس جمال الدين أو محمد عبده .

وقد صدق مقولة كرومر حين قال لقد كونت جيـــلا جديدا فى مصر يهدم القديم ويمجد الغرب .

ولقد ذكر سعد فى مذكراته بصراحة تامة (ان اللورد كرومر كان يجلس معى الساعة والساعتين ويحدثنى فى مسائل شتى كى أتنور منهـــا فى حياتى السياسية) مذكرات سعد زغلول كراس ٢٨ ص ١٥١٦ كذلك كتب مذكراته بمناسبة استعفاء كرومر من منصبه فى ١٩٠٧/٤/١١ (وكان يجلس فى منزله مع كل من حسن باشا عاصم ومحمود شكرى باشا عندما تلقوا خبر الاستعفاء قال : اما أنا فكنت كمن تقع ضربة شديدة على رأسه أو كمن وخذ بآلة حادة فلم يشعر بألمها لشدة هولها .

وقال فى موضع آخر : وقد امتلأت رأسى أوهاما وقلبى خفقانا وصدرى ضيقـــا .

ويقول الدكتور شاهين ولعل هذا التنور (فى لقاء كرومر وســـعد) هو الذى يفسر لنا ارتياد سعد للحفـــلات والمجتمعات الانجليزية أو التى يغشاها الانجليز وربما كانت من وراء أول زيارة الى لندن عام ١٨٩٥ تلمح أثرا لتلك السياسة فى قوله لزملائه المحامين فى حفل تعيين نائب قاض بمحكمة الاستئناف أنه اختار القضاء ليستريح من العناء وفى نفس الوقت الذى بدأ

يتكون فيه تيار جديد عند بعض الشبـــاب لخوض حياة الكفاح والجهـــاد فى سبيل مصر .

ونفس الشىء تماما بالنسبة لموقفه من مصطفى كامل الصحفى الشـــاب الوطنى الذى أوقف حياته لخدمة القضية المصرية ، كان سعد يقول عنه انه مجنون وانه نصاب خداع ومنافق كذاب وليس بشىء (رشيد رضا تاريخ الامام جزء ١ / ص ٤٣٣) .

٢ — مكث سعد فى القضاء أربعة عشر عاما وصل الى درجة مستشار وبلغ راتبه السنوى الف جنيه وكان خلالها عصريا فى آرائه الاجتماعية يرى أن المحافظة لا تلائم سنن التطور وكان من أوائل المصريين الذين دافعـوا عن تحرير المرأة .

ويذهب الى أن الصحابة ليسوا بمعصومين وليسوا بتقاة فمن أين يكون لهم ذلك وقد كانوا يرتكبون الجرائم ويأتون الاثام .

٣ — كتب كرومر فى تقريره السنوى عن تعيين سعد زغلول ناظرا للمعارف ما يأتى . .

لم يكن السبب الرئيسى فى تعيينه كما يظن أحيانا انه استياء من الحالة التى كانت تسير عليها مصلحة المعارف العمومية فلا زالت قاصرة فى أن توفر أية بادرة لتغير جذرى فى السياسة التعليمية التى يتبعها حتى الان بل انه يرجع أساسا الى الرغبة فى ضم رجل قادر ومصرى مستنير من تلك الطائفة الخاصة من المجتمع المتغير بالاصلاح فى مصر .

كما أن سعدا كان من تلاميذ محمد عبده وأتبـــاعه الذين أطلق عليهم كرومر (جيروند) الحركة الوطنية المصرية والذى كان برنامجهـم تشجيع التعاون مع الاجانب لادخال الحضارة الغربية الى مصر الأمر الذى جعـل كرومر يحصر فيهم أمله فى قيـــام الوطنية المصرية (محمد محمـــد حسين — الاتجاهات ج ٢ ص ٢٨٧) .

وقد كان التعليم فى ذلك الوقت قد أصبح (أرض المعـــركة) فقد وجد الانجليز انفسهم وجها لوجه أمام هبة قومية أبطالها تلاميذ المدارس الذين وجدوا فى مصطفى كامل رجل مصر الفتية كما وجدوا فى أنفسهم الحـــراس

الامناء للامة المصرية كما أن تعريب التعليم قد أصبح مطلبـــا عاما وكذلك تمصيره .

وكادت تنجح حركة انشاء الجامعة المصرية .

كذلك فقد كان تعيين سعد لنظارة المعـــارف مواجهة بعض المصاعب المختلفة من ناحية وبناء حواجز أمام الخديو والوطنين أكبر من بناء جسور يمتد عليها الحكم الذاتى لمصر والمصريين .

٤ — نقل سعد الى وزارة الحقانية ليؤدى دورا خطيرا فقد أصـــدر قانون المطبوعات أحد القوانين الاستثنائية للحد من سلطة الصحافة وتعديل قانون العقوبات لضرب الحركة الوطنية التى كان قوامهـــا العمل السياسى وكانت الصحافة أهم أسلحتها واستقال (مارس ١٩١٢) فى نفس التاريخ الذى أصبح فيه محمد فريد رئيس الحزب الوطنى فى مأمن من أيدى الحكومة بقوانينه الاستثنائية المستخدمة حيث كان قد وصل سرا الى الاستانة بعد أن اتخذ قرار الهجرة من وطنـــه نتيجة الاعنات والضيق بل والظلم الذى عاملته به الحكومة المصرية .

وأصبح فى وزارة الحقانية القناة التى من خلالها يتدفق تيـــار القمع الذى انساب من كل جـــانب من أصحـــاب السلطتين الشرعية والفعلية فى البـــلاد .

لقد استقال بعد ان تحقق الهدف بضرب الحركة الوطنيةوفرار زعيمها خارج مصر وكتبت الصحافة .

وكان سعد قد قدم محمد فريد للمحاكمة بسبب خطبته فى الاسكندرية

٥ — عندما نجح سعد فى الجمعية التشريعية قابله كتشنر وبحث معه ما سيعرض على الجمعية وتدارسا سويا ما ينبغى ان يتم فى كل مســألة من المسائل وقال سعد لكتشنر أن ما بلغك عنى كذب من أنى أتحدث مع الخديو أو سأكون زعيم الحزب الوطنى .

٧ — ورث سعد عشرين فدانا وجدد أربعين أخرى اشتراها أثنـــاء اشتغاله بالمحاماة وتنازل عنها .

واشترى ضيعه فى ابريل ١٩٠٣ ناحية قرطا دمنهور ١٦٨ فدانا الفدان ٥٣ جنيه .

وكان سعد كما كان لطفى السيد من عائلات اقطاعية مكن لها الاحتلال فى الصعود وتنمية مواردها لمحاولة لخلق طبقة ترتبط مصالحها بمصالحه وهى الطبقة التى عرفت من بعد باسم الاعيان وكبار الملاك .

فقد نما سعد ثروته بينما باع محمد فريد كل املاكه فى سبيل خدمة القضية المصرية .

وقد بلغ ما يملكه سعد من ثروته ٤٠٠ فدان بعد زواجه من ابنة رئيس النظار ، كذلك ورث من صهره مصطفى فهمى (سبتمبر ١٩١١) ميراثا لا بأس به (كان لديه ٦٤٨ فدانا وثلاث كريمات) وترك من الاموال فى البنك الاهلى ٨٦٠٠ جنيه وترك من الاطيان ما يقرب من ألف أردب قمح ومن المواشى مائة رأس .

٧ — تردد على نادى محمد على وانغمس فى القمار وحبه للموائد الخضراء وتفض مذكرات سعد بالتفاصيل المسهبة التى تبين مدى سيطرة هذه الغواية عليه ومحاولته الاقلاع عنها .

كتب يقول : كنت أتردد بعد عودتى من أوربا على الكلوب (نادى محمد على فملت الى لعب الورق ، ويظهر ان هذا الميل كان بداية المرض الذى لم اقدر بعد ذلك ان امنع نفسى من التردد على النادى ومن اللعب وبعد ان كان بقليل أصبح بكثير من النقود .

وخسرت فيه مبلغا طائلا ، خسرت فيه صحة وقوة ومالا وثروة ولم يكن سعد يلعب وحده بل ان زوجته كانت تشاركه احيانا .

ويتساءل سعد عن الاسباب التى دفعته للمغامرة فيقول : أريد أن أعرف ما أريد حتى أتمكن من معالجة نفسى من هذا الداء ، هل أريد بسطة من الرزق، أنه تفيضه فى الكثير الغالب ، هل أريد سعة من الجاه ، هل أريد تناسى آلام تتردد على النفس عند خلوها من الشغل وهو كثير ، لا أشعر بهذه الآلام .

وتغلب الهواية على سعد الى حد بعيد لدرجة أنه يقول ما كنت اصفى

لنصائح زوجتى ولا أرق لتألمها من حالتى ولا ارعوى عن نفسى ويصل به الامر ان يكتب فيقول :

انى أوصى كل من يعيش بعدى ممن لهم شـــأن فى شـــأنى انى اذا مت من غير أن أترك اللعب الا يحتفلوا بجيازتى ولا يحدوا على ولا يجلسوا لقبول العزاء ولا يدفنونى بين أهلى وأقاربى وان تنشروا على الناس ما كتبته عن اللعب حتى يروا حالة من تمكنت فى نفسه هذه الرزيلة وبئس العاقبة »

ولقد كان من نتيجة ذلك ان وقع سعد زغلول تحت طائلة الديون مما دفعه الى بيع الضيعة التى اشتراها كما باع الضيعة الاخرى .

وضاع كل ايرادات سعد فى مدى عامين وأصبح مدينا فى مارس ١٩١٢ بمبلغ خمسة آلاف جنيه .

٩ — أعد سعد من المتنورين المصريين الذين يرضى عنهم النفوذ الاجنبى بقبل الامر الواقع والاستسلام للاوضاع الجبرية والانتفاع بها وقد تقدم سعد نحو السلطة باصهاره الى مصطفى فهمى واتصاله بالانجليز وتعاونه معهم وكراهيته للحركة الوطنية وايمانه بمفاهيم الاقطاعيين أمثال لطفى السيد) .

وكان رأى الجناح المعتدل من الوطنين المصرين ومنهم محمد عبده ولطفى السيد وأحمد فتحى زغلول ان مصلحة مصر تقتضى مهادنة المحتل واقناعه لتحقيق الاصلاحات التى تحتاج اليها البلاد .

وقد اتخذ سياسة مزدوجة سداها المحافظة على المشـــاعر الوطنية ولحمتها التعاون مع الانجليز فقد شهد بعينه فشل ثورة عرابى وأدرك كيف اثبتت فرنسا ترددها فى ساعات الشدة وكيف أن تركيا عديمة الجـــدوى للوقوف فى وجه القوى الاوربية وانتهى الى أنه لا يمكن الوصول الى هـــدف سليم بالقوة العسكرية أو الاعتماد على العون الخارجى .

وهذا يفسر رفضه القطيعة مع انجلترا وانفصاله تماما عن كل البرامج السياسية .

١٠ — من أشهر التجمعات التى كان يغشاها سعد زغلول صـــالون الاميرة نازلى فاضل التى كانت من انصار الانجليز وعشاقهم وكانت تجاهر بذلك وهى ابنة مصطفى فاضل باشا نجل ابراهيم بن محمد على باشا والى

مصر وكان والدها مصطفى باشا شقيق الخديد اسماعيل يعتبر نفسه أحق بعرش مصر من اسماعيل ولذلك كان يعمل هو وأولاده من بعده على مناؤة اسماعيل وذريته التى حكمت مصر .

يقول محمد فريد فى مذكراته : انها كان لها شغف خصوصى بضبـــاط الانجليز ، وكانت تقابل الرجال على العـــادة الاوربية وتحيى ليالى موسيقية فى دارها وتكثر منشرب الخمر وبالاخص الشمبانيا على الطعام وقبل كل طعـــام .

وليس بغريب ان تجد سعد زغلول من رواد هذا المنتدى الادبى حيث كان قد سبقه اليه استاذه ووالده ومريده الشيخ محمد عبده الذى كان قد هادن الانجليز بعد عودته من منفـــاه فى أواخر ١٨٨٨ والذى كان لمســـاعى الاميرة فضل كبير فى صدور عفو الخديو عنه ومن خلال الصالون التقى سعد بافلين بيرنج (لورد كرومر) فيما بعد للمرة الاولى ولم تقتصد ساعتها الاميرة نازلى فى عبارات الاطراء التى ذكرتها عن سعد (روز اليوسف ١٣/١٠/١٩٢٧) لما كان من نتيجة ارتياد سعد لهذا الصالون ان أطلقت الاشاعات بأن سعدا الذين تعين وكيلا (محاميا) للاميرة واصبح عائشا معها بصفة غير شرعية ربما تزوج بها قريبا (محمد فريد فى مذكراته) ثم تعيينه بوظيفة نائب قاض فى ٢٧ يونية ١٨٩٢ بمرتب اربعون جنيها مصريا (السياسة ٢٨/٨/١٩٢٧ — الهاكع) .

حول المفاوضات :

١١ — كان الوفد ابنا شرعيا لحزب الامة القـــديم فمعظم قيـــاداته كانت من قيادات حزب الامة شأنه فى ذلك شـــأن الاتحاديين والكماليين فى تركيا وكان ايمانهم قائما على حل القضية المصرية مع بريطانيـــا وحدهـــا باعتبارها مشكلة ثنائية بين مصر وبريطانيا وهو ما اكده ســـعد زغلول فى المقابلة التى تمت مع الباشوات الثلاثة فى ١٣ نوفمبر ١٩١٨ .

كذلك رفض الوفد الاتصال بوفود الدول العربية فى باريس لاقامة جبهة عربية موحدة كما رفض الاتصال بأوربيين غير الانجليز .

وقد لطمه الرئيس ولسون فى نفس اليوم الذى وصل فيه سعد زغلول الى باريس ممرغا فى الزعامة شروط امريكا بدخول الحرب وعلى رأسها حق

تقرير المصير حيث أقر معاهدات الصلح التى تضمنت اعتراف كل الأطراف بالحماية البريطانية على مصر .

كذلك فقد رفض مؤتمر الصلح قبول الوفد المصرى برئاسة سعد وتبين أن عملهم الان هو تنظيم الهزيمة على حد قول محمود أبو الفتح وقد شكلت لجنة ملنر وطافت كل انحاء مصر فلم يتحدث اليها احد فلما عاد قصد اليه سعد زغلول وأجرى معه المفاوضات .

وكان ملنر حريصا أن يقول لسعد : اننا واضعون يدنا فى مصر على كل شيء وكان سعد يعمل لثنائية المسألة المصرية معارضا اتجاه مصطفى كامل واصحابه بدولية المسألة المصرية وان كان قد عرف اخيرا بعد الهزيمة فساد فكرته .

وقضى سعد زغلول على الوجهة الوطنية التى كانت تحمل لواء المقاومة وقال فى مجلس النواب : هل عندكم تجريدة (بالرغم من ان التجريدة كانت تزحم الشوارع ولكنه لم يراها أو لم يكن يريد أن يراها وكشفت المقابلة بين الباشوات الثلاثة عن التدنى الشديد والتحول الخطير من تلك الروح العالية السامقة التى حمل لوائها مصطفى كامل ومحمد فريد الى أسلوب غير معاد للاحتلال . والتسليم بالتبعية والاقرار بحقوق بريطانيا فى مصر واعلان استعدادهم لمنح المستعمرين قاعدة على الارض المصرية وهو ما عبر عنه لطفى السيد بعبارة (استقرار ذاتى فى اطار الحماية) .

وعندما اعلن عبد الرحمن فهمى ان الوفد اشترط لقبول المفاوضة مع لجنة ملنر (٧ مارس ١٩٢٠) ان تعلن انجلترا استقلال مصر التام كتب سعد : ان الوفد لم يشترط الدخول فى المفاوضة ان تعلن بريطانيا استقلال مصر ولا يمكنه ان يشترط ولكنكم بالحملة التى نشرتموها نسبتم اليه اشتراطه وقررتم فى اذهان الكافة ان الوفد لا يقبل المفاوضة الا به فاذا كان الانجليز قبلوا ما اشترطه وهو دون ذلك فلا نتعرض لسخط الجمهور اذا دخل فى المفاوضة بغيره » .

وبعد عودته من باريس بعد فشل مفاوضة لندن لخص الموقف قائلا : اننا نريد الاستقلال التام مع المحافظة على مصالح انجلترا ومصالح الاجانب فى مصر ، ان فى احراج زغلول احراج للامة .. » .

١١ — يرجع الخلاف بين عبد الرحمن فهمى وسعد زغلول الى اعتقاده بأن الخلاف بين سعد وعدلى قد أدى الى انشقاق فى صفوف الحركة الوطنية وان سعدا يتحمل المسئولية الكبرى فى ذلك .

فقد ظل عبد الرحمن فهمى بعيدا عن سعد زغلول طوال سنة ١٩٢١ حتى انعقد المؤتمر الوطنى وقد اعتقد انه سيظل مرشح الوفد كما كان فى البرلمان السابق ولكنه علم ان سعدا لم يضمه الى قوائم مرشحى الوفد فقال له سعد : كيف تريد أن أرشحك للنيابة وانت ما فتئت تطعن على فى مجالسك الخصوصية .

قال عبد الرحمن فهمى أنا لم أطعن فى شخصك ولكن انتقدت سياستك

١٢ — عندما اعتقل سعد زغلول للمرة الاولى طبعت السلطة البريطانية على نفقتها مئات الالوف من النشرات معلنة أمر القبض على سعد وصحبه ونشرتها فى طول البلاد وغرضها لتلفت نظر الامة الى الزعيم الجديد فى الوقت الذى كانت السلطة تخشى فيه أن يستعيد الحزب الوطنى سيطرته على الجمهور فتوجه الحركة الوجهة الصحيحة الذى تحاول بريطانيا تفاديها .

(كتاب عبد الخالق لاشين)
ودراسات أخرى

(٥)

كيف اختلف سعد مع أعضاء الوفد

كان من أكبر أسباب هزيمة الحركة الوطنية بعد أن اسلمت قيادها الى سعد زغلول ذلك الاستعلاء الذى عرف عنه فى معاملة زملائه على نحو أحدث بينهم وبينه فجوة كبيرة كان من أكبر اثارها تمزق وحدة الوفد واستقالتهم واحدا بعد الاخر وعودتهم الى الوطن .

يقول محمد على علوبة فى مذكراته : وكان أخطر ذلك الانفراد بالعمل والحصول على مبالغ دون تقديم فواتير عن صرفها كما هى العادة دون أن يطلعنا على شىء وخلافه مع الاعضاء المؤسسين واستعانته بالاعضاء الجدد الذين يوالونه .

ومن ذلك أنه اقترض عشرين الف فرنك من ميزانية الوفد فى نقــل جثمان رجل من أقارب مصطفى فهمى والد صفية مات فى فرنسا وأرسله الى مصر ولم يرد المبلغ كما لم يرد غيره من المبالغ التى اقترضها من الوفد .

وقال محمد على علوبة انه بعد جلسات عاصفة للوفد فى باريس تبين سوء رأى سعد فى زملائه عبد العزيز فهمى ولطفى السيد وعدلى يكن وانه ليس له غاية غير شخصه وبروزه على الانداد وتداول الالسنة لاسمه وهتاف أصاحب الحناجر له واتصاله بالسلطة وهو بخيل لم يدفع للحركة الوطنية الا مائة جنيه لم يلبث ان استردها .

ومد يده الى مال الوفد واخذ من علوبة (الذى كان أمينا لصندوق الوفد) مئات الالوف من الفرنكات الفرنسية ابان وجود الوفد فى باريس .

وهو جبان يخاف الاخطار الموهومة ضيق الصدر فاقد الصبر لا يطيق مناقشة زملائه الذين اختارهم الشعب اعضاء فى الوفد وقادة للحركة الوطنية عاشق لنفسه يريد لها التقديس والخضوع والاذعان لا يطيق ان يذكر اسم غير اسمه ولا ينسب فضل الى غير شخصه متقلب لا يثبت على رأى فحينما لاحت المصلحة الشخصية جرى ورائها ناسيا ما قاله من قبل وما أعلنه وأكده واعتبره حقا لا ينزل عنه ولا يساوم فيه وهو حقود جحود ، استعان بعدلى استدعاه الى باريس فى الحاح وتوسل ثم نسب اليه كل موبقة وعدلى لم يسابقه على منصب ولم ينافسه فى شهرة ولم يقاومه لغرض .

٢ — كذلك اثبت محمد على علوبة مأخذا على سعد بعد ان أعلن اعجابه بموقف شعراوى وفهمى (الباشوات الثلاثة فى مقابلة السير ونجت) قال اما سعد فانه تطوع وعرض على المندوب السامى أمورا خطيرة دون أن يتفق مع زملائه ودون أن يكون له تفويض منهم ودون ان يحصل الوفد على توكيل من الامة .

(تصريحه باعطاء انجلترا ضمانه هى قناة السويس الخ) .

٣ — أن فكرة تأليف الوفد لم تصدر من سعد وانما تلقاها من حسين رشدى وعلى ان السلطان أحمد فؤاد راض عنها وان فكرة التوكيــلات لم تصــدر عنه كذلك ، ثم ان موقفـــه فى مقابلة السير ونجت كان اضعف من زميليه .

٤ — اشتد فى مجابهة شعراوى على صورة جارحة لطلبة المال وكان شعراوى قد تبرع بثلاثة آلاف جنيه للوفد فى بداية الحركة بينمـا لم يتقدم أى عضو بأكثر من مائة جنيه .

ولما رأى شعراوى أن يعود بعد اهانته حمل عليه سعد حملة شعواء

٤ — اقترح أعضاء الوفد نقل جثمان محمد فريد (من المانيا بعـد وفاته الى أرض الوطن) فرفض سعد بينما أقترض من أموال الوفد ١١ ألفا من الفرنكات لنقل جثمان صهره مصطفى فهمى الذى رأس الوزارة المصرية فى ظل الاحتـلال ثلاثة عشر عاما متصلة لا يرد فيها للانجليز أمرا مما جعله العميل الاول للاحتلال البريطانى على حساب الوفد ولم يسدد سـعد هذا الدين .

٥ — امتنع عن السفر الى لنـدن وقال انه يخشى ان يقبض عليه الانجليز ولم يقبل السفر الا بعد ان حصل على تعهد من اللورد ملنر بعـدم المساس بشخصه .

٦ — طلب سعد من عبد الرحمن فهمى تكوين لجنة لاستقبال ملنر عند وصوله الى مصر وطرح فهمى هذه الفكرة وأمر أعوانه من الشباب بمحاصرة اللجنة البريطانية ومنع الاتصال بها وقال لا يمثلنا الا الوفد الموجود فى فرنسا

٧ — كان سعد متهافتا على الاستعانة بعدلى فأرسل له برقيـة لاحضور وفى النهاية يتهم سعد عدلى بأنه لم يكن مندوب الوفد عند الانجليز بل وسيط الانجليز عند الوفد .

٨ — لما ارتفع اسم سعد عند الشعب حتى أصبح لا يكف عن الهتاف به واختفت أسماء أعوان سعد وزملائه الذين سافروا معه من مصر الى فرنسا وهم انداد تغير موقف سعد منهم ومن ادارة المفاوضات فأصبح لا يطيق معارضه .

٩ — كان له فى مشروع ملنر رايان = رأى يخفيه عن الناس ورأى يعلنه لانه يخشى من مكائد السياسة أن صـارح الناس بالرأى وهو يتهمه بذلك بأنه لا يؤدى امانة الزعيم الذى أؤتمن على قضية الوطن ومصلحة البلد فهو يقدم مصلحته الشخصية على المصلحة العامة .

١٠ — اخذ معه زوجته الى أوربا واغلق بيته فى مصر ولم يكن احد من اعضاء الوفد معه اهله .

١١ — اخبرنا سعد برغبته فى استشارتنا فى أمر ارتآه وهو التساهل مع ملنر فى بعض طلباتنا بشرط أن يعزل السلطان فؤاد ونظر الينا يريد ابداء آرائنا .

وان يكون الرضيع فاروق سلطانا مع تعيين وصى عليه ففهمنا من هذا ان سعدا كان ينبغى ان يكون الوصى على العرش اى على عرش طفل عمره بضعة اشهر وسيكون فوق ذلك رئيس الامة باعتباره رئيس الوفد المصرى فيصبح الحاكم بأمره فى البلاد .

١٢ — عرض سعد هذه الفكرة :

يعرض مشروع الاتفاق على الامة المصرية دون أن يرتبط سعد بأى رباط سوى أنه فى السر يوافق على ما ينتهى عليه استفتاء الامة وبذلك يكون راضيا على المشروع وغير مرتبط به وتكون حجته انه ينفذ رأى الامة ويحتفظ بسمعه التطرف فى الوطنية من جانبه والخروج من اية مسئولية على تنفيذ الاتفاق فظهر بذلك انه اكثر الناس وطنية وانه كان عونا فى تنفيذ المعاهدة فيحتفظ بذلك برضا الانجليز وبزعامة الامة المصرية ويتنصل بذلك من أى مسئولية فيكون له من الفريقين المجد الفريد .

● ● ●

يقول عبد اللطيف المكباتى فى مذكراته عن سعد زغلول (٢٥ نوفمبر ١٩٢٣) قال سعد بعد عودته (ابريل ١٩٢١) أن رأيتم سعدا أو أصحاب سعد دخلوا المفاوضات بدون التحفظات التى وضعتها الامة فاسقطوا سعدا واصحاب سعد .

ثم اراد أن يصرف الامة عن التمسك بالتحفظات لكى لا يكون قيدا لقيد ولا مرتبط بشرط .

واعترضت الاخبار (امين الرافعى) ولاقت من الاعنات والمطاردة ما لاقت لانها تمسكت بما أجمعت عليه الامة .

ولما احس سعد أن الشعب تنازل عن مبادئه وكلمته ، حول عبارة الامة للوطن الى عبارة شخصية لذاته وادعى ان محبته دليل على وجود الله

(تبارك وتعالى) وداس على التحفظات باقدامه وراء رجالا لا يستجدون رضاه ولا يسبحون بحمده فأستجمع قواه لمحاربتهم وازالتهم من طريقه .

٤ — سعد زغلول وحركة تحرير المراة

فى بحث مستفيض للاستاذ المرحوم حسين محمد يوسف عرض لموقف سعد زغلول من قاسم أمين وحركة تحرير المراة فقال :

ظلت حركة قاسم أمين محصورة فى نطـــاق ضيق حتى ان المتظاهرات فى ثورة ١٩١٩ كن يخرجن فى ذلك الحين محجبات يرتدين البراقع البيضاء وكان فى ذلك أقوى دليل على ان الحجاب لم يحل بين المراة المسلمة وبين القيام بأخطر الواجبات والجهـــاد فى سبيل حـــرية البـــلاد باعتبـــار ان الضرورات تبيح المحظورات .

واستمر الحال على ذلك الى ان عاد سعد زغلول من منفـــاه وسعد زغلول هو شقيق فتحى زغلول رئيس المحكمة المخصوصة وأحد زعماء حزب الامة كما أنه الصديق الحميم لقاسم أمين .

وبعودة سعد أقام حزب الوفد المصرى استقبالا فخما فى سرادق كبير أمام بيت الامة حيث سارعت الالوف من أبناء الشعب رجالا ونساء للاستماع الى خطابه واعد فى نهاية السرادق مكان خاص للسيدات أمة حوالى ٥٠٠ المحجبات بالبراقع البيضـــاء .

وحدثنى فضيلة الشيخ صالح الفيومى المحامى الشرعى وقد شـــهد هذا الاحتفال وكان بالقرب من منصة الخطابة ضمن الشباب المتحمس الذى أحاط بالزعيم . قال فضيلته :

خطب أمام سعد ترحيبا بمقدمه ثلاثة :

الاول مطربش لا أذكر اسمه والثانى معمم هو الشيخ محمد الخضرى وكيل مدرسة القضاء الشرعى والثالثة سيدة محجبة ترتدى الجبة والبرقع الابيض وكان عاطف بركات ناظر مدرسة القضاء الشرعى يقدم كل خطيب عقب نزوله من المنصة الى الزعيم يعرفه باسمه فلما انتهت السيدة المحجبة من خطابها قدمها عاطف الى سعد زغلول فقـــام لها وسلم عليها ثم مد يده فجأة الى نقابها فنزعه وهو يقول لها :

اما آن لهذه الخرقة ان تبلى وألقى بها الى الارض .

وقد قوبلت هذه الحركة بتصفيق حاد من كثيرين واندفع بعض الشباب الى المكان المخصص للسيدات فأرغموهن على نزع الحجاب وانتهى ذلك الاجتماع بخروج ٥٠٠ من السافرات الى الشوارع والطرقات .

ولم تمض أيام على ذلك الحدث الخطير حتى كان سـعد زغلول يقف خطيبا فى وفد من السيدات السافرات ويقول :

أنا مبتهج بزيارتكن وأعبر لكن بدورى عن سرورى برؤيتكن راغبات فى المعاونة فى العمل الاجتماعى المفروض على الجميع .

اننى من أنصار تحرير المراة ومن المقتنعين به لانه بغير هذا التحرر لا نستطيع بلوغ غايتنا ويقينى هذا ليس وليد اليوم بل هو قديم العهـد فقد شاركت منذ آمد بعيد صديقى قاسم أمين أفكاره التى ضمنتها كتـابة الذى أهداه الى : (المراة الجديدة) فضلا عن أن الدور الذى قامت به المرأة المصرية فى حركتنا الوطنية كان عظيما ونافعا فاستمرون فى العمـل الذى بدأتن به وانا ضامن لكن النجاح التـام .

وهكذا تحولت الثغرة التى كانت محصورة طوال ثلاثين عاما ، تحولت هذه الثغرة التى فتحها قاسم أمين وتعهدها من بعده أنصار الماسونية واذناب الاحتلال من رجال السياسة والدين بالتخريب والتدمير .

تحولت هذه الثغرة الى مدخل واسع مفتوح على مصراعيه اندفعت منه الفوضى كالاعصار وانطلق الاعصار فى عتو وجبروت لا تعترضه مقـاومة ولا ترده قوة : ذلك ان رجالات الحزب الوطنى كانوا جميعا فى المنفى وعلماء الدين كانوا فى غمرة الاحداث والامة كانت فى نشوة الفرح بالحرية المزعومة صرفتها عن النكبة التى وقعت فيها والضربة التى أصابتها فى الصميم .

والان وبعد سبعين عاما من فتح هذه الثغرة المشئومة فقد تحـول نصف الامة الى كاسيات عاريات .

الان وقد امتد السفور الى الظهور والنحور والى الاكتاف والارداف الى الازرعة والسيقان .

الان فقد آن الاوان لسد هذه الثغرة قبل ان يكتسح الاعصار البقيـة الباقية من ادابنا الفاضلة وتقاليدنا الكريمة .

(الاعتصام نوفمبر — ديسمبر ١٩٨٧)

(٥)

بعد مرور أكثر من ستين عاما على وفاة سعد زغلول آن أن تقـوم دراسة هذه الشخصية والدور الخطير الذى احدثته فى الحركة الوطنية حيث جعلت منه القوى الاجنبية رأس جسر الى تغريب المجتمع واقامة اعمـدة العلمانية فى المدرسة والمحكمة والمصرف .

وكان عبد الرحمن الرافعى رحمه الله أول من تناول شخصية سعد زغلول بالتحليل فى كتابه (فى أعقاب ثورة ١٩١٩) ثم تنـاول ذلك كتـاب جريدة شباب محمد الذين تناولوا الموقف منذ جمال الدين ومحمد عبده الى سـعد زغلول . ثم كتب الاستاذ فتحى رضوان فصوله الضافية عن سعد طوال حياته حتى كان موعد الندوة العلمية التى نظمها المعهد الهولندى فى مصر مع عدد من اساتذة الجامعة حيث اختير فتحى رضوان بوصفه أقدم سـياسى شهد هذه المرحلة من الاحياء بين ثورة ١٩١٩ و سنة ١٩٥٢ فى الجلسة التى عقدت فى ٣١ من شهر اغسطس ١٩٨٧ بفندق ماريوت ، كان عنوان الندوة (الالتزام والموضوعية فى كتابة التاريخ المصرى ١٩١٩ — ١٩٥٢) .

يقول : لما كانت الوقائع والاراء التى تضمنتها مذكرات سعد زغلول التى نشر منها الجزء الاول من الاهمية والخطر فقد قررت أن اذكر أضخم هذه الوقائع واجدرها بالذكر وبالتعليق وقد حرصت ما استطعت الا اصطنع اسلوبا حادا وان اقنع بذكر ما جاء فى هذه المذكرات .

ولما كان سعد زغلول قد أورد فى الكراس رقم ٢٨ ص ١٥١٦ عن واقعة استعفاء كرومر من منصبه فى ٧ ابريل ١٩٠٧ قال سعد مانصه : كان يجلس فى منزله مع كل من حسين باشا ومحمود باشا شكرى عندما تلقينـا خبـر الاستعفاء .

قال سعد : اما أنا فكنت كمن تقع ضربة شديدة على رأسه وكمن وخز بآلة حادة فلم يشعر بألمها لشدتها .

ثم كتب سعد فى مذكراته (الكراس ص ٢٤٠ من نفس الواقة) وامتلأت رأسى أوهاما وقلبى خفقانا وصدرى ضيقـا .

وكتب سعد فى موضع ثالث (ص ٢٤٤) عمـا دار بين سعد وكرومر

عندما ذهب أولهما الى الثانى عقب الاستغناء أو الاقالة : قال كرومر لا تخف مطلقا فان خلفى سيفيدك بكل ما فى وسعه .

فيرد عليه سعد عندما أبدى كرومر عبارات التشجيع والتطمئين فقلت له : اننى لا أفكر فى نفسى ولكن فى بلدى الذى سيخسر بعدك خسارة لا تعوض .

ولم يكن سعد غريبا عن كرومر حتى لا يعرف دوافعه فقد وصف سعد كرومر بأنه أستاذه وانه كان يتردد عليه كثيرا ويقضى معه وقتا غير قليل .

قال سعد ان كرومر يجلس معى الساعة والساعتين ويحدثنى فى مسائل تمسنى كى أتنور منها فى حياتى السياسية .

فكرومر حينما يأتى اليه سعد منهارا بسبب تأثره الشديد الذى وصفه وصفا بليغا وقويا كان يعرف ماذا يشغل سعد وحقيقة حوافزه لان من يجالس شخصا ما الساعة والساعتين فى مرات متعددة تنكشف له طوايا نفسه وخصائل ذاته .

ذكرت هذه الفقرات من مذكرات سعد زغلول اذ لم يكن ممكنا ان أشهد على العصر دون أن أقف أمام الوقائع التى تضمنتها هذه الفقرات المثيرة فسعد زغلول لم يكن فى العصر الذى أشهد فيه رجلا عاديا بل كان على رأس رجالات عهده وكان دوره دور القيادة والزعامة فان تكون له خلفية تسمح بأن تكون له صلات مع مندوب الاحتلال البريطانى وممثل الانجليز وأشدهم حربا للحركة الوطنية وأكثرهم مقاومة للاستقلاليين ودعاة التحرر فأمر غير عادى ولابد من التعليق تأييدا أو تنديدا لفرط غرابته .

وهذه الغرابة البالغة هذا القدر من القوة تدعو المعلقين والمحللين الى محاولة تفسيرها ، أما بما يسىء الى سعد ويشكك فى دوره بعد الثورة وفى عدم استحقاقه للدور الذى ظهر به محلل فى سياق الامور ، أو ان مجرى الامور الثبوت على السياق الطبيعى للتاريخ فأصبح ممكنا ان يكون أكثر الاحتلالين وأشدهم قربا من مندوبه الأعظم للاستعمار وهو فى يوم وليلة زعيم الوطنيين وقائدهم .

ولما تلت هذه الفقرات اسبقتها الحاضرون فى قاعة الاجتمـــاع فى هدوء ، الا ان النعرات الحزبية عند المشتغلين بالعمل الحزبى — أو المنتفعين من التعلق والانحيـــاز لزعماء يعينهم ضد زعمـــاء آخرين آلمهم غاية الايلام ان تعلن هذه الحقيقة وبأسلوب هادىء خال من المبـــالغة فكان شعورهم ممضا اذ تحولت الندوة العلمية الى محاكمة سياسية لزعيمهم كما قد قيل بالفعل .

والحق أنه لابد لى فيما حصل فانا لم افعل اكثر من انى ذكرت الفقرات كما وردت فى مذكرات سعد بالذات .

والحمد لله ان اعترف المدافعون عن صاحب هذه الفقرات بصحتهـــا وسلامتها وخلوها من الزيف أو الحذف .

فكل الذى فعلوه أنهم دافعوا عن صدور هذه الفقرات عن صاحبهـــا بما لا يصح أن يكون دفاعا مقبولا لانه دفاع الاحتلاليين عن ولائهم للاحتـــلال وهو الدفاع الذى امتاز به صنائع الاستعمـــار وادواته منذ وقعت كارثة الاحتـــلال فى ٩ سبتمبر ١٨٩٢ فاذا حللنا ما كتبه سعد بخط يده وفى وحدة توفر له الطمأنينة والسكينة والاستقرار تبينا ما يلى :

أولا : قال سعد أنه شعر بما يشعر به من ضرب على رأســـه ضربة شـــديدة .

ثانيا : ان الضربة افقدته الشعور لشدتها .

ثالثا : ان الالم المفاجىء الوقتى حل محله شعور طويل (اذا امتـــلأت رأسى أوهاما وقلبى خفقانا وصدرى ضيقا) .

رابعا : ان سعد ذهب الى كرومر ليلقى عنده المواساة عندما يحدثه عن حالته السيئة التى أصبح فيها فادرك فى الحال كرومر البواعث التى أوصلت سعدا الى هذا الحد من الانهيار .

فقال له كرومر : لا تخف مطلقا ان خلفى سيؤيدك بكل ما فى وسعه .

فقال سعد : انى لا افكر فى شخصى بل فى بلدى ومنفعتها التى ســـوف تخسر بعدك خسارة لا تعوض .

فماذا تعنى هذه الفقرات : تعنى ان سعد منح حبه واخلاصه وثقته فى شخص عرفه المصريون عدوا لدودا لهم .

وكانت آخر أعماله التى استغلها مصطفى كامل فوجــه اليه ضربات قلمه ولســـانه وضغط عليه حتى هوى عن عرش مصر اذ كان معروفا بأنه ملك مصر والسودان غير المتوج .

فسعد أولا انهــار انهيــارا لا يليق برجل أشرف على الستين وبلغ منصب الوزارة ومارس المحاماة والقضاء والحكم وعرف تقلبات السياسة كما كان يليق به لا من الناحية الشخصية البحتة ولا من الناحية العــامة أن يتحلى صبره ويتهــاوى جلده على الصورة التى وصفها ولاى سبب ، لان موظفا بريطانيا ترك منصبه وهو يتهيأ لزعامة مصر بعد سنين قليلة فقام فى وهمه ان مصر ستتعرض لاذى كبير لا يمكن معالجتــه لان كبير الموظفين الاستعماريين الذين سلطوا على مصر فأذلوها وحرموها الحرية فرضوا عليها نظاما باعوا فى ظله قطع الاسطول المصرى التجارى وفككوا أوصال أسطولها البحرى وهبطوا بالجيش الى شراذم من الاميين والجهلة لا يصلحون الا للسير فى المواكب وضيعوا على المصريين فرص التعليم فلم يعد فى مصر الا مدرستان ثانويتان واحدة فى القاهرة وواحدة فى الاسكندرية .

واغلقوا مدارس البنـــات التى فتحهـــا اسماعيل الذى يشــكو منه المصريون والذى أدخل السكك الحديدية فأصبحت مصر ثانى دولة يدخل فيها هذا النظام ومدوا أسلاك التليفونات والتلغراف وخططوا القاهرة على أجمل نسق وبنوا دار الاوبرا ودار الاثار المصرية والاســـلامية وحديقة الازبكية بعد حديقة القناطر وشقوا الترع والرياحات وأقاموا مصانع حلج القطن ، سعد تجاهل ذلك كله ولم يبك على الخراب الذى الحقه ببلاده الاستعمـــار المدمر حتى ألف عنه رونستين كتابه المشهور (خراب مصر) ولكن سعدا لا يقرأ هذا التاريخ ولا يعرفه وانما يعـــرف فقط ان بريطانيا نظمت الماليـــة حتى أصابتها أزمة كاسحة عام ١٩٠٧ استمرت سنوات وسادتها الامية وأصبح نصيب الفـــلاح ثلاثة أو أربعة أقراص .

ونسى سعد لفرط حبه لكرومر عدو الوطنية المصرية والفــلاح المصرى والاسلام باعترافه المتكرر فى كتبه التى لم يقرأها سعد والا لما فقد وعيــه واعتبر طرد كرومر وسقوطه ضربة فوق رأسه وألما خافقا فى قلبه وضيقا فى صدره ، هذه هى الوقائع الصحيحة البعيدة عن التحيز لترسم بأمانة التاريخ

المواقف التى تحولت اليها الصورة فى مصر مرحلة بعد مرحلة وذلك بعيدا عن التحيز الذى ينتج عن القرابة أو الولاء الشخصى لهذا أو ذاك وقد وضح النفوذ الاجنبى فى بناء القـــادة الذين قدمهم على المنصة السياسية وأعد لهم الوسائل التى مكنت لهم وسائل الظهور والتبريز والولاء .

ولكن الحقائق مهما اختفت وغلب عليها التمويه حينا فأنهـــا سرعان ما تنكشف وتدلى العناصر المشتركة بوجهات نظرها التى خفيت حينا ثم شاء الله تبارك وتعالى ان تستعلن .

● ● ●

الباب السادس

طه حسين بعد مائة عام

أولا — قصة كتاب مصادر :

كتاب الشعر الجاهلى لطه حسين أنكر فيه ما روى من الشعر الجاهلى لانه حسبما يعتقد لا يمثل الحياة الدينية والعقلية للعرب الجاهليين وقد جره البحث الى انكار قصة ابراهيم واسماعيل وغير ذلك مما اثار عليه الناس . حصر محمد نور رئيس نيابة مصر التحقيق فى أربعة أمور :

(أولا) : أنه كذب القرآن فى أخبـــاره عن ابراهيم واسماعيل فقال فى ص ٢٦ (للتوراة أن تحدثنا عن ابراهيم واسماعيل وللقرآن أن يحدثنا عنهم أيضـــا ولكن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لاثبات وجودهما التاريخى فضلا عن اثبات القصة التى تحدثنا بهجرة اسماعيل بن ابراهيم الى مكة ونشأة العـــرب المستعربة فيها ونحن مضطرون ان نرى فى هذه نوعا من الحيلة فى اثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة وبين الاســـلام واليهودية ، والقرآن والتوراة من جهة أخرى فهى حديثة العهد ظهرت قبيل الاسلام واستغلها الاســـلام لسبب دينى وسياسى أيضا فيستطيع التاريخ الادبى واللغوى الا يحفل بها عند ما يريد ان يتعرف أصل العربية ونستطيع أن نقول : أن الصلة بين اللغة العربية الفصحى التى كانت تتكلمها القحطانية فى اليمن كالصلة بين اللغة العربية وأى لغة أخرى من اللغات السامية .

وان قصة العاربة والمستعربة وتعلم اسماعيل العربية من (جرهم) كل ذلك أحاديث أساطير لا خطر له ولا غناء فيه » .

وهذا الذى قرره الدكتور طه حسين سبق أن ورد بنصه وبحرفه فى كتاب (مقالة فى الاسلام) لمن يسمى هاشم العربى من المبشرين المسيحيين .

ثانيا : انكر الدكتور طه حسين القراءات السبع المجمع عليها فزعم انها ليست منزلة من الله تبارك وتعالى وان العرب قرأتها كما استطاعت لا كما أوحى الله بها الى نبيه .

ثالثا : انه طعن فى نسب النبى صلى الله عليه وسلم

فقال فى ص ٧٢ (ونوع آخر من تأثير الدين فى انتحال الشعر واضافته الى الجاهليين وهو ما يتصل بتعظيم شأن النبى من ناحية أسرته ونسبه فى قريش فلأمر ما أقتنع الناس بأن النبى يجب أن يكون صفوة بنى هاشم وأن يكون بنو هاشم صفوة نبى عبد مناف وأن يكون بنى عبد مناف صفوة بنى قصى وان تكون قصى صفوة قريش وقريش صفوة مضر ومضر صفوة عدنان وعدنان صفوة العرب والعرب صفوة الانسانية كلها .

رابعا : أنه انكر أن للاسلام أولية فى بلاد العــرب وأنه دين ابراهيم فقال فى ص ٨١ ما يأتى .

(وشاعت فى العرب أثناء ظهور الاســلام وبعده فكرة أن الاســلام يجدد دين ابراهيم ومن هنا أخذوا يعتقدون أن دين ابراهيم كان دين العرب فى عصر من العصور ثم أعرضت عنه لما أضلها المضلون وانصرفت الى عبادة الاوثان) .

يقول الدكتور المستشار محمد رشدى حمادى فى كتابه (لكى تكون من قادة الفكر) : وكتاب الشعر الجاهلى استمده فى معظم أصوله وخاصــة الطعن على القرآن والنبى العربى دون عقل منه أو تفكير من كتاب (الشعر العربى قبل الاسلام) للمستشرقين الالمان والمطبــوع فى باريس ١٨٨٠ م والكتاب الاخر ســالف الذكر .

وما وقع من الدكتور طه بنشر كتــابه هذا يتحقق به جريمة الدعوى على الدين الاســلامى المنصوص عليها فى المادة ١٦١ من قانون العقوبات ولم تتعرض النيابة لمسألة اعتقاده كمسلم .

فضلا عن أن كتابه لم يتناوله الناس باختيارهم ولكنه كتاب اجبارى كان يلقى على طلبة كلية الاداب فهو قد أساء الى الدين والى العلم معــا وما كان يصح بعد ذلك أن يؤتمن الدكتور طه على تربية عقول النــاشئين وكان لابد أن يحــاكم ولكن الاستعمار تدخل فحفظت الدعوى العمومية .

وفى السنة التالية لطبع كتاب (الشعر الجاهلى) اخرجت المطــابع عشرات الكتب والرسائل فى الرد عليه ودحض آرائه .

اظهرها كتاب (تحت راية القرآن) لمصطفى صادق الرافعى والشهاب الراصد ونقض الشعر الجاهلى للاستاذ محمد الخضر حسين والنقد التحليلى
لوجدى ونقض الشعر الجاهلى للاستاذ محمد الخضر حسين والنقد التحليلى لكتاب فى الادب الجاهلى للاستاذ محمد القمراوى مع مقدمة طويلة للامير شكيب أرســـلان .

الذى قال : لم ينفرد طه حسين بانتحال الجديد ولكنه أول من اجترأ على الادب العربى بالمسخ والتكلف وقال فيه بالرأى الاحمق واداره على الوهم البعيد وتناوله من حيث يأخذه علما ليتركه جهـــلا وهو يحسب أنه أخذه جهلا وتركه علما ثم كان أول من استعمل الركاكة فى أسـلوب التكرار كأنه يمضغ الكلام مضغا فنزل به الى أحط منـــازله وابتلى العـــربية فيه بالمكروه .

ومن أقبح ما فى كتاب طه حسين أنه يعلن فى مقدمته تجرده من دينـــه عند البحث ، يريد أن يأخذ النشىء بذلك اتباعا لمذهب ديكارت الفلسفى الذى يقضى على الباحث بالتجرد من كل شىء عندما يبحث عن الحقيقة .

وقالت لجنة الازهر فى كتاب الشعر الجاهلى : الكتاب وضع فى ظاهرة لانكار الشعر الجاهلى ولكن المتأمل قليلا يجده دعامة من دعائم الكفر وشمولا نهدم الاديان وكأنه ما وضع الا ليأتى عليها من أصولها .

وقد اخترع طه حسين دراسة اللهجات فى كلية الاداب وقال بأنه يجب أن تحرر اللغة العربية كتابة وفق النطق بكلماتها فيجب مثلا أن يكتب لفظ (طه) حسب النطق بها (طاها) ومعنى هذا ان القرآن الكريم يحرر فى كل قطـــر عربى باللهجـــة المتـــداولة فى تلك البقـــاع فيـــذوب القـــرآن بين اللهجات وتذوب اللغة العربية .

وأخذ الدكتور طه يغالط السذج من الناس بالقول بأن اللغات الاجنبيـــة يطابق النطق فيها الكتابة وقد ووجه بأن اللغة الفرنسية أكثر من ٩٠ فى المائة من الفاظها لا ينطق منها الا ثلثى الكلمة .

ويرتفع الدكتور طه بالفكر اليونانى الى درجة التألية وينتقص الفـــكر العـــربى الاســـلامى فى كل شىء فهو الشعوبى الاول فى القرن العشرين ، ولا يجعل للعرب أية قيمة حضـــارية حتى فى البيـــان فيقول فى آخر مقالة

(تمهيد فى البيان العربى من الجاحظ الى عبد القاهر) فى مقدمة نقد النثر لقدامه : ولعلنا نكون قد أوضحنا بما فيه الكفاية ان البيان العربى كان فى جميع أطواره وثيق الصلة بالفلسفة اليونانية أولا وبالبيان اليونانى أخيرا وإذن لا يكون أرسطو المعلم الاول للمسلمين فى الفلسفة وحدها ولكنه الى جانب ذلك معلمهم الاول فى علم البيان » .

وطبعا هذا الكلام مردود وقد أثبت الجاحظ فى كتابه (البيان والتبيين) ان البيان العربى مصدره الجزيرة العربية وانه أعظم تعبيرا وبلاغة من أى بيان آخر .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (انى لا أخاف على أمتى مؤمنا ولا مشركا أما المؤمن فيمنعه ايمانه وأما المشرك فيقمعه الله بشركه ولكنى أخاف عليكم كل منافق الجنان عالم اللسان يقول ما تعرفون ويفعل ما تنكرون .

عن كتاب (لكى تكون من قادة الفكر للمستشار محمد رشدى حمادى)

(الشك الفلسفى)

ومن تلاميذ العميد (الدكتور يوسف خليف) فهل استطاع أن يتجاهل أخطاء أستاذه أو يتجاوز الاتهامات الموجهة اليه ، لقد أقر الدكتور يوسف خليف تأثر طه حسين بنظرية الشك الفلسفى وتبعيته للثلاثة (تين وسانت بيف، وبرونتير) وقال أنهم وضعوا مناهج علمية لدراسة الأدب متأثرة بمناهج دراسة العلوم الطبيعية (وبذلك حدد الخطأ الذى وقع فيه طه حسين نتيجة التبعية للفكر الغربى وهو تطبيق مناهج العلوم الطبيعية والمادية على الانسان) ولما سأل هل يجوز للتلميذ أن يقف من أستاذه ناقدا ؟

قال : انى انطلق فى نظرتى فى هذا النقد من حبى لأستاذى وهو يأخذ على طه حسين أنه وضع النظرية ولم يستكمل تطبيقها على الأدب العربى .

وأشار الدكتور خليف الى أن طه حسين ظلم المتنبى حين قال أنه أحب أبا العلاء فأنصفه بقدر ما ظلم المتنبى وقسا عليه (ولم يكمل الدكتور خليف القصة فلماذا ظلم طه حسين المتنبى ولماذا أنصف أبا العلاء : لأن المتنبى حمل لواء الكلمة المجاهدة فى حروب سيف الدولة مع الروم ، ولأن أبا العلاء

حمل لواء الفلسفة اليونانية فأنكر ما أنكر وشكك وحمل لواء السخرية بكثير من القيم .

وقال الدكتور خليف أنه تأثر بطه حسين فى ثلاث :

أولا — فى نظرية الشكك الفلسفى .

ثانيا — فى المنهج الاجتماعى الذى نرده الى الفرنسى تين .

ثالثا — تقسيم الشعر الجاهلى الى مدارس .

ولكنه عاد فقال : انه لم يقبل منهج طه حسين فى حقيقة الانتحال وانه دعا الى اصطناع منهج علماء الحديث النبوى فى حسم قضية الشكك والانتحال فى الشعر الجاهلى ومعروف أن علماء الحديث اعتمدوا فى منهجهم على مناقشة السند والمتن .

ونصل الى قمة الموقف كله حين يجيب الدكتور يوسف خليف على سؤال الكاتبة الصحفية سلوى العنانى التى أجرت معه هذا الحديث الذى نشر فى الاهرام ١٩٨٩/٦/٢٣ م حين قالت :

هل كان طه حسين موضوعيا فى دراسته للشعر الجاهلى وفى آرائه فيما يتعلق بقضية الانتحال وأجاب الدكتور يوسف خليف بقوله .

الأمر الذى لا شك فيه أن الدكتور طه حسين كان مغاليا وكان على قدر كبير من المبالغة والتطرف فى نظريته وأكمل بقوله : فى ظنى أن هذه المبالغة ترجع أساسا الى أن طه حسين كان يهدف الى هز الثقة فيما استقر فى أذهان الباحثين عن الشعر الجاهلى وزعزعة الاطمئنان الذى كان يسيطر على الدراسات الأدبية لهذا العصر ، فالموقف موقف ريادة ثورية تريد أن تحطم الاوهام القديمة التى استقرت فى أذهان الباحثين من قبل .

وتكفى هذه العبارات فى الكشف عن الحقيقة والهدف وعن خلفيات عمل طه حسين كله ، فقد كان طه حسين يريد أن يزعزع الاطمئنان وهز الثقة فيما استقر فى أذهان الباحثين عن الشعر الجاهلى .

والواقع أنه كان يريد ذلك بالنسبة للفكر الاسلامى القديم كله لأن الشعر الجاهلى فى هذا الفكر الاسلامى يعد بمثابة القلب حيث كان هو المرجع الاساسى والاول فى فهم عبارة القرآن الكريم وفى تفسيره فاذا انهار

هذا الاساس أو هدمه الشك فيه فقد انهـــار جزء كبير من مصداقية فهم القرآن ومن صحة العلوم والاصول والمواضعات التى قامت عليهـــا علوم التفسير والفقه والاصول جميعا .

ولقد عرف المستشرقون خطر هذه القضية : قضية فهم القـــرآن عن طريق الشعر الجاهلى القديم وقد اشار اليها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى نص صريح كاشف فكان من هنا تركيز الاستشراق على هدم هذا العامود القوى ومن هنا كان تكليف طه حسين بذلك من أكبر الاعمال التى وكلت اليه خاصة وانه هو أول من أدخل فى الفكر الاســـلامى والادب العربى نظرية الشك الفلسفى .

وما معنى هز القيم القديمة اذا لم تكن هى قيم الاســـلام ومفـــاهيم القرآن والسنة وما خلفه علماء المسلمين .

● ● ●

ثالثا ـــ قصة كتـــاب الايام :

طه حسين أول من انكر شخصية عبد الله بن سبأ

تحدث السيد مرتضى الرضوى فى كتابه مع رجال الفكر فى القـــاهرة عن لقاء له مع الدكتور طه حسين قال ولما أهديت له كتبى ووصلت الى ذكر كتاب عبد الله بن سبأ سألنى الدكتور : هل قرأت (الفتنة الكبرى) فأجبته لا ، فقال : انى نصرتكم فى عبد الله بن سبأ وقلت فى كتابى (الفتنة الكبرى) ان عبد الله بن سبأ شخصية خيالية أوجدها خصوم الشيعة للطعن بهم ، فليس هناك حاجة اسمها عبد الله بن سبأ ، لم يخلق الله شيئا اسمه عبد الله ابن سبأ .

فأجبت : هذا هو رأيك يا استاذ .

واليك نص ما قاله الدكتور طه حسين فى كتابه الفتنة الكبرى (واقل ما يدل عليه اعراض المؤرخين عن السبئية وعن ابن السوداء فى حرب صفين أن أمر السبئية وصاحبهم ابن السوداء انما كان متكلفا منحولا وقد اخترع بآخرة حين كان الجدال بين الشيعة وغيرهم من الفرق الاسلامية .

أراد خصوم الشيعة ان يدخلوا فى أصول هذا المذهب عنصرا يهوديا امعانا فى الكيد لهم والنيل منهم ولو كان أمر ابن السوداء مستندا الى أساس من الحق والتاريخ الصحيح لكان من الطبيعى أن يظهر أثره وكيده فى هذه الحروب المعقدة والمعضلة التى كانت بصفين ولكان من الطبيعى أن يظهر أثره حين أختلف أصحاب على فى أمر الحكومة ولكان من الطبيعى بنـــوع خاص أن يظهر أثره فى تكوين هذا الحزب الجديد الذى كان يكره الصلح وينفر منه ويكفر من مال اليه أو شـــارك فيه .

ولكنا لا نرى لابن السوداء ذكرا فى أمر الخوارج فكيف يمكن تعليل هذا الاهمال أو كيف يمكن ان يقلل غياب ابن سبأ عن وقعة صفين وعن نشأة حزب المحكمة .

أما أنا فلا أعلل الامرين الا بعلة واحدة وهى أن ابن السوداء لم يكن الا وهما وان وجد بالفعل فلم يكن ذا خطر كالذى صوره المؤرخون وصوروا نشـــاطه فى أيام عثمان وفى اليوم الاول من خلافة على ، وانما هو شخص ادخره خصوم الشيعة للشيعة وحدهم ولم يدخروه للخوارج .. الخ » .

ويقول السيد مرتضى الرضوى : أن طه حسين أول من نبه على هذا وذكره فى كتابه وعلى اثر صدور هذا الكتاب أخذ السيد العسكرى يبحث هذا الموضوع بحثا مطولا واخرج نصوصا ونشر الجـــزء الاول منه بعنـــوان (المدخل) وطبع فى النجف الاشرف (العراق ١٩٥٥) وأضاف عليه بعض التحقيق والتلقين .

وعرض المؤلف مقاله على الاستاذ عبد الهادى مسعود الذى كتب له تعليقا يقول فيه ، اطلعت على ما كتبه الاستاذ مرتضى الرضوى عن محادثاته مع الدكتور طه ولم أجد فيها ما يغنى عن بيان شخصية طه حسين فلقد لفت نظرى عن هذا الرجل اشياء وليس اقلها ما طالعته فى كتابه الايام فى محاولة النيل من القرآن الكريم والطعن فيه .

لفت نظرى فى حياته الكثير مما قد لا يكون المجـــال متسعا له كله ، فذكر فى الجزء الاول من كتاب الايام وهو يتكلم عن نفسه (لانه أزهرى قد قرأ العلم وحفظ الالفية والجوهرة والخريدة) فلم لا يبتهج الصبى حين يرى أنه سيقرأ من العلم ما قرأ أخوه وانه سيمتاز على رفاقه واترابه بحفظ الالفية والجوهرة والخريدة ، وكم كان فرحا مختالا حين غدى الى الكتاب يوم السبت

وفى يده نسخة من الألفية ، لقد رفعته هذه النسخة درجات وان كانت هذه النسخة ضئيلة قذرة سيئة الجلد ولكنها على ضآلتها وقذارتها كانت تعدل عنده خمسين مصحفا من هذه المصاحف التى يحملها أترابه .

المصحف لقد حفظ ما فيه فما أفاد من حفظه شيئـا وكثير من الشبان يحفظونه فلا يحفل بهم احـد ولا ينتخبون خلفـاء يوم المولد النبوى ولكن الالفية ، وما أدراك ما الالفية ، وحسبك أن سيدنا لا يحفظ منها حرفا وحسبك أن العريف لا يحسن أن يقرأ الابيات الاولى منهـا .

والالفية شعر وليس فى المصحف شعر .

والحق انه ابتهج بهذا البيت :

قال محمـد هـو ابن مالك

أحمـد ربـى الله خير مالك

ابتهاجا لم يشعر بشىء مثله أمام أى سورة من سور القرآن .

(انتهى كلام طه حسين فى كتاب الايام ص ٧١)

وكلامه هذا يدل على خبىء .

كلامه يدل على عدم ايمانه بالقـرآن وذلك برغم ادعائه الدفاع عن القرآن .

وقد غلف الدكتور كلماته هذه بطريقة غاية فى الدهاء والذكاء ، وليس الدهاء عن شخصيته غريبا بل أن الدهاء بالفعل عنصر من تكوينه .

واذا كان طه حسين قد صاغ عباراته هذه على انهـا مشـاعر الصبا الا انه عبر عن رأيه هذا وهو فى كامل وعيه وبعد أن صـار كاتبا شهيرا وحسبنا أنه اختزن مفصل تلك الوقائع فى عقله منذ صباه البـاكر حتى شرع فى تحرير كتابه فدونها على هذا الوجه فى هذا الكتيب الذى يعتبره مؤلفه كما يعتبره النقاد نوعا من الترجمة الذاتية لتلك الفترة المبكرة من حياة طه حسين الذى اكتسبه شهرة واسعة حتى وصل الى منصب وزير التربية والتعليم وهو منصب خطير يجب التحرى عن صاحبه أصلا وفصـلا ، وعقيدة ونسبـا واتجاها وفكرا .

وقد طبع كتاب الايام اربع مرات وفيه هذا الكلام لم يحاول هو أن يغير

فيه او يبدل منه ولم يلتفت احد الى ان فى هذه العبارات سب مباشر فى المصحف الشريف .

هذه الكلمات تعبر عما فى نفس قائلها من كراهيته للقرآن الكريم ، وتنزيل من شأنه لا يغفر ، ذلك أنه الف فى الاسلام كتبا فان جرجى زيدان الف عشرات من الكتب فى صيغة قصصية عن الاسلام كلها مشحونة بالدس على التاريخ الاسلامى وعلى العقيدة والاسلام .

ولعل هذا الابتهاج الذى يشعر به طه حسين بالالفية لم يشعر بمثله امام اى سورة من سور القرآن .

على حد قوله قد كان مصدر ابتهاج حقيقى لدى كل العاملين والموجهين للصحافة فى مصر حينذاك فظلوا يبثون ذات الفكرة ويعملون على خط متواز معها لان حرب اعداء الاسلام كانت اغلبها بالكتاب الذى ينشر الالحاد والمجلة التى تدعم الفجور .

وقال الاستاذ عبد الهادى مسعود : أن طه حسين كان رئيسا لتحرير مجلة الكاتب المصرى التى اصدرتها الجالية اليهودية فى مصر وعين عددا من الاساتذة الاجانب فى كلية الاداب استوردهم وبعضهم يهود وكلهم كانوا يحاربون الاسلام او يشككون فيه ثم أنه تبنى اصدار قرار بتعيين الحاخام اليهودى حايم ناحوم افندى حينذاك عضوا فى المجتمع اللغوى ليكون عينا على المفكرين ورجال اللغة وليكون موجها فى بعض المجالات العلمية فاذا اضفنا الى ذلك أن اباه جاء الى صعيد مصر من بلد غير معلوم من المغرب وكان يعمل وزانا فى شركة يهودية هى شركة السكر كان علينا أن نلفت الانظار الى وجوب الالمام بكل ما يحيط برجال قيادتنا .

طبق الاصل (من كتاب مع رجال الفكر فى القاهرة) .

● ● ●

(٢)

بعد مائة عام : ماذا بقى من طه حسين : لا شىء

فى مناسبة الاحتفال بمرور مائة عام على مولد عميد الادب العربى كان السؤال فى ندوة الاعتصام عن الاثار التى تركها الدكتور طه حسين فى آفاق الفكر الاسلامى والادب العربى وما هو موقف الفكر الاســلامى فى عصر الصحوة من النظريات والافكار التى طرحها خلال اكثر من خمسين عاما . ونحن نقول انه بالرغم من كل ما كتبه التغريبيون فى هذه المناسبة فانه لم يتحقق لهم أى نصر حقيقى ، وننتهز هذه الفرصة فنؤكد اننا فى خلال البحثين اللذين صدرا عن دار الاعتصام تحت عنوان (طه حسين : حياته وفكره فى ميزان الاسلام) و (محاكمة فكر طه حسين) لم ترد مطلقا كلمة يمكن أن توصف بأنها اتهام بالكفر أو بالالحاد ، وانما غيرنا هو الذى قال هذا .

وانما قلنا أن كل ما فى الموضوع أن الامانة بالنسبة للاجيـــال الجديدة تقتضينـــا أن نضع أمامها حقـــائق الاســـلام فى مواجهة الشبهـــات التى ســـاقها العميد ، أما غير ذلك من شـــأنه شخصيا فهذا أمر نكله الى الله تبارك وتعـــالى .

ولعل أقرب الطرق الى التعـــرف الى حقيقته انســـان ما ، هو أهله وأقرب الناس اليه والذين تتلمذوا عليه وعرفوه عن قرب وهؤلاء هم أقـــدر الناس فى تصويره والحديث عنه .

وهـــؤلاء ما زالوا يتحركون فى دائرة الثقافة وقد كتبـــوا وما زالوا شهودا ، هناك الاساتذة محمود محمد شـــاكر ، نجيب البهبيتى ، ما زالوا أحياء وهناك محمد محمد حسين ، وزكى مبارك ، ومحمد الخضيرى ، ولهم جميعا كتابات مسجلة تكشف موقف الدكتور طه حسين منهم عندما اختلفوا معه فى رأى من الاراء وما نالهم من الاضطهاد والابعاد ، الدكتور محمد محمد حسين الى بيروت ثم الى الرياض والدكتور البهبيتى الى المغرب والدكتور الخضيرى أخرج من الجامعة لانه نشر وترجم رسالة ديكارت التى تثبت أن ما جاء به طه حسين عنه ليس صحيحا . الاستاذ محمود محمد شاكر ترك الجامعة كلها وترك مصر لانه لم يستطع أن يكاشف طه حسين بأن ما يقوله فى الشعر الجاهلى هو كلام مرجليوث .

أما زكى مبارك فقد رفض الدكتور طه تجديد عقده فخرج هائما على وجهه وكتب مقاله الشهير (لو جاع أولادى لشويت طه حسين وأطعمتهم لحمه) هذه المعركة التى اطلق عليها معركة لقمة العيش والتى قال المازنى عنها : أن طه حسين الذى أعرفه قد مات أما هذا الذى يضرب اللقمة من فم أسرة بأكملها فلا أعرفه .

● ● ●

ان حديث أصدقاء طه حسين وتغيره عليهم حديث طويل ، فاذا رجعنا الى النظريات وجدنا حقائق مذهلة :

أولا : لقد كتب طه حسين كتابه (الفتنة الكبرى) فى الظرف الذى استعلى فيه المد الاسلامى بالدعوة الى تطبيق الشريعة الاسلامية وكان خلاصة ما أذاعه ان العرب لم يقبلوا منهج الاسلام وانه لم يترك أى أثر فى المجتمع الجديد وان نظامه فشل فى أواخر أيام عمر بن الخطاب واستدعى قيام هذا الصراع فى عهد عثمان فكانت هذه الاحداث علامة على أن هذا المنهج لم يعد صالحا وهى دعوى باطلة مدعاة تكذبها عشرات المواقف والاحداث ولكنها كانت فى وقتها ترمى الى هدم الصيحة المنطلقة بالدعوة الى تطبيق الشريعة الاسلامية والكشف عن صلاحيتها وعطائها الذى أعترف به اساطين رجال القانون فى الغرب فى عديد من مؤتمراتهم وطوال أكثر من أربعين عاما متوالية .

ثانيا : مما يذهب اليه البعض من مآثر طه حسين أنه أدخل هذا المنهج الديكارتى الى ميدان البحث فى التراث والتاريخ ، ولقد ثبت بما لا يدع مجالا للشك أن هذا المنهج كان معروفا ومعتمدا لدى قدماء المفكرين العرب والمسلمين من رواة ومحدثين وفقهاء وفلاسفة ومؤرخين ولكن بمفهوم آخر غير ما ذهب اليه طه حسين ، ولقد ثبت أيضا أن (ديكارت) قرأ رسالة (المنقذ من الضلال) للامام الغزالى وأشار امام بعض النصوص عبارة (تنقل الى بحثنا مقال عن المنهج) .

ولقد تعرف بعض كتابنا الى هذا النص وقرأوه فى مكتبة ديكارت فى جامعة السربون وكان معهم المؤرخ الكبير عثمان الكعاك الذى روى لى هذه الواقعة ، والتى سجلها الدكتور زقزوق فى كتابه عن الغزالى وديكارت .

فما معنى هذا ، معناه أن طه حسين لم يكن قد اطلع على الفكر الاسلامى أو أحاط بملامحه الاساسية والا ما وقع فى هذا المأزق الخطير الذى يؤكد على (عدم الملمه) بابعاد الفكر الاسلامى ولو أنه حتى كان قد اطلع على بعض ما اطلع عليه ديكارت الغربى وهى رسالة (المنقذ من الضلال) ما كان قد وقع فى هذا الادعاء الباطل الذى استعلى به وهو ليس على الحق ، بأنه قدم شيئا لم يكن يعرفه المسلمون ولو درى لعرف أن كل من قرأ بعض جوانب الفكر الاسلامى يعرف ذلك وقد أكد ذلك الدكتور الخضيرى حين ترجم (مقال عن المنهج) لديكارت وطبعه السيد محب الدين الخطيب ليثبت أن طه حسين (لم يكن صادقا) فى أمرين :

١ — فيما نقله عن ديكارت ٢ — وفى ادعائه بأن المسلمين لم يكونوا يعرفون هذا المنهج .

ولقد انبرى طه حسين يقول لعلماء الازهر : هذا علم لا تعرفونه فرد عليه الدكتور محمد أحمد الغمراوى قائلا : نحن نعرفه وانت لم تقل الحقيقة فما هكذا عرض ديكارت لفكرة الشك حين جعلها مقدمة للايمان .

ويصدق المستشار عبد الحليم الجندى فى هذا الموضوع : اذ يقول ان طه حسين هو أول من ادخل فكرة الشك الفلسفى الى الادب العربى والفكر الاسلامى وغذاها حياته كلها .

وقد أشار أحد الباحثين الى أن المستشرقين قالوا لطه حين أن منهج ديكارت يغيظ الازهريين وأن أسلوب الشك هو مصدر الشهرة واحداث الدوى .

• • •

« ماذا قالت محطة لندن عن طه حسين »

قالت محطة لندن عن طه حسين صباح يوم ٢٩ يوليو ١٩٨٩ :

١ — توسم فيه المستشرقون شـــابا ناقما على الازهر فأوقدوا فيه شعلة الحقد على الازهر ثم على الاســـلام نفســـه .

٢ — تقدم لامتحان الشهادة العالمية وسئل ونوقش فأخفق اخفـــاقا شديدا ومن ذلك الوقت أخذ يحارب الازهر .

٣ — وثقافته فى العلوم الاسلامية قاصرة لانه لم يكن يعنى بتكوين فكرة كاملة عن الاســـلام ولم يقبل على دروس الفقه والعقـــائد .

٤ — كان ولائه السياسى متلونا بين حزب الامة والحزب الوطنى .

٥ — شن حملة على المنفلوطى اتضح فيما بعد أنها منقولة من كتابات صـــادق عنبر .

● ● ●

ثالثا : قال الدكتور محمـــد حسين هيكل فى حديثـــه عن كتاب (على هامش السيرة) أنه يدعو الى مثيولوجية اسلامية لافســـاد العقول والقلوب من سواد الشعب والتشكيك بين المستنيرين ودفع الريبة الى نفوسهم فى شأن الاسلام ونبيه وقد كانت هى غاية الاساطير التى وضعت فى الاديان الاخرى، ومن أجل ذلك ارتفعت صيحة المصلحين الدينيين فى جميع العصور بتطهير العقائد من تلك الاوهام » .

وهذه شهادة من زميل دربه ورفيق صباه تكشف عن الهدف المبيت الخطير .

رابعا : اذا نظرنا الى الشبهات التى أثارها نجدها قد تحطمت واحدة بعد الاخرى .

١ — تحطمت نظرية بشرية القـــرآن التى فرضهـــا على طلبة كلية الاداب حين قال لهم انتقدوا القرآن كنقد اى نص بلاغى وحين قال أن لغـــة القرآن المكى جافة ولغة القرآن المدنى مذللة حين اتصل النبى باليهود .

٢ — تحطمت نظريته فى (أن اللغة العربية هى لغتنا ونحن احرار فيها ومن حقنـــا أن نتصرف فيها) فقد تكشف خطأ هذه الدعوى لان العربية ان كانت لغة العرب قوميا فهى لغة الثقافة والعقيدة لالف مليون مســـلم .

٣ — انكر شخصية عبد الله بن سبأ اليهودى صاحب المؤامرة الخطيرة التى انتهت بمقتل خليفة المسلمين عثمان عليه الســـلام ولكن تبين انه لم يكن قد اعتمد على مصادر سليمة وكان ذلك خدمة لبعض الاهداف .

٤ — اتهم أبو الطيب المتنبى بأنه لقيط وقد كذبت الايام هذا الاتهام .

٥ — حاول ان يسمى مفاهيم الفلسفة علما وقال ان الدين لم ينزل من السماء وانما خرج من الارض كما خرجت الجماعة نفسها وقد اتضح أن هذه مقولة اليهودى دوركايم وكذبها علماء التجريب الذين اعترفوا بوجود الله تبارك وتعـــالى .

٦ — أحيا (رسائل اخوان الصفا) ودعا الى اعتبار كتاب الاغانى والف ليلة وليلة مرجعا للبحث الاجتماعى وأدعى أن القرن الثانى الهجرى كان عصر شـــك ومجون .

وقد انهارت كل هذه المقولات التى بنى عليها طه حسين قاعدة فكره ومنهجه الادبى والاجتمـــاعى وكشفت حركة اليقظة الاســـلامية فســـاد مقولاته وخاصة مقولته الخطيرة التى دعا فيها الى قبول الحضارة الغربية (خيرها وشرها وحلوها ومرها وما يحمد منها وما يعـــاب) .

وبالجملة فان طه حسين بعد مائة عام لا يمثل الا صـــورة من أهواء التغريب والغزو الثقـــافى .

● ● ●

(٣)

ما هى العناصر الأجنبية فى فكر طه حسين

السؤال الذى وجهته جريدة المسلمون الى المؤلف وهذه اجابته :

طلبت الى جريدة المسلمون أن اكتب بحثا تحت هذا العنوان فاستخرت الله تبارك وتعالى لهذا الامر ، ايمانا منى بأن وجهة الفكر الذى قدمه الدكتور طه حسين جملة كان اجنبيا اساسا فى مصدره وغايته ، وانه ما من مجال تناوله الدكتور عميد الادب الا كان يستمد مصادره ووجهته من النظريات الغربية فى محاولة لاخضاع الفكر الاسلامى والادب العربى لهذه المذاهب التى تروج فى بيئات الغرب والتى كان قد كلف نفسه بأن يقدمها ويدعو لها خلال أكثر من خمسين عاما ويفرضها فى المناهج الجامعية والمدرسية .

وما من نظرية حاول الدكتور طه حسين أن يقدمها الا كانت ترمى الى احدى غاية من الغايات التى تحاول أن تفرض وجهة النظر الغربية واخراج الفكر الاسلامى من مفاهيمه وقيمه وأحتوائه فى دائرة الفكر العلمانى الوافد .

فاذا نظرنا الى دعوته الى (الفرعونية) واصراره على ان مصر فرعونية فان هذا كان فى اطار الدعوة الاستعمارية الى هدم الوحدة الاسلامية الجامعة ، كذلك فان دعوته الى أن مصر عقلية غربية فان ذلك كان يعنى الترويج لنظرية البحر الابيض المتوسط والحلف اللاتينى الذى روجت له بعض دول أوربا لاحتواء مصر والبلاد العربية فضلا عن ادعائه ان الاسلام ليس الا نظاما روحيا على النحو الذى كان يدعو اليه على عبد الرازق ويعينه عليه الدكتور طه حسين وان مقولته ان الاسلام لم يطبق الا فى عهد ابى بكر وعمر انما هى مقولة ترمى الى هدم الدعوة الى صلاحية الاسلام كنظام فى العصر الحديث وهى من هنا تخدم أهداف الاستعمار .

وهكذا لا تكاد تجد الدكتور طه حسين عميد الادب يطرح فكرة ما الا ومن وراءها هدف واضح أو خفى من أهداف النفوذ الاجنبى ودعوة الى تثبيته وتمكينه .

وتتركز العناصر الاجنبية فى فكر طه حسين وكتاباته على نحو يجعلها تستوعب التيارات المختلفة جميعهـــا .

أولا ــ ففى مجال الادب :

نجد الدكتور طه حسين يحاول اخضاع الادب العربى لنظريات الادب الفرنسى (تين وسانت بيف وبرونتير) وهى نظريات تحـــاكم الانســـان على أنه حيوان وكأن كيانه الانسانى مادى تماما وانه اثر من آثار البيئة التى نشأ فيهـــا وان أخلاقه وعاداته نتيجة مؤثرات الأقليم والزمن وهو مفهوم غربى قاصر خاضع للفلسفة المادية متجاهل للعناصر الحقيقية التى يتكون منهـــا الكيان الانسانى وخاصة ما يتصل بالعاطفة والوجدان والروح والمعنويات واثارها البليغة على تصرفات الانسان .

ويرى أن الدين نشـــأ من الارض كما نشأت الجمـــاعة نفسهـــا ولم ينزل من السماء وهو فى هذا خاضع للمدرسة الاجماعية التى يقودها الفلاسفة اليهود : ليفى بريل ودوركايم .

ثانيا ــ فى مجال الفكر اليهودى :

ويذهب مع الفكر اليهودى مذهبه فى الموقف من عرب الجزيرة فيدعى أن اليهود هم الذين حضروا العرب واهدوهم بالثقـــافة جريا وراء نظريات اليهود بينما كانت الحقيقة عكس ذلك تماما .

وقد كشف الدكتور فؤاد حسنين هذه المغالطة وابان ان الفضل الحقيقى كان للعرب على اليهود الذين كانوا قد التجئوا الى الجزيرة العربية فرارا من عسف أعوانهم وان اليهود حين نزلوا الجزيرة العربية كانت لهم لغـــة ركيكة خليط من العبرانية والكلدانية واليونانية وان اليهود هم الذين أخذوا من العرب فن الكلام والنطق الصحيح وفصاحة التعبير .

وقد عمد طه حسين الى اتاحة الفرصة لليهودى اسرائيل ولفنسون أن يتقـــدم باطروحة الى كلية الاداب عن اليهود فى جزيرة العرب حاول فيهـــا اذاعة مجموعة من الاكاذيب التى رددها طه حسين فى محاضراته فى مدارس الاسرائيليين .

فاذا أضفنا الى ذلك توليه رئاسة تحرير مجلة الكاتب العربى التى أصدرها بعض أثرياء اليهود فى مصر عرفنـــا الى أى مدى كان طه حسين يستمد مصادر فكره وكتاباته .

ثالثا — الفكر المسيحى :

ولقد حاول الاب قلته أن يجعل فكر طه حسين فكراً فرنسيا خالصــا ولكن الواقع يثبت غير ذلك ، فقــد ارتبط فكر طه حسين بالفكر المسيحى الكنسى ، كمــا ارتبط بالفكر الماركسى الشيــوعى ، كمــا ارتبط بالفــكر الصهيونى ، ومن ناحية اخرى ركز على الفكر اليونانى الهلينى وحرص على أن يفرض على طلاب كليــة الاداب دراســة اللغتين اليونانية واللاتينية ، وما يتصل بهما من اســاطير فى محاولة لفرض هذا الفكر على اللغة العربية والادب العربى ، وكان كتابه (قادة الفكر) جامعا لفلاسفة اليونان باعتبارهم قادة البشرية دون أن يضع معهم اى مفكر عربى أو مسلم أو أى مفكر من الشرق .

رابعا — احياء الاسطورة :

وفى سبيل خلق ميثولوجيا عربية على النحو الذى عرفه المسيحيون فى الغرب حرص طه حسين على كتابة (على هامش السيرة) باحياء الاساطير التى حرر العلماء المسلمون السيرة منها باعادتها مرة اخرى لخلق اسلوب من الاساطير مرتبط باعز ما يملك المسلمون وهو سيرة نبيهم .

ولقد حرص الماركسيون فى مصر عندما أصدروا مجلتهم (الفــد) أن يوجهوا خطابا مفتوحا لطه حسين بوصفه عميدهم وأنه هو الذى فتح الطريق أمام الفكر الماركسى بكتاباته وخاصة كتابه (المعذبون فى الارض) .

خامسا — الفكر الغربى جملة ؟

ويتجلى ولاء طه حسين للفكر الغربى جملة فى دعوته التى حملها كتابه (مستقبل الثقافة) الى (ان ياخذ المسلمون والعرب حضارة الغرب خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، وما يحمد منها وما يعاب) .

سادسا — نظرية الشــك :

ولقد كانت نظرية الشك الفلسفى هى اكبر أعمال طه حسين التى وجه لها أعظم جهوده بهدف هدم فكرة اليقين الاســلامى وفى أحدث كتاب صــدر للاستاذ محمود محمد شــاكر يقــول أن طه حسين عام ١٩٢٩ حين القى محاضراته فى (الشعر الجاهلى) زعم أن للمذهب منهجــا يدرس به تراث

العرب كله وسمى هذا المذهب (مذهب الشك) فكان فيما قاله عن مذهبه . **ان هذا المذهب سوف (يقلب العلم القديم راسا على عقب واخشى أن لم يمح اكثره أن يمحو منه شيئا كثيرا ثم قال (والنتائج اللازمة لهذا المذهب الذى يذهبه المجددون عظيمة جليلة الخطر وحسبك انهم يشكون فيما كان الناس يرونه يقينا وقد يجحدون ما اجمع الناس على انه حق لاشك فيه وليس حظ هذا المذهب منتهيا الى هذا الحد ، بل هو يجاوزه الى حدود اخرى أبعد منه مدى واعظم اثرا ، فهم قد ينتهون الى تغيير التاريخ او ما اتفق الناس على انه تاريخ وهم قد ينتهون الى الشك فى أشياء لم يكن يباح الشك فيها (فى الشعر الجاهلى ص ٦)** ومن العجيب أن يكشف طه حسين عن ولاء للفكر الغربى يصل الى غايات بعيدة وهو الرجل الذى نشأ فى رحاب تراث الاسلام فى دراسات الازهر .

أولا : فهم القرآن من أستاذه المسيحى المتعصب (كازنوفا) الى درجة أنه يرى انه اعظم خطرا مما تعلمه فى الازهر .

ثانيا : الوصول الى نظرية الشك التى كتبها الغزالى لا عن طريق تراث الاسلام بل عن طريق ديكارت الذى نقلها من كتاب (المنقذ من الضلال) .

ثالثا : حرصه على تقبل نظرية الفكر الغربى فى التوراة بوصفها كتاب ادب يجرى نقده وتشريحه ومحاولته الدعوة الى أن يستعمل هذا المنهج فى دراسة القرآن وانكار قداسته .

رابعا : تشكيكه فى قداسة الكتب الدينية حيث يدعى أن هناك تناقض بينها وبين العلم يقول : (فالدين حيث يثبت وجود الله ونبوة الانبياء يثبت أمرين لم يستطع العلم أن يثبتهما وينظر العلم الى الدين كما ينظر الى اللغة وكما ينظر الى اللباس من حيث أن هذه الاشياء كلها ظواهر اجتماعية يحدثها وجود الجماعة وتتبع الجماعة فى تطورها ، ان الدين فى ناحية والعلم فى ناحية وليس الى التقائهما من سبيل ومن زعم غير هذا فهو خادع ومخدوع)

والملاحظ أن العلم الذى يتحدث عنه طه حسين ليس هو الا الفلسفة المادية لا العلم التجريبى .

خامسا : من أفكاره الوافدة قوله : ان الانسان يستطيع أن يكون مؤمنا وكافرا فى وقت واحد ، مؤمنا بضميره وكافرا بقلبه .

سادساً : يعتبر طه حسين الفتح الاسلامى لمصر نوعا من الاستعمار ويسلكه فى خيط واحد مع الاستعمار الرومانى وغيره فيقول :

(خضع المصريون لضروب من البغى والعدوان جاءتهم من الفرس والرومان والعرب أيضا) .

سابعاً : تقبل كل شبهات الاستشراق والتبشر والترويج لها فى كتاباته

أولا : تقبل فكرة حرق العرب لمكتبة الاسكندرية .

ثانيا : القول بأن الاسلام لم يطبع حياة العرب بطابعه .

ثالثا : اخضاع تاريخ الاسلام لمنهج التفسير المادى للتاريخ .

رابعا : انكار أعظم الشخصيات خطرا على الفتنة الكبرى :
(عبد الله بن سبأ) .

خامسا : التوسع فى دراسة الفتن والخلافات واعلاء شأن القرامطة ووصفهم بأنهم أهل العدل والحرية .

سادسا : الدوران حول القرآن الكريم بمحاولة تصويره بصورة النص الادبى واخراجه من طابعه القدسى .

وهكذا نرى أن مصادر فكر طه حسين مختلفة وهى تشمل .

١ — الفكر اليونانى الهلينى .
٢ — الفكر المسيحى الكنسى .
٣ — الفكر الفرنسى .
٤ — الفكر الغربى المستعلى باللون والجنس .
٥ — الفكر الماركسى الشيوعى .
٦ — الفكر اليهودى الصهيونى المنبث فى علوم النفس والاجتماع والاخلاق ومدرسة العلوم الاجتماعية .

ويبدو واضحا تلاقى روافد الاستشراق الثلاثة (الغربى المسيحى ، الماركسى ، الصهيونى) بكتابات طه حسين وتوجهاته وبالجملة فقد جدد طه حسين أحياء فكر طفولته البشرية الوثنى كله وقد فصلنا ذلك بتوسع فى كتابنا (محاكمة فكر طه حسين) .

هذا وبالله التوفيق ،،،

(٤)

طه حسين والحركة الصهيونية

ثلاث وثائق حول رسالة جامعية قديمة

هذه ثلاث وثائق تاريخية اقدمها للقارى الكريم وله ان يحكم فى ضوئها على القضية المثارة حول علاقة الدكتور طه حسين بالصهيونية واهديها الى الدكتور مصطفى عبد الغنى .

اولا : كتاب تاريخ اليهود فى بلاد العرب فى الجاهلية وصدر الاسلام تأليف اسرائيل ولفنسون — وهو رسالة دكتوراة من جامعة القاهرة باشراف الدكتور طه حسين — ١٩٢٧ .

قال الدكتور طه فى المقدمة التى كتبها للرسالة وتصدرت الكتاب :

(الموضوع فى نفسه قيم جليل الخطر بعيد الاثر جدا فى التاريخ الادبى السياسى والدينى للامة العربية ، فليس من شك أن هذه المستعمرات اليهودية قد أثرت تأثيرا قويا فى الحياة العقلية والادبية للجاهليين من أهل الحجاز ، وليس من شك فى أن الخصومة كانت عنيفة أشد العنف بين الاسلام ويهودية هؤلاء اليهود وفى أنها قد استحالت من المحاجة والمجادلة الى حرب بالسيف انتهت باجلاء اليهود عن البلاد العربية ولم يكن تاريخ هؤلاء اليهود فى بلاد العرب قبل الاسلام معروفا على وجهه وانما هى طائفة من الاخبار والاحاديث ترويها القصص فاذا كان عالمنا الشاب (يقصد اسرائيل ولفنسون) قد وفق الى الخير فى هذا الكتاب الذى قدمه الى الجامعة المصرية ونال به شهادة الدكتوراه الذى اقدمه انا الان الى القراء سعيدا مغتبطا بتوفيقه فضاعف ذلك لانه وفق الى تحقيق أشياء كثيرة لم تكن قد حققت من قبل ، وقد وفق الى أن يبسط تاريخ اليهود فى البلاد العربية قبل الاسلام وابان ظهوره بسطا علميا أدبيا لذيذا ممتعا فى كتاب كانت اللغة العربية فى حاجة اليه فاظفرها بهذه الحاجة) .

ثانيا : جريدة الشمس عدد ٤٧٢ فى ١٩٤٣/١٢/٣١ .

قالت جريدة الشمس :

القى دكتور طه حسين محاضرة فى دار المدارس الاسرائيلية بالاسكندرية قال فيها : « عندما اجلى الرومان اليهود عن فلسطين تفرق هؤلاء فى البلاد المجاورة واستقروا فى شمال وجنوب الجزيرة العربية ولا سيما بجوار المدنية وبدأ اليهود يصبغون مضيفيهم بثقافتهم الدينية وفضائلهم حتى أصبح كثير منهم مستعدا لقبول الاسلام ولكن بجانب هذا تأثر اليهود بالعرب فأخذوا اللغة وبعض العادات وفرضوا الشعر كما يفرضه العرب ولكن الشعر اليهودى امتاز بالحث على الفضائل وانكار الذات ، وكان معظم براهينه أن الحياة وسيلة للغاية وامتاز اليهود بين اخوانهم العرب بالوفاء وطلب المثل الاعلى كما نلاحظ ذلك فى شعر السموؤل واخذ العرب عنهم فلسفتهم فى أن الحياة وسيلة لا غاية ، ولكن اختلفوا عنهم فى أن تكون الحياة للفرد ثم ظهر الاسلام فوجد بالقرب من المدينة قبائل الاوس والخزرج وكانت متأثرة بتعاليم اليهود فكانت أقرب العرب استعدادا لقبول الدين السماوى الجديد ثم صدر قرار عمر بن الخطاب الذى أجحف باليهود والنصارى معا وهو أنه لا يمكن أن يكون بالجزيرة الا دين واحد فأجلوا عن الجزيرة او اسلم منهم كثيرون .

وقد كان اليهود الدماغ المدبر للمالية والاقتصاد فى ذلك العصر وكان منهم طائفة كبيرة من العلماء فى الاسكندرية وكان اليهود المستقرون فى بلاد النصارى يعاونون ابناء عمومتهم على الفتح والاستعمار ومن الانصاف أن نذكر أنهم كانوا عنصرا اساسيا فى غزو بلاد الاندلس ومساعدة طارق ابن زياد ضد القوط وأن العرب فى كل مراحل الغزو فى شمال افريقيا واوربا وحتى فلسطين كانوا يتقدمون جيوشهم وكان اليهود يتعاونون معهم فى ادارة البلاد سياسيا واقتصاديا بل وفى تسهيل السبل لصد هذه الجيوش الغازية ولولا هذا التعاون الوثيق لما كانت الامبراطورية العربية الضخمة .

ومن نوابغ اليهود فى الاقتصاد وفى ادارة أعمال الخزينة يعقوب بن كلس الذى وفد على مصر ايام كافور الاخشيد وظل يتقلب فى مناصب الدولة حتى

أصبح وزيرا فرئيسا للوزراء ونظم المالية المصرية بخدمة وكياسة ردحا طويلا من الزمن وكان متواضعا رفعته أعماله ولم ينل منه حساده شيئا واسلم فى آخر ايامه وأصبح اماما يخطب المسلمين فى الجوامع ويناشدهم الاستمساك بالفضائل والبر والاخلاق .

أما فى أسبانيا فكانت جهود اليهود جبارة هائلة أيام الدولة الاموية وبعدها وكان نشاطهم كالسيل الجارف ، وكان اليهود هم الذين نقلوا ثقافة العرب وتراث العرب الى أوربا فأشعلوا الفتيل الذى التهب عن الحضارة الحديثة فى كل مناحيها فاليهم يرجع الفضل فى جعل الادب العربى أدبا عالميا عن طريق الترجمة الى العبرية ثم الى اللاتينية أو الترجمة الى اللاتينية مباشرة » أ . هـ .

ومما يذكر أن الدكتور طه حسين قد تناول ذلك قبل ذلك بسنوات طوال فى المجلد الاول من مجلة الجامعة المصرية سنة ١٩٢٨ .

وعلقت جريدة الشمس فى ١٩٤٤/١/٧ على المحاضرة فقال محررها اليهودى : كانت محاضرة الدكتور طه حسين عن اليهود والادب العربى آية على يقظة الشرق وعنايته بتراثه ومظهرا عمليا من تعاطف وتساند بين أبناء العروبة وقد جاء فى الوقت المناسب تذكر بما كان لليهود فى العصور الخوالى من أياد بيضاء وفضل عظيم فى نشر النور والعرفان وكانوا الواسطة الى نقل ثقافة اليونان الى الشرق كما نقلوا ثقافة العرب الى أوربا ولكن العنصر السامى الكريم الذى علم الانسانية الايمان والمثل العليا جوزى من الغرب جزاء سنمار وما وقع لليهود فى أوربا فى العصور القديمة والحديثة يدل على أن المثل العليا التى بشر بها الشرق لم تأت بالغرض المقصود منها ، ولا تزال الجماعات اليهودية لا تجد الراحة فى الغرب واليهود عنصر كريم من الجنس السامى الذى يعرف اليوم بالعربى وصلات اليهود بسكان جزيرة العرب تعود على عصور قديمة جدا وكان لهم شأن كبير وقد تركوا فينا تراثا .

وقصارى القول أن اليهود ليسوا غرباء عن العروبة أو الادب العربى وهم يعتزون ويفتخرون بأنتسابهم الى الدول العربية ويعملون على تجديد ذلك الماضى المجيد » أ . هـ .

● ● ●

ولقد رد على الدكتور اسرائيل ولفنسون كثيرون وجاء فى مقولاتهم مجموعة من الحقائق :

أولا : ليس لوجود اليهود فى الحجاز تاريخ مضبوط بالتحقيق وغاية ما علم أنهم التجأو مرارا فى عصور مختلفة .

(٠٣) قبل الميلاد بنحو ١٥٠٠ سنة ، فى عهد صموبل ١١٠٠ ق ٠ م فى عهد بختنصر ٦٠٦ ق ٠ م ٠

ولقد هاجر اليهود الى جزيرة العرب خائفين هاربين بعد خراب الهيكل .

ويقول ياقوت أن يهود يثرب عرب تهودوا ، ويقول الاصفهانى لما ظهرت الروم على بنى اسرائيل جميعا فى الشام فوطئوهم وقتلوهم ونكحوا نسائهم خرج بنو النضير وبنو قريظة هاربين الى الحجاز كما غلبتهم الروم على الشام .

ثانيا : لم يكن اليهود فى بلاد العرب مشهورين بالمعارف بل كانوا مشهورين بالمحافظة على دينهم بحرص شديد بلغ بهم الى درجة التعصب واكثرهم كانوا يجهلون اللغة العبرية التى دونت بها كتبهم وتفاسيرهم فكانوا يتناقلون عقائدهم بما يتلقونه من الافواه من القصص والروايات بلا نقد ولا تمحيص ولذلك التبست عليهم الخرافات التى كانت من أساطير الاديان الأولى القديمة وهى المعبر عنها بالاسرائيليات .

وبضاعتهم لم تكن الا (نظريات مقتبسة) من تعاليم شتى يمسك بها اليهود بتأثير القرون فأكسبتهم الانانية والاحتكار للهداية الالهية فقد زعموا أن الدين بدأ بهم وختم بهم » أ ٠ هـ ٠

كذلك فقد دحض الباحثون دعوى ظلم عمر بن الخطاب لليهود النازحين كما كشف كثيرون تآمر اليهود على المسلمين فى مختلف مراحل علاقاتهم فى القديم والحديث .

ثالثا : كتاب الصحافة الصهيونية فى مصر ١٨٩٧ — ١٩٥٤ للدكتورة عواطف عبد الرحمن قالت المؤلفة :

(وبينما الاحداث تتصاعد فى فلسطين فوجىء المصريون بمجلة ثقافية

جديدة تصدر فى أكتوبر ١٩٤٥ ويرأس تحريرها الدكتور طه حسين بينما تتولى تمويلها احدى العائلات اليهودية الثرية وهى عائلة هرارى ومنذ البداية ثارت الشكوك حول المجلة التى حملت اسم (الكاتب المصرى) والتى تخصصت فى نشر الدراسات الادبية والنقدية وضمت طائفة من الكتاب الاوربيين والامريكيين الى جانب الكتاب المصريين أمثال توفيق الحكيم ولويس عوض وسهير القلماوى وحسين فوزى ونجيب الهلالى وقد تعرضت (الكاتب المصرى) لحملة عنيفة من جانب بعض الصحف الوطنية المصرية مثل صحيفة (مصر الفتاة) متهمة اياها بالخضوع لسيطرة الصهيونية وان الهدف من اصدارها هو العمل على استقطاب المثقفين المصريين لصالح الحركة الصهيونية وشراء صمتهم ازاء الصراع العربى الصهيونى فى فلسطين .

وقالت المؤلفة : أن متابعة أعداء المجلة تثبت بالفعل نوعا من التجاهل للقضية الفلسطينية أو معالجتها كحادث هامشى لا يمثل اكثر من عمود أو اثنين من أعمدة المجلة بينما كانت الصحف المصرية كلها مشغولة بمتابعة القضية وتضيف المؤلفة ان ذلك لا يمكن ارجاعه الى الجهل بالقضية الفلسطينية لانها كانت آنذاك فى ذروة تصاعدها وتصف المؤلفة النغمة التى كانت تعالج بها المجلة هذه المشكلة بانها نغمة حيادية حتى خلال معالجتها للتطورات المصيرية فيها مثل قرار التقسيم ١٩٤٧ .

وقالت : أن معظم من شاركوا فى هذه المجلة كانوا من التيار المؤمن بالقومية المصرية : هذا التيار الذى عبر عنه لطفى السيد فى أوائل القرن العشرين ثم محمد حسين هيكل وأحمد أمين والعقاد والحكيم وطه حسين فى العشرينات والثلاثينات » أ . هـ .

هذا وقد أوردت الدكتورة سهام نصار فى بحث تقدمت به لنيل الماجستير سابق على هذه الرسالة ما يؤيد هذه المعانى ويؤكدها .

● ● ●

هذه هى الوثائق الثلاث التى نضعها بين يدى القارىء الكريم .

ولا يفوتنا أن نقدم هنا تعليق الدكتور فؤاد حسنين على كتاب اليهود فى بلاد العرب للدكتور اسرائيل ولفنسون بما يكشف بعض الدعاوى التى ادعاها هذا الباحث وأيده فيها استاذه الذى استقدمه من باريس وأمكنه من

اعداد رسالة تحمل جميع افكار ودعاوى الصهيونية والتى عجزوا عن اذاعتها فى البلاد العربية حتى مكنهم الدكتور طه بهذه الرسالة من اذاعتها .

يقول الدكتور فؤاد حسنين :

أن معظم ما أورده (اسرائيل ولفنسون) واعانه عليه الدكتور طه حسين المشرف انما هو كل ما ارادت الصهيونية اذاعته من اراء فى هذا البحث وكان حلقة من حلقات الدعاية الصهيونية وما نقله ولفنسون فى رسالته من آراء كان القصد منها اطلاع اليهود الشرقيين وقراء العربية على ما جاء فى المصادر الاجنبية التى يجهلها القارىء اليوم فى الشرق . وهذه الرسالة مشحونة بالاخطاء التى لا تصدر من طالب مبتدىء فى البحث وهى صدى للاراء التى كثيرا ما رددها الدكتور طه حسين فى الجامعة ، فضلا عن أن المراجع العبرية لا تمت الى البحث بصلة والدكتور طه حسين المشرف على الرسالة لا يعرف العبرية وقد أخذ بالنتائج التى قدمها الباحث دون التحقق منها ودون الاستنارة ببعض الذين يجيدون هذا النوع من الدراسات والامانة العلمية تقتضى غير ذلك (كان الدكتور فؤاد حسنين فى مقدمة المتخصصين فى الدراسات اليهودية العبرية) وليس صحيحا أن لليهود فضل على العرب بل الفضل الحقيقى للعرب على اليونان واليهود ولم تكن لغة اليهود حين نزلوا الجزيرة العربية الا لغة ركيكة هى خليط من العبرانية والكلدانية واليونانية ، واليهود هم الذين أخذوا من العرب فن الكلام والنطق الصحيح وفصاحة التعبير وقد أحسن الاسلام معاملة اليهود . هذه هى الحقيقة التى نسوقها الى الدكتور طه حسين وتلميذه الدكتور اسرائيل ولفنسون) النص ورد فى مقدمة كتاب (شمس الله تشرق على الغرب) .

وبعد فهذه الوثائق نضعها بين يدى القارىء الكريم احقاقا للامانة العلمية وبدون تعليق .

حاشية :

ان من يراجع هذه الوثائق الثلاث وكل ما أثير حولها يستطيع أن يتأكد تماما ان الدكتور طه حسين كان مشغولا باليهود والصهيونية منذ اليوم الاول لعمله فى الجامعة المصرية منذ عام ١٩٢٦ .

حيث وردت فى أبحاثه آن ذاك ما يشير الى الدور الذى يريد أن يسبغه على اليهود فى الادب العربى على حد قوله .

ليس شك أن المستعرات اليهودية قد أثرت تأثيرا قويا فى الحيـاة العقلية والادبية للجاهلين من أهل الحجاز .

(يراجع ما أورده فى السياسة الاسبوعية ٣٠ نوفمبر ١٩٢٦ ثم لم يلبث فى عام ١٩٣٧ ان أعان اسرائيل ولفنسون على رسالته عن اليهود فى بـلاد العـرب .

ثم لا يمضى قليل حتى نجد الدكتور طه عام ١٩٤٤ يحاضر فى المدارس الاسرائيلية عن هذا الموضوع .

فاذا جاء عام ١٩٤٦ أن يصدر مجلة الكاتب المصرى بتمويل يهودى .

● ● ●

أما جريدة الشمس (٢ يناير ١٩٤٤) فقد رددت ما قاله الدكتور طه حسين حيث قالت : العرب قبل الاسلام تأثروا بثقافة يهود المدينة وفضائلهم. وأخذوا عنهم فلسفتهم فى أن الحياة وسيلة لا غاية وان يهود المستعربون فى بلاد النصارى عاونوا أبناء عمومتهم العرب على الفتح بعد الاسـلام وانهم كانوا عنصرا أساسيا فى فتح بلاد الاندلس ومساعدة طارق بن زياد ضـد القـوط .

وان العرب فى مراحل غزوهم شمالى أفريقيا وأوربا وحتى فلسطين كانوا يقدمون جيوشهم وكان اليهود يتعاونون معهم فى ادارة البلاد سياسيا واقتصاديا بل فى تسهيل السبيل لسير هذه الجيوش الغـازية ولولا هذا التعاون الوثيق لما كانت الامبراطورية العربية الضخمة واليهم رجع الفضـل فى نقل ثقافة العرب الى أوربا وفى جعل الادب العربى أدبا عالميا .

وان عمر بن الخطاب رضى الله عنه اجحف بهم يوم اجلائهم عن الجزيرة بحجة أنه لا يمكن ان يكون بالجزيرة الا دين واحد » أ . هـ

بينما تؤكد كثير من المصـادر اليهودية ان ما قام به عمر بن الخطـاب كان غاية فى العدل فقد أبدلهم أرضا بدلا من أرضهم وضمن لهم الامن فى المناطق الجديدة التى نقلهم اليها .

(٥)

حول آراء الدكتور طه حسين

عندما يدافع الدكتور محمد الدسوقى عن طه حسين فى مقاله بالهلال انما يثير علامة استفهام كبيرة تحمل على الابتسام .

فما هى أرضية الدكتور محمد الدسوقى الذى التقى بطه حسين فى العامين الاخيرين من حياته التى امتدت ثمانين عاما وقد التقى به وهو فى حالة المرض الذى كان قد الم به خلال سنواته العشر الاخيرة والتى وصفته الدكتورة سهير القلماوى فى كتابات لها بأنه كان مؤثرا شديد التاثير على ذاكرة العميد الى الحد الذى كان ينسى معه أشياء كثيرة .

فهل يمكن ان يقال أن الدكتور محمد الدسوقى قد استطاع فى خلال هذين العامين أن يستعرض مع طه حسين أعماله خلال أكثر من خمسين عاما أو ان يكتشف خلفيات هذه الاعمال وهو الذى كان عمله قاصرا على أن يقرأ له الصحف أو بعض الرسائل خلال بضع ساعات كل يوم ، فى هذا السن المتقدم والمرض العضال بعد أن تركه فريد شحاته ، ومن هنا فان كل ما يكتبه الدكتور محمد الدسوقى عن مراجعاته مع طه حسين بشأن كتابيه الشعر الجاهلى ومستقبل الثقافة يفتقد كثيرا من الاصالة مع رجل ظل حتى آخر أيام حياته يفخر بأنه لم يرجع عن رأى رآه أو مقولة ذهب اليها .

وهو ادعاء باطل ، فان أخطر مقولات طه حسين التى كان يفاخر بها وهى مصر الفرعونية اضطر ان يبتلعها ويجارى الجو بعد حركة الجيش عندما رأى الجماعة يتحدثون عن القومية العربية .

وقد فعل ذلك دون أن يعتذر عن ماضيه الطويل فى دعوته باصرار مصر على فرعونيتها وفى مقولته أن العرب كانوا من قوى الاحتلال كالفرنسيين والانجليز ومن اجله حرقت كتبه فى دمشق فلقد كان طه حسين دائما صوت سيده لا يبالى أن يتقلب من رأى الى رأى ومن وجهة الى وجهة أخرى ، وآية ذلك انه بعد أن حارب الوفد وسعد زغلول سنوات طوال عاد فانضم الى الوفد وأخذ يحارب أصدقاء الامس من الاحرار الدستوريين .

أما مقولة الدكتور محمد الدسوقى بأن كتاب (الشعر الجاهلى) لم يكن يحمل الا فكرة (انتحال الشعر) فهو قول ظالم ، اذ لو كانت مقولة انتحال

الشعر وحدها هى هدف هذا الكتاب ما قامت عليه قيامة الازهر والعلماء .

ولكن الشعر الجاهلى كان يحمل فكرة خبيثة فى اطواءه تنكر نصوصا ثابتة فى القرآن الكريم وتصف الرسول صلى الله عليه وسلم بما لا يليق به وتضع لليهود مكانة لم يبلغوها ابدا وليس فى التاريخ الصحيح ما يثبتها بل وتنكر هجرة ابراهيم الى الجزيرة العربية .

ولقد اضطر طه حسين الى استبدال كتاب الشعر الجاهلى بكتاب جديد تحت اسم الادب الجاهلى ليتخلص من بعض خطاياه وان يقى مصرا على انتحال الشعر وهى قضية تحاول أن تصيب القرآن وتفسيره وضعها عتاه المستشرقين ليهدموا قاعدة هامة من قواعد فهم القرآن وهى العودة الى الشعر بوصفه ديوان العرب .

واذا كان الدسوقى يرى أن طه حسين لم يغير رايه بالنسبة للشعر الجاهلى وهو قليل الدراية بتراث طه حسين فان رجلا رافق هذه الرحلة طويلا هو الاستاذ محمود محمد شاكر يكذب مقولة الدسوقى ويؤكد أن طه حسين حاول التراجع عن هذا الرأى — على طريقة اساتذة ذلك العهد — دون الاعتراف بالخطأ أو الرجوع عنه ولكن بكتابة شىء آخر مخالف عندما كتب عن أعلام الشعر الجاهلى ، وعلى كل حال فان اصرار طه حسين أو الدكتور الدسوقى على أن طه حسين لم يغير رايه بالرغم من سماعه وجهة نظر أصح ليس أمرا مشرفا للعالم أو الباحث وليس من طباع المسلم الصحيح الذى يدعوه دينه أن يعود الى الحق متى تبين له .

ولقد كان طه حسين يقول لكل من يراجعه فى امر كتب عنه او قضية آثارها ، أنه سوف يصحح هذا الراى وكان يقول (اكتم عنى) ولكنه لم يكن يغير شيئا بل هى محاولة للخروج من المأزق وقد فعل ذلك مع الدكتور الحوفى ومع السفير أحمد رمزى سفير مصر فى سوريا عندما حدثه عن احدى مقولاته الخاطئة .

أما كتاب (مستقبل الثقافة) فانه كان فى حقيقة أمره « تقريرا سياسيا » مرفوعا الى رئيس الحكومة بعد سقوط الامتيازات عن مدارس الاجانب ومعاهدهم وقد اختير طه حسين ليقدم هذا المنهج ليكون منطلقا لسياسة التعليم فى مصر ، غير أن الدكتور طه عندما أعد تقريره هذا استقالت وزارة النحاس باشا

واضطر الى أن يصدره على هيئة كتاب لارضاء الذين كلفوه به فهو فى حقيقته لم يكن عملا مستقلا ولم تكن دعوته الى التعليم كالماء والهواء الا شعـــارا ارادت به الوزارة التى تولاها أن تكسب به الشعب وقد ثبت فساد التجربة بعد تطبيقها وكتب فى ذلك أقرب الناس الى الدكتور طه وهو تلميذه الدكتور نجيب البهبيتى وتشهد صحف ذلك العهد بذلك .

وعندما يقول الدكتور الدسوقى أن طه حسين اجتهد بالراى وكل انسان يخطىء ويصيب يعترف بخطأ طه حسين ولكنه ينكر الخلفية الخطيرة التى كانت وراء الحملة على الدين والقرآن والرسول والتاريخ والتى أدخلت بمكر شديد فى قضية انتحال الشعر ليقدم مقولة تنكر على ابراهيم واسماعيل رحلتهما الى مكة وبناءهما الكعبة ومعروف تلك الجهات التى انتفعت بذلك وهى التى حمت طه حسين من المحاكمة .

وما كان من الصحيح على الاطلاق ، أن مصر غربية الفكر تستمد قيمها من اللاتين — نظرية البحر المتوسط — وأنها جزء من الغرب وعقل الغرب بينما عرفت مصر الاسلام منذ أربعة عشر قرنا فكونها تكوينا جديدا وصهرها فى بوتقة التوحيد الخالص واقام لها منهجا اجتماعيا وثقافيا وسياسيا مختلفـــا تمام الاختلاف عن الغرب وفكره الاغريقى والوثنى وعاشت وجهتها الى الكعبة المشرفة وما تزال وستظل .

ولا ريب أن محاولة فصلها عن المشرق الاسلامى وعن الاسلام لحساب دعوى الدول اللاتينية التى كانت مثارة فى ذلك الوقت باطلة فقد كانت لحساب فرنسا وايطاليا واسبانيا وفى محاولة لضم شاطىء البحر الابيض الجنوبى المسلم (المغرب والجزائر وتونس ومصر) الى هذا الحلف الذى لم يثبت أمام الاحداث الا قليـــلا والذى كان هدفه ادخال مصر والمغرب فيما يسمى أوربا الجنوبية على النحو الذى فرضته فرنسا على الجزائر يوما ما ، ولذلك فان الكشف عن خلفيات الدكتور طه حسين هى فى الحقيقة الهدف الحقيقى لفهم كتاباته ووجهته ، التى سرعان ما يغيرها ويستبدلها بغيرها عندما يجدها تنهار وقد انهـــارت مختلف دعواته ومقولاته ولم تستطع واحدة منها أن تثبت على الايام لانها كانت فى مجموعها معارضة لسنن المجتمعات والحضـــارات، مخالفة للفطرة والاصالة ومنهج العلم والتاريخ والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

الباب السابع

تقويم كتابات العقاد الاسلامية

بعد ربع قرن من رحيله

ما تزال حركة اليقظة الاسلامية تعيد النظر فى كتابات العصريين وتركز على الفترة التى استعلى فيها موج التغريب والغزو الفكرى وهى المرحلة التى واجهها الاعلام : مصطفى صادق الرافعى ورشيد رضا ومحب الدين الخطيب وحسن البنا وقد نشرت الصحف منذ قليل أن انيس منصور كتب مقالا فى المجلة العربية التى تصدر فى السعودية اشار فيه الى أن العقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم كانو ملحدين ، ونشر محمد سيد كيلانى فى الهلال منذ فترة أن العقاد اعترض على مفهوم فريد وجدى عن الروح وكتب منكرا وجود الروح وكان ذلك منذ اكثر من ثمانين عاما فى مطالع شبابة وترددت حول العقاد سحب كثيرة خاصة عندما وقف فى مجلس النواب يدافع عن طه حسين عندما عورض كتابه (الشعر الجاهلى) وحين تحدث عن اعجاز القرآن الكريم مستخفا بما كتبه الرافعى فى كتابه (اعجاز القرآن) وما تردد من مقولته للاستاذ احمد باكثير من أن الامم ليست فى حاجة الى الدين ولكنها فى حاجة الى الاخلاق ووقائع أخرى متعددة توحى بأن العقاد كان فى مرحلة من حياته مضطرب العقيدة وربما كان ذلك نتيجة زحف الفكر الغربى العلمانى فى فترة ما بعد الحرب العالمية الاولى وتأثر كثير من الكتاب والصحفيين المصريين فى هذه الفترة وهو ما نسب الى منصور فهمى ومحمد حسين هيكل وزكى مبارك وعلى عبد الرازق ومحمود عزمى وحسين فوزى .

ونحن من وجهة نظر الاسلام لا نتهم ولا نسرف فى تحميل المواقف أكثر مما تحتمل ، ولكن ننظر الى شىء واحد : هو هذه الأمانة التى تحملها هذه الاقلام امام اجيال الشباب وثقة هذا الشباب المسلم فى اقلام لامعة تسيطر على قيادات الصحف والفكر والتعليم والجامعة ، فهذا هو وحدة الخطر الذى يدعونا الى تصحيح المواقف ، ونحن لا نوجه اى اتهام الى أكثر هؤلاء غلوا ،

فذلك أمر نتركه لتقدير الله تبارك وتعالى وعفوه ومغفرته ، ولكنا نحب دائما أن نحذر ونفرق بين موقف وموقف آخر مختلف ، وأن نكون حذرين فى قراءة أمثال هؤلاء فقد حدث فيها خلط وتوالت على مراحل مختلفة من حياتهم وظروفهم .

فقد كانت هذه الفترة الاولى حتى أوائل الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩) مضطربة أشد الاضطراب حيث استطاعت قوى النفوذ الاجنبى أن تطرح فى أفق الفكر الاسلامى ترجمة مسرفة غالية لنظرية دارون تداولتها الصحف والمجلات البارزة فى ذلك الوقت ، وكانت النظرية المادية قد استغلت بالعلم لتسيطر وتدعى أنها قادرة على أن تحل محل الدين المنزل ثم لم تلبث ان اكتشفت عجزها عن ان تجيب على تساؤلات النفس واشواقها مما أكد عجز هذه القوى عن زحزحة مكان الدين المنزل من القلوب وقد تأثر هذا الجيل من الكتاب بهذه السموم .

ومن ثم جاء ذلك التحول المعروف لاغلب هؤلاء الكتاب فى الاشتغال بدراسات السيرة والتاريخ الاسلامى وهو ما نتج عنه :

حياة محمد لهيكل وهامش السيرة لطه حسين والعبقريات للعقاد ،

وقد جاء هذا الطور بعد أن استعلنت حركة اليقظة الاسلامية وقدمت مفهوم الاسلام بوصفه عقيدة ونظام ، دينا ومنهج حياة .

وكانت هذه الكتابات من العصريين أشبه ما تكون بتقديم صورة اسلامية براقة من خلال مفهوم (الدين) كما يفهمه الغربيون : نظاما لاهوتيا يتعلق بالعبادات وحدها لحجب المفهوم الاصيل .

ولم يكن هؤلاء الكتاب فى حقيقة أمرهم ملتزمين بتطبيق الاسلام على أنفسهم أو فى حياتهم الخاصة فكانوا يتحدثون عن الاسلام كعلمانيين ، وما زالوا يدرسون الاسلام والسيرة من خلال مناهج الغرب ، المادية ، التى لا تعترف بالروح أو الغيب أو النبوة أو الجزاء الاخروى ومن هنا فان كثيرا من المناهج والوسائط التى استعملها العقاد وغيره فى تفسير التاريخ الاسلامى أو السيرة النبوية كانت ثمرة مناهج مادية عاجزة عن استيعاب حقائق الاسلام أو تفسير قدرته الخارقة فى السيطرة على العالم فى اقل من ثمانين عاما .

ومن هنا كانت أخطاء الاستاذ العقاد فى وصف النبى محمد صلى الله عليه وسلم بالعبقرية التى جعلها ظاهرة عامة تنطبق على العظمـاء — مما يوحى بعجزه عن القدرة فى التفريق بين النبوة والبطولة .

وكذلك كانت أخطائه فى كتابه (الله) حيث اعتمد نظريات مسيحية وغربية دون أن يصـل الى مفهوم الالوهية الصحيح الذى تمتلىء به كتب التوحيد ، ممـا حمل الامام حسن البنـا فى ذلك الوقت أن يكتب فى مجلة (الشباب) فصولا عن الالوهية من خلال مفهوم الاسلام الصحيح .

وهكذا كان عجز العقـاد عن الخروج من دائرة النظريات الغربية فى دراساته الاسلامية عاملا من العـوامل التى جعلته يتعثر فى مواضع كثيرة ، حتى يقول العـلامة محمـد أحمد الغمراوى فى التعليق على اسـلاميات العقـاد :

« يجب أن يقرأ للعقـاد باحتياط وهو يكتب عن الاسـلام فالعقـاد ابن العصر الحديث أخذ ثقافته مما قرأ لادبائه وعلمائه وهو شىء كثير وليس كل ما كتبه المستشرقون يقبله المسـلم ولا كل نظريات الغرب متفق وما قرره القرآن ، ولكن العقـاد اعتقد من هذه النظريات ما اعتقد فهو ينظر الى القرآن من خلال ما اعتقد منها ويبدو أن من بين ما اعتقده العقـاد (نظرية فريزر) فى نشوء الاديان فهى عنده ليست سماوية ولكنها أرضية نشـأت بالتطور والترقى الى الاحسن ومن هنا تفضيل العقـاد للاسـلام على غيره من الأديان فهو آخرها فهو اذن خيرها .

ومن هنا يأتى تفسير اطلاق اسميه الغربيين على كتاب (عبقرية محمد والفلسفة القرآنية) فهذه التسمية خطأ منه ينبغى أن يتنبه اليه قارىء الكتاب من المسلمين لينجو ما امكن مما توحى به التسميات من أن محمدا — صلى الله عليه وسلم — عبقرى من العباقرة ، لا نبى ولا رسول بالمعنى الدينى المعروف فى الاديان المنزلة ويؤكد هذا الاتجاه أن جاء الكتاب واحدا من سلسلة كتب العبقريات الاسلامية ولن يكون أولها ، فالناشىء الذى يقرأ بعد عبقرية محمد عبقرية أبى بكر وعبقرية عمر مثلا لا يمكن أن يسلم من ايحـاء خفى الى نفسه من أن محمدا وأبا بكر وعمر من قبيل واحد ، عبقرى من عباقرة ،

وأن يكن أكبرهم جميعا كالذى سمى النبى صلى الله عليه وسلم — بطل الابطال — فأوهم أنه واحد من صنف ممتاز من الناس متجدد على العصور بدلا من صنف أختتم به — صلى الله عليه وسلم — صنف الانبياء والمرسلين من عند الله فالنبى والرسول يأتيه الملك من عند الله بما شاء من وحى ومن كتاب ولا كذلك العبقرى ولا البطل فالنبوة والرسالة فوق البطولة والعبقرية بكثير وكم من الصحابة رضوان الله عليهم من بطل ومن عبقرى وكلهم يدين له — صلى الله عليه وسلم — بأنه رسول الله الى الناس كافة فى ذلك العصر وما بعده وانه خاتم النبيين » أ . هـ .

وهكذا نرى أن الموجة التى حملت معها هؤلاء الكتاب الى شىء من الفهم غير الصحيح للالوهية وما جرت على السنتهم من عبارات نقلوها من كتاب الغرب الملاحدة ظنا منهم انها تعطيهم شهرة ودويا ، هذه الموجة ما لبثت أن انحسرت ولكنها مع الاسف تركت من وراءها بعض الاخطاء .

واذا كنا نشدد فى تصفية موقف طه حسين فذلك لانه أصر على موقفه من كثير من شطحاته حتى آخر ايامه ، وانه بدا شديد الولاء للقوى القائمة من وراء الفكر ، أما العقاد فانه حاول أن يصحح أخطائه ويحرر نفسه من التبعية السياسية الغربية ما استطاع وان ظل ايمانه بالمذهب الفردى غالبا عليه حتى قيل انه درس بطولات الاسلام من خلاله وأنه سمى نفسه محامى العظماء . وكان اعجابه ببلاغة اللغة العربية حتى قيل ان اللغة العربية هى التى هدته الى الاسلام ، وان كان قد ظل من الناحية السياسية معارضا لحركة اليقظة مهاجما لرموزها وقادتها .

ويقتضينا الواجب الادبى أن نقرر أن العبقريات — بالرغم من بعض ما يؤخذ عليها كانت فى وقتها عملا طيبا ادخل — مع كتاب حياة محمد لهيكل — قدرا كبيرا من التعريف بآفاق عصر النبوة ورسالة الاسلام والبطولة الاسلامية ولكن كان لابد فى المرحلة التالية أن تقوم هذه الاعمال بروح الدعوة الاسلامية فى قيمتها الحقيقية حيث تبدو بعض جوانب القصور خاصة فيما يتعلق باستكمال مفهوم الاسلام الجامع بين الدين والدولة من ناحية وبين ابراز تكامل الاسلام فى مجال التوحيد الخالص والايمان بعالم الغيب والنبوة وهما الجانبان الذين نفتقدهما فى كتابات

العصريين عن السيرة وخاصة ما كتب العقـاد وهيكل ، أما بالنسبة للدكتور طه حسين فالأمر يختلف تماما فان محاولته واضحة لتأكيد مفهوم خـاطىء (ان الاسـلام انتهى بنهاية عهد عمر (رضوان الله عليه) وان الاسـلام لم يستطع أن يسيطر على وجدان العرب مع التنكر الشديد لمنهج الاسلام السياسي والاجتماعي والاقتصادي كما يبدو في كتاب (الفتنة الكبرى) .

● ● ●

وقد أخذ الباحثون الاسلاميون على عبقرية محمد والعبقريات بصفة عامة عدة أمور (كما أوردها غازي التوبة) :

١ — ان العقـاد دافع عن منهج العظمة الانسانية وهي حلقة من دفاعه عن الفرد وايمانه به ولكنه عجز عن استيعاب الجانب الاجتمـاعي في الاسـلام وشكك في دور العقـائد والتربية في توجيه الاشخاص اذ ركز العقاد على العوامل الوراثية والتكوين الجسماني والعصبي ووضع هذه الاسباب في المرتبة الاولى في توجيه الشخصية بحيث تأتي العقيـدة الاسلامية والتربية في المرتبة الثانية والعقـاد في موقفه هذا متـأثر ببعض المدارس الاوربية في تقديس الفرد والفردية وقد أورد العقاد ذكرا لمفـاهيم لومبروزو في صفات العبقري انطلاقا من التكوين الجسدي وحاول تطبيق ذلك على أبي بكر وعمر .

٢ — « حجب الجانب الرباني المعجز وحجب العقيـدة وهو لم يكشف عن دور الاسـلام في بناء شخصية الرسول وتجاهل ان الاسـلام هو الذي أعطى النبي صلى الله عليه وسلم ذلك الايمان بالله تبارك وتعالى والايمـان باحقية الموت في سبيل الله .

٣ — ان العقاد قد حارب مذهب التفسير المادي الذي قدمه ماركس والشيوعية وفي نفس الوقت خضع للمذهب النفسي المادي الذي لا يعترف بالاثار المعنوية المترتبة على الايمان والعقيدة في بنـاء الشخصية كما تجاهل جانب الغيبيات ولم يفهم النبوة فهما صحيحا .

● ● ●

(١)
وثائق جديدة فى قضايا مثارة

كتب الاستاذ محمد سيد كيلانى (الهلال — يناير ١٩٨٦) تحت عنوان العقـــاد بين الكفر والايمان — نقل منها نصوصا للعقاد من كتاباته الاولى ووصفه بأنه كان فى مطلع حياته ملحدا زنديقا يقول بالتعطيل وينكر النبوات وكان محمد فريد وجدى يعطف على العقاد الذى كان يعـــانى من الفقر وسوء الحال ، وقد أصدر فى ذلك الوقت (١٩٠٧ —   ) الجزء السابع من دائرة معارفه وخصصه لاثبات وجود الله فانبرى العقـــاد للرد على وجدى وتسفيه رأيه .

وقد مرت الايام وتبدلت الاحوال وأصبح العقاد الكاتب الاول لحزب الاغلبية الساحقة فترك التهجم على الدين بهذه الصراحة التى عرفت عنه .

ولما انشق على الوفد عانى الفقر وحالفه البؤس والشقـــاء وأصبح مؤمنا شـــديد الايمان مسلما متعصبا للاســـلام وهكذا انقلب العقـــاد من الالحـــاد وانكار وجود الله الى الايمان الراسخ بوجود الذات الالهية وأصبح كاتبا اســـلاميا يشـــار اليه بالبنيـــان ويقبل النـــاس على اقتناء كتبـــه ومطالعتها » .

ونقول : اننا نقبل من العقاد عودته الى مجال الاســـلام الرحب ولكن نلاحظ عليه ملاحظتين :

(الاولى) : أنه دخل الاســـلام من باب الفلسفة ولم يدخله من باب الفهم القرآنى الاصيل .

(الثانى) : أنه لم يكن ملتزما بالاسلام فى سلوكه ولم يكن مؤمنا بالدعوة الى الاسلام دين ودولة ومنهج حياة . وكانت مفاهيمه الغربية غالبة على تفسيراته للقرآن ومن هنا أخطأ فى كتابه (الله) والفلسفة القرآنية مما صححه بعض العارفين كالدكتور محمد أحمد الغمراوى .

(٢)

وكتب الاستاذ محمد سيد كيلانى فى الهلال (فبراير ١٩٨٦) عن كتـــاب الفن القصصى فى القرآن ومؤلفه الدكتور محمد أحمد خلف الله . ، تعليقا

على دعوى خلف الله من ان المعترضين على رسالته لم يقرءوا الاصول الاولى التى اعتمدت عليها فى الرسالة وقال انه يعود الى المصـــادر الاولى للقرآن والثقافة الاسلامية والرازى وما شابه ذلك لمواجهة الجمود فى الفكر الدينى .

وقال الاستاذ كيلانى : انهـــا جراة عجيبة من الدكتور خلف الله فان رسالته قد رفضت باجماع أعضاء لجنة المناقشة الامر الذى دعاه الى رفع شكوى الى وزير المعـــارف ذلك الوقت فوضع تقريرا جاء فيه :

ذكر المؤلف أن الذى دفعه الى هذا البحث ما رآه من أن المستشرقين يطعنون على القرآن فيمـــا جاء به من قصص وأخبار يرون أنها لا تتفق مع الواقع التاريخى الذى يعلمون وأنها تدل على جهل محمد بالتـــاريخ ، وان المسلمين منذ عهد النفر الاول والذين عاصروا النبى (صلى الله عليه وسلم) قد استقبلوا كل ما ذكر فى القرآن على أنه تغييرات جادة ، يراد بها معانيها فيما جاءت به وتأثرت عقليتهم بما جاء من الايات الدالة على أنه يقص أنباء الغيب التى لم يكونوا يعرفونها فقالوا بأن أخبار الاولين آية صدق النبى ودليل على اعجاز القـــرآن .

ثم يجمع بين هؤلاء المسلمين وأولئك المستشرقين فى حكم واحد اذ يقول : وليس من شك عندى فى أن مصدر الخطأ فيما ذهب اليه من آمن بهذه الاشياء وصدق كل ما فيها من تاريخ أو من انكرها وادعى أنها اخطـــاء تاريخية أو قصص ملفقة جهل أولئك وهؤلاء أو تجاهلهم لما بين الادب والتـــاريخ من علاقات » .

هذا هو أهم ما دعاه الى أن يسلك سبيلا آخر فى فهم القرآن سمـــاه (الفن القصصى) ورأيه فى ذلك يتلخص فى أن القصص القـــرآنى نمط من أنماط القصة الفنية التى لا يلتزم الفنان فيها الصدق وتحرى الواقع وانمـــا يعطى لنفسه الحرية ما يغير به ويبدل ويزيد ويخترع » .

ولا يقف بهذا عند قصة أو قصص يعنيها ولكنه يطرد فى هذا الشـــأن فى كل ما قصه القرآن ســـواء فى ذلك ما جاء عن الانبيـــاء والرسل والامم وما جاء عن غيرهم فيذكر قصة آدم وابليس وقصة الخليقة والملائكة وقصة كلام عيسى فى المهد ونجاته من اليهود انهم لم يصلبوه ولم يقتلوه وقصة ناقة صالح الى غير ذلك ثم لا يقف عند الوصف القرآنى بل يطرد هذا الحكم أيضا على غيره مما جاء فى الكتاب الكريم من أوصـــاف ونسب ماضيه كانت أو

مستقبله ، فيذكر سؤال الله لعيسى يوم القيامة (أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله) ويذكر مثلقوله تعالى (ان الذين كفروا سـواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) يذكر ذلك أمثاله فى مجال ما يقرره من أن القرآن ليس فيه ما يدل على أن حوادث هذه القصص تلتئم مع الواقع الفعلى أو لا تلتئـم ، وان هذه النسب والاوصاف تصدق أو لا تصدق وانما هو أسلوب قصد به غرس فكرة وراء ما تدل عليه الالفاظ بمعانيها اللغوية المعروفة أو مشـايعة الواقع النفسى الذى كان سـائدا عند المعـاصرين استغـلالا لمعلوماتهم وان لم تكن صحيحة فى سبيل تأييد الدعوة التى جاء بها وقد زعم ان هذا تأويل للايات وخاصة آيات القصص التى هى عنـده من المتشـابه ويجرى فيهـا مذهب السلف ومذهب الخلف من التسليم أو التأويل ويستعد الى ما عرف عن العرب من التمثيل ، وما جاء فى بعض تمثيلات القرآن وتشبيهاته على هذا الاسلوب الذى لا ينظر الى الواقع وانما يجرى الكلام فيه على ما الفه العرب فى هذا الباب كما زعم ان بعض المفسرين يقولون بمثل هذا ايحاء أو تصريحا وقد ذكر منهم الامام الرازى والامام محمد عبده .

هذه خلاصة فكرته واهم عناصرها وعواملها

— هذه الاسس التى بنى عليها البحث فاسدة .

— اصحاب رسول الله سمعوا منه وتلقوا منه هذا الكتاب الكريم وفهموا معانيه التى يدل عليها بمقتضى أساليب اللغة العربية وقد طبعوا عليهـا ورضعو البانها واستمر هذا الشـأن على جميع عصور المسلمين وعهودهم مدى أربع عشر قرنا .

هل هؤلاء تأثروا بما يخالف الواقع واوقعهم هذا فى فهم القرآن على غير وجهة الذى فطن اليه هو وامثاله ممن يتنـاولون القـرآن بمثل هذه الدراسات .

ان القـرآن اذا استقبلت دراسته على هذا النحو من الخلط والخبط فقد اقتحمت قدسيته وزالت عن النفوس روعة الحق فيه وزلزلت قضاياه فى كل ما تناوله من عقـائد وتشريع واخبار واحوال مستقبلة كالبعث والحشر والحساب والجنة والنار ونحو ذلك واتضح لكل انسان أن يقول فى كل هذا ليس له مدلول ولا واقع يدل عنه ولكنه سبق لمجرد بعث الرغبة أو الرهبة أو العظة أو تقويم النفس واصلاح المجتمعات .

الباب الثامن

نجيب محفوظ

اخطر ما فى قصص نجيب محفوظ

كان السؤال فى ندوة الاعتصام : عما اذا كانت قصة أولاد حارتنا هى اسوأ ما كتب نجيب محفوظ أم أن الامر أكبر من هذا نقـــول : اذا كانت قصـــة (أولاد حارتنا) هى أسوأ ما كتب نجيب محفوظ من جنب جرائه على القيم والاصول فى العقيدة الاســـلامية واعتماد مفاهيم مضللة وردت فى بعض الكتب المشكوك فى صحتها والتى جاء القرآن ليكشف زيفهـــا فان أخطر ما فى قصص نجيب محفوظ جملة (من الكلمة الاولى الى الكلمة الخيرة) هو :

القبح والتشكيك والسخرية بكل القيم الاخلاقية والاجتماعية بحيث تمثل النفســـك انســـانا غرق فى الشراب أو فى الخدر ففتح فاه ضاحكا فى سخرية وغيبوبة لا حد لها .

وليس هذا المظهر الانيق والعبارات الدقيقة ، والقدرة على ترتيب الاجابات عن الاسئلة الا « قناعا » خادعا .. يخفى وراءه المظهر الحقيقى ، وكان نجيب محفوظ قد ركبه سلطان خفى ليضرب فى كل اتجاه وليسقط كل قائم وصحيح كانما هو (دون كيشوت) .

فلقد أتيح لنجيب محفوظ أن يقرأ فى الاداب الاوربية والفلسفات كل سخرية بكل دين وقيم ومتعارف عليه فحول كل ما فى هذه الفلسفات المادية والوثنية والاباحية الى صورة مصرية وحشد للغة العربية أسوأ عبـــارات الكتابة والهجاء والاقذاع مما لم يجرى من قبل على لسان كاتب أصيل .

ومن الحق أن نرد وجهة الكاتب الى عوامل صباه وتلك معروفة سجلها (نجيب محفوظ) فى رسائل منشورة الى أصدقاء له وهى استغراقه فى سحب الدخان الكثيفة ذات الرؤى الحالمة فى جلسات الحشيش .

ولما كان نجيب محفـــوظ قد اعتنق معالم الفلسفة المـــادية ورأى فى الاشتراكية حـــلا لمشاكل العالم ، وتقبل مفهـــوم الفن للفن ، وخلط بين

معطيات التفسير المادى للتاريخ ، وبين الماركسية وغيرها ، من قيم غربية مختلطة لتشكل له ذلك الطريق الذى سار فيه وعرض عليه صورا من المجتمع المصرى ، فجاء عرضه جامعا بين كل هذه المذاهب الهدامة مختلطة فى قصصه اختلاطا شـــديد الخطورة .

وكان أكثرها خطـــرا هو دعوته الى الوجودية والعبثيـــة والعـــدمية (تأثر الى حد بعيد بألبير كامى فى الحاحه على فكره العبث) .

وتأثر بآرائه حول البطل المتمرد .

ومن هنا جاء أبطال نجيب محفوظ جميعا أو كثيرا فى مجال التـــأزم

وخلاصة مفهومه فى هذا الاتجاه (كما أورده الدكتور أحمد ابراهيم خضر) والتفرد والغربة (وهم بهذا أبطال وجوديون) .

وخلاصة مفهومه فى هذا الاتجاه (كما أورده دكتور أحمد ابراهيم خضر)

١ — ان الانســـان قد القى به فى هذا العـــالم وحيدا غريبا لا نصير له ولا معين .

٢ — ان الاخرين يمثلون حجيما يعوقنا عن تحقيق أهدافنا .

٣ — ان الانســـان مسئول أن يتحمل عبء حريته التى هى أســـاس وجـــوده .

٤ — ان هذا الوجود ضرب من العبث وعلى الانســـان أن يجعـــل له معنى .

ويبدو هذا واضحا فى روايات (اللص والكلاب) بمعنى أن الله (جل فى علاه) قد القى بالانسان فى هذا الكون ثم أهمله ولذلك لم يعد فى حاجة اليه وعليه أن يحقق وجوده بمفهومه الخاص .

وهذه المعانى التى تضمنتها القصة أوردها ألبير كامى فى أسطورة سيزيف والغريب فاللص والكلاب من روايات العبث ، تكررت منها كلمة عبث اثنى عشر مرة ، وذكرت فى روايته (الشحـــاذ) واحـــد وعشرين مرة وفى (الطريق) احدى عشر مرة .

يقول المعلق (ان العبث ينشأ من اللامعقول ومن صميم الكون وصمته من حول الانسان وفى هذه الوحدة القاتلة والغربة التى يحس بها) وهذه هى المفاهيم التى أوردها نجيب محفوظ فى رواياته الثلاث اللص والكلاب، الطريق ، الشحاذ .

وأبطالها يتسمون بسمات جعلت شعورهم بالعبث يطبق عليهم ويحول الحياة الى ظلام ممتد فهم جميعا غرباء .

وكما اختار (البير كامى) : الانتحار كحل لهذا الموقف فقد اختاره ايضا نجيب محفوظ لابطاله .

وهكذا نجد أن نجيب محفوظ يمضى ماركسيا فى بعض الروايات ووجوديا فى روايات أخرى ، وهو فى كل ذلك يقدم للقارىء العربى ما يهدم مقومات حياته كلها ويزلزل وجوده النفسى والاجتماعى .

ولعل دعوته الى (اللهو والطرب والجنس واحترام المومسات) هى أبرز ما تحمل كتاباته وقد تناول ذلك الدكتور رجاء عبيد والدكتور أحمد ابراهيم خضر ومصطفى التوانى فى دراسة مستقبضة (وقفات مع مريدى نجيب محفوظ) ؟ .

فقال الدكتور عبيد : الطرب فى ادب نجيب محفوظ لوحة عريضة تزخر جنباتها بألوان عديدة متجسد فيها حياة الطرب واللهو والاقبال الماتع على الحياة حيث تقبض منها ريشة نجيب محفوظ على (حقبة زمنية) حيث يرصد تلك فى الليالى الظروف التى ترقص للنغم وتغنى للوتر فى جراة تخجل الجراة منها ويطالعنا من الاغنيات ما يخدش ولكن اهل هذه المدينة القديمة لم يروا عيبا فمنهم من يستمع :

(خذنى فى جيبك بقى ، أبيع هدومى علشان بوسة ، من يوم ما عضتنى العضة) الخ .

ووراء عالم العوالم عالم الجرى وراءهن ومجالس اللهو بينهن .

وكانت ريشة نجيب محفوظ وهى ترسم غمست فى مباهج تلك الحياة

اللاهية حتى خبت اللوحة من (السكر) وانتشت من الضحكة الطروب وعات من (الفتوة اللعوب) .

وقد حضر الكتاب الثلاثة كلمات ومواقف شائنة قبيحة لا يقبل كتابتها قلم شريف ، بل أن نجيب محفوظ قد سجل فى بعض قصصه (ان الحياء كاذب وموضة قديمة) بالاضافة الى ما يكنه من عطف واحترام للمومسات فالمومس لا تكاد تخلو منها رواية من رواياته وهو يقدمهن فى صورة أشرف من النساء الشريفات بينما تعرض علينا الشريفات فى صورة تدعونا لاحتقارهن والاستخفاف بهن ولعل أخطر ما فى كتابات نجيب محفوظ جملة بعد ذلك .

(دعوته الى الحط من قدسية الدين وهيبته ومزج رموزه مع الخمر والجنس والنساء) .

وله فى هذا الباب مواقف متعددة خلط فيها بين الصورة الاجتماعية وبين السخرية بالقيم الاسلامية .

١ — ففى قصر زعبلاوة يعطى الخمر معنى صوفيا باعتبارها مخدرة للحواس على نحو مبالغ فيه الى حد بعيد حيث يرى ان الانسان لا يتصل بالله تبارك وتعالى فى حالة عشق الا اذا كان فى حالة سكر وهو فى هذا يردد مجموعة من مفاهيم الغلاة من دعاة وحدة الوجود والحلول .

٢ — سوء تصوير مفاهيم الجنة والدار الاخرة فى حوار بين الراقصات والمخمورين من الرواد .

٣ — فظاعة الحديث عن الاجزاء المستورة من الجسم حيث يتحدث فى رواية بين القصرين عن الية المراة والثدى الناهد والعجزه المدقلجة والعين المكحولة والارداف باسلوب قبيح .

٤ — الصور المتززة التى يعرضها كصورة الشيخ يغنى عاريا .

٥ — التعدى الصارخ على الدين والله تبارك وتعالى والرسول والائمة والمشايخ فهو يتحدث فى حكايات حارتنا رامزا الى الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحكاية رقم ٥٠ .

فيقول (وهو يهزأ من التقــاليد الراسخة فلا يتردد فى اجبار شخص على تطليق زوجته ليتزوجها (يعنى واقعة السيدة زينب بنت جحش) وهو كثير الزواج والطلاق ولا يجرؤ أحد على الزواج من احدى مطلقاته فيلقين الحياة وحيدات يتسولن أو ينحرفن) ويغمز الى الرسول صلى الله عليه وسلم فى سخرية شديدة فى عديد من قصصه فى مجموعة (حكايات حارتنا) .

٦ — أما الدين فقد صوره أكثر من مرة على لســان احدى أبطــال رواياته (العظمة الحقيقة للدين لا تتجلى الا عندما نعتبره لا دينــا) ومعنى هذا كله فساد الوجهة فى مخططه القصصى كله ، الذى يصدر عنه بروح فيها الشك والسخرية والاستهانة بالقيم والهزوء بالمقــدسات فليست اذن رواية (أولاد حارتنا) هى وحدها الحاملة للسم ولكن الكاتب نفسه الذى يتخفى وراء مظهر أنيق وعبارات صحفية مرتبة وكلمات براقة هو فى داخل قصصه نتن عجيب وقذارة وفساد يجب أن يعرفه كل من يسأل عنه »؛»

هذا وبالله التوفيق .

● ● ●

القصة وأدب الفراش

(بضـــاعتنا ردت الينــا)

ارتبطت جائزة نوبل بانتصار الغزو الثقــافى فى مجــال القدمة الجنسية التى حمل لوائها نجيب محفوظ .

أتصور أن كتاب القصـــة — شأنهم شـــأن أهـــل الفن جميعـــا قد حوصروا حصـــارا شديدا من قوى الماسونية والروتارى التى اعدت لهم منزلا ناعما فى دور الصحف الكبرى من أجل خدمة أهداف أساسية ترمى الى تدمير مقومات الاخلاق فى المجتمعات الاســـلامية ، وذلك أمر واضح فى تحولات (يوسف السباعى ، واحســـان عبد القدوس ونجيب محفوظ) من حيث خضوعهم جميعا لمفهوم الفن الجنسى الاباحى المكشوف التى رسمه « فرويد » وقعده كثيرون فى مقدمتهم « ســـارتر » .

وقد كان واضحا هذا فى نصوص البروتوكولات التى أشـــارت الى (دارون — فرويد — ماركس) وهى قضية معروفة .

ومن يطالع اوليات هؤلاء القصاصين يجدها قصصـــا غير ملغمة — تنطلق من منطلق التقليد للقصة الغربية ولكنها سرعان ما تحولت ودخل اليها الفن المنظم والهدف الواضح الذى يرمى الى تحويل الصورة الغربية المفردة الى ظاهرة اساسية فى المجتمع واخطر ما فى هذا توجيه القصص الى أن افراد المجتمع كلهم خاضعون لنظرية فرويد فى الجنس .

ومن ثم تتحول الصورة النادرة الى ظاهرة .

واخطر ما تتصل هذه الصورة بالمرأة ، فهى امرأة لا تعـــرف الدين ولا الخلق ، وانما تعرف المطامع والاهواء تبيع عرضها رخيصا فى ســـبيل التمتع — لا بلقمة العيش — بل بالمتاع الوفير والترف .

واذا كان المثل العربى القديم يقول : (تجوع المرأة ولا تأكل بثدييها) .

فان هذه النماذج لا تصور امرأة جائعة — تسعى الى البغـــاء والفحش من أجل الحصول على لقمـــة العيش ، وانما تصور امرأة مندفعـــة وراء أهواء الانطـــلاق والملذات ، لا تبـــالى تقديم عرضها فى سبيل الحصول على

المال لأى انســـان كان ، لا تردها عن ذلك قيمة دينية أو قيمة اخـــلاقية ــ هذا التصور الذى يفرضه نجيب محفوظ واحسان عبد القدوس وغيره لا يوجد فى عمق المجتمع فى الحقيقة وانما يوجد فى نماذج فردية قليلة لا تمثل ظاهرة بمكن أن تصور لتعلن على الملأ وفى الغرب خاصة بالترجمة ان هذه طبيعة مجتمعنا الاســـلامى فى الحقيقة والذى يجعل للعرض مكانا قدسيا .

ولكن هكذا تحاول الماسونية من خلال مخططاتها واتباعها فى حضانة صحف كبرى تحتضن هؤلاء الكتاب وتفسح لهم واذا كان الالحاح على هذا الاتجاه واضح فى بعض شخصيات كتاب القصة وراجع الى وراثيات وروابط اجتماعية معينة فانه ما زال مجهولا وغامضا بالنسبة لنجيب محفوظ الا اذا رددناه الى شىء بتجاهله اليوم ولا يعلن عنه وذلك هو صلته الوطيدة والاكيدة بالجد الاعظم (سلامة موسى) فى هذه الفترة التى كان يتصدر التوجيه فى غرفة مغلقة لا يدخلها الا الحواريون الموثوقون فى جمعية الشبان المسيحيين (كما كشف ذلك فى زكرياته نعمان عاشور وغيره) .

وهو اليوم بعد حصوله على جائزة نوبل يذكر طه حسين والعقـــاد وتوفيق الحكيم ولا يذكر الرائد حتى يخفى الخيط الذى يكشف عن هويته وهو حين يسأل ما هو العمل الذى رشحه لنوبل يقول : لعلهم وجدوا شيئا ، ولكنه لا يكشف الحقيقة التى كشفها تقرير الجائزة نفسه حين أشـــار الى أن قصته (أولاد حارتنـــا) التى هاجم فيها الغيب وسخر من القيم العليا للاديان والتى أحدثت ضجة كبرى عام ١٩٥٩ عندما نشرت فى جريدة الاهرام والتى كتب عنها الكثير فيما بعد والتى منعت من النشر فى مصر وحتى الان ، وهى التى بتهول فى آخرها (ثم مات الجبـــلاوى) والجبلاوى فى القصد هو الله تبـــارك وتعالى سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا وقد اشار الى ذلك مصطفى عبد الغنى حين قال ان الرواية بها العديد من الرموز التى لا يمكن تنـــاولها فى عمل روائى والتى يمكن أن تسىء الى الدين ، هذه الرواية لها اهمية كبرى عند المؤسسة التى اعطت نجيب محفوظ مليونا من الجنيهات ، لم يكن ذلك من أجل سواد عيون الادب العربى ولا اعجابا بالرواية الطويلة ولكنهـــا تشجيعا وتقديرا لهذا النهج الذى جمع بين الجنس وبين السخرية من قيم الاديان فضلا عن الدعوة الفرعونية ، انه اعلاء واعزاز لمذهب الجنس والاباحة

الذى رسمه فرويد وسار علٰيه سارتر وغيره (ولقد كان نجيب محفوظ يقلد سارتر فى الجلوس فى المقاهى هو وصديقه توفيق الحكيم) على النحو الذى رسمته الماسونية لخلق الاجيال الوجودية والاباحية التى اشـــارت اليهـــا بروتوكولات صهيون والتى ما تزال تعمل كالنار تحت الرماد لهدم مقـــومات الدين والاخلاق والقيم فى نفوس الشباب المسلم .

ويصفق الاغرار فرحا وطربا لأن كتابات بعض رموز التغريب والغزو الثقافى ترجمت الى اللغات الاوربية ولو علموا أنهم لا يترجمون الا ما يؤكد ان الادب العربى والفكر الاســـلامى تغرب لوفروا على انفسهم المشقة ، ان للغرب دعوى عريضة فى أنه مؤثر فى كتابات العرب والمسلمين ويريد دائما ان يثبت هذا وما يترجمونه على هذا النحو انما ينشرونه تحت عنوان ضخم هو :

« هذه بضاعتنا ردت الينا »

فالغربيون لا يترجمون الا ما يؤكد أن الادب تغرب وان الامة قد دخلت دائرة الاحتواء وهذا ما اشار اليه دكتور حسين حنفى حين قال : (لقد جاءت جائزة نوبل عندما اصبحت مصر دولة غربية) وهذا يشير الى ولاء بعض الكتاب للغرب والصهيونية وقد اشير الى ما يحفل به نجيب محفوظ وكتاباته فى نظر الكتاب الماركسيين واليهود حين يرون قصصيا يصور المجتمع المصرى العربى الاسلامى على هذا النحو من مؤامرات الاغتصاب والخيانة الزوجية ونشر الزنا والفاحشة فى كل مكان ولا ريب أن وصول المجتمع الى هذا الحد يثير اعجاب الغرب ورضاه لانه يتصور ان الاســـلام قد تراجع فى قيمـــه واخلاقه ، وان عوامل الهدم والاباحة قد اتسع نطاقها ولا ريب ان هذا يعجب مجتمع كمجتمع السويد الغارق فى اباحياته .

ولا ريب أن التفسير الجنسى الفرويدى للمجتمعات الذى يتبنـــاه أنيس منصور ونجيب محفوظ واحسان عبد القدوس وغيرهم هو مذهب مضلل كاذب ، وان جريمة الدراما التى تحاول ان تفرض على كاتب القصة ان يذهب وراء اشد صور العنف فى الجنس اثارة ، هذا من شـــأنه ان يخلق جوا وهميا مضللا ، ليس هو فى حقيقته ممثلا لجوهر هذا المجتمع واعماقه المؤمنة الحريصة على العفة والغيرة والعـــرض ، ولكن هكذا تريد الماســـونية ومن وراءها

بروتوكولات صهيونية وانصار اسرائيل والصهيونية من أجل تحقيق هدف بعيد المنال هو اسقاط الاخلاقية الاســلامية فى مجتمعات العرب والمسلمين توطئه لحصار هذه الامة والسيطرة عليها .

لا نقول هذا من خــلال الادعاء أو الخصومة ، ولكن نقوله من خــلال نصوص كتاب موالون لنجيب محفوظ وأعوانه امثال أحمد بهجت وغيره الذين يرددون كلمات الخيانة الواضحة فى كتاباته : خيانة الزوجة ، خيانة الصديق، خيانة المجتمع .

وليست صور الخيانة والاغتصاب موجودة فى قصته (اللص والكلاب) وحدها ولكن فى مختلف قصصه ، حتى انك ترى كلمة (الخيانة) وكأنها مداد الحبر الذى يكتب به نجيب محفوظ .

ماذا يريد التغريب اكثــر من هذا ، من تصوير مجتمع مســلم آمن يعرف حقوق الله الا قليلا من المستهترين والمستهترات على انه (مجتمع الخيانة) ويكون من حق هذا الكاتب أن يحصل على جائزة نوبل وان يتعاطى الناس سمومه مرة اخرى من خلال أجهزة التسلية والترويح .

ولقد شهد أنيس منصور بأن الصهيونية كانت مستعدة لترشيح نجيب محفوظ لجائزة نوبل ، وان هذه القوى لم تعد تعترض على ترشيحه لانه واحد من مؤيدى كامب ديفيد ، ولقد شهد نجيب محفوظ نفسه بأن اعطاء جائزة نوبل مرتبط بالايمان بقيم الحضــارة الغربية ، فلم يعد هناك شك فى هذا الولاء الواضح للفكر الغربى على نحو ما عرف باسم (بضاعتنا ردت الينــا) فهذا فكر يروج لمفــاهيم الغرب وقيمه بل لمفاهيمه السياسية فى قبول جنس غريب فى قلب الامة الاســلامية ، واذا كان يرى هو أنه عبر عن حرية الانســان وتحريره من كل ما يعوقه ، فان هذا المعنى لا يرضى دعاة الحضارة الغربية الا اذا كانت الحرية بمفهوم الماسونية ومتصلة بحرية الجنس اساسا ، وليست حرية الاوطان وتحريرها من الدخيل ، ولقد عرضت جائزة نوبل على رجلين من أساطين الغرب فرفضاها وهما : برناردشو وسارتر ، ايمانا بأنهمــا قيد على حركة الكاتب وولاء لمفهوم معين يحد من حرية الكاتب فى أن يقول ما يشاء ، واذا كان نجيب محفوظ يصر على ترشيح الطيب صالح فان ذاك من

أجل قصته الجنسية المثيرة التى كانت مقررة فى كلية آداب القاهرة فى العام الماضى وأحدثت ضجة مشهورة ، ومن الطبيعى أن تنادى المدرسة كلها فى التراشيح وعلى رأسها يوسف ادريس ، وحنا مبينا والطيب صالح الخ ولقد كان دعاة هذا النوع من الكتابة أشد الناس تحفظا فى بيوتهم فلم نسمع عن بيوت توفيق الحكيم أو احسان عبد القدوس أو نجيب محفوظ شيئا بل هناك اقتناع كامل بأنهم لا يدخلون فى دائرة الكاميرا .

والحقيقة فى النهاية اننا ازاء عمل مغرب أرضى الحضارة الغربية لانه استمد منها وجهتها وحاول ان يصور المجتمع المصرى العربى الاسلامى بصورة مزعجة ترضى الغرب وقد انطلق فى تصويرها من نظرية مضطربة سقطت منذ وقت بعيد هى نظرية التفسير الجنسى للحياة والمجتمع التى وضعها فرويد وطبقها سارتر فى قصصه الوجودية .

ومن هنا فان شرائح الطبقة الوسطى التى رسمها نجيب محفوظ ليست سليمة تماما ولكن دخلتها دخائل أبعدتها عن الواقع .

واعتقد لذلك أن الصورة التى رسمها لا تعين على معرفة حركة المجتمع لانها قد اختلطت بأمرين :

الاول : تغليب التفسير الجنسى .

الثانى : ما تفرضه فنية القصة وخداع الدراما من اخضاع الحقيقة التاريخية للنظرة الفنية التى يشوبها الهوى .

ومن هنا فان جائزة نوبل اعطيت لنجيب محفوظ تحت عنوان واحد لا سواه هو :

« بضاعتنا ردت الينا »

● ● ●

الباب التاسع

(١) كيف تحولت وجهة نظر الدكتور هيكل

اجاب الدكتور محمد حسين هيكل مؤلف كتاب حياة محمد عن تساؤل طالما ردده الكتاب عن الاسباب والدواعى التى دفعت هذا الكاتب السياسى الذى كان غارقا فى الصحافة السياسية سنوات طويلة رئيسا لتحرير جريدة السياسة والذى كان احد دعاة الادب الغربى والحضارة الغربية ، كيف امكن ان يفلت من هذا النطاق المحكم : نطاق التغريب فيحمل لواء الدعوة الى الحضارة الاسلامية ولا يرى سبيلا لنهضة هذه الامة الا عن طريق الاسلام .

وقبل أن نورد الاجابة التى قدمها الدكتور هيكل نقول ان هذا الرجل كان قد نشأ فى اطار (الجريدة) التى كان يصدرها قريبه (لطفى السيد) وانه تشكل فى جو الاستعمار البريطانى والاقطاع والتبعية التى كان يعيشها كبار الملاك للنفوذ الأجنبى وانه عمل منذ عاد من أوربا مع احد الاحزاب السياسية التى كانت توصف بانها من الاقليات والتى كانت معروفة بولائها للنفوذ الاجنبى .

ولكن : كان الدكتور هيكل يتميز بالرغم من كل هذا الجو بان له شخصية خاصة فقد كان متطلعا الى مثل أعلى بالنسبة للنهضة فى الشرق وكان يدعو الى الاقتباس من الغرب ولكنه لم يكن تابعا أو داعيا الى تبعية .

ولذلك نجد له تلك المواقف العديدة التى تجعله متميزا عن تلك الجماعة التى كانت تحمل لواء التغريب وتمعن فى التبعية امثال طه حسين ومحمود عزمى وعلى عبد الرازق .

نجده مثلا يرفض ان يقوم ناد دولى للفكر يتبع فيه كتاب العرب والمسلمون كتاب الغرب يقول : ان النتيجة المنطقية من تأليف هذا النادى انما هى أن يصبح الاجانب مسيطرين على الادب العربى وليس هذا الا صورة من النوادى الاخرى التى سعى لانشائها بعض الاجانب المقيمين فى مصر بحجة توثيق العلاقات وكانت النتيجة أن أصبح دارا للاحتفاء بالغربيين وتكريمهم

دون غيرهم من ادباء البـلاد الشرقية انما افهم ان يكون هناك ناد للقـلم اكثريته من الادباء الشرقيين وان يكون الجميع ممن يكتبون أو يؤلفون باللغة العربية ولو كانت جنسية بعضهم ليست الجنسية العربية .

وهو فى هذا يخالف طه حسين صاحب فكرة النادى الدولى كذلك فهو يخالفه فى موقعين أخرين : فى اراء المستشرقين ووجهة نظرهم فى الاسـلام والعرب وفى أثرهم فى شئون السيطرة الاستعمارية .

ولقد انزعج طه حسين اشد انزعاج عندما أخذ صـديق عمره « هيكل » يتجه اتجاها آخر وخاصة عندما هاجم هيكل اتجاه طه حسين فى كتـابة السيرة ووصفه بانه اتجاه خـاطىء حين قال : انه يعلم أن كثيرا من هذه الاسـاطير التى تروى انما هى بعض الاسرائيليات التى روجهـا اليهود بعد عصر النبى متأثرين بحقدهم على محمد لانه حاربهم واجلى الكثيرين منهم عن بلاد العرب ومهد بذلك لاجلاء البقية البـاقية بعد زمن قصير من وفاته متأثرين بحفيظتهم على المسلمين حفيظة جعلتهم يروجون الالوف من الاحاديث المكذوبة على النبى ومن القصص التى تنـافى تعـاليمه منافاة صريحة .

ثم تساءل : ماذا يكون هذا الدافع القوى الذى دفع طه حسين الى هذا .. وبعد فنعود الى اجابة الدكتور هيكل على التساؤل عن السر فى كتابته « حياة محمد » يقول :

فكرت فى وضع كتاب عن حياة النبى العربى منذ صيف ١٩٣١ وانمـا دعانى الى هذا التفكير اننى كنت عظيم الثقة بالعلم والطريقة العلمية الغربية وانها ستؤدى بالانسانية الى معرفة حقيقة الكون معرفة هى ملاك سـعادة الانسـانية وظلت ثقتى هذه قائمة حتى أعلنت الحرب الكبرى وكان أكبر رجائى اثناء ذلك ان اسيغ فى حياتنا فى الشرق صورة من ثقافة الغرب وادبه وفنه .

فلما وضعت الحرب أوزارها لبثت انتظر نتائجها العالمية فى السـلام العام وحرية الشعوب وحقهـا فى تقـرير مصيرها وكانت السنون كامـا توالت بعد الصلح تفتح عينى على حقيقة بدأت تقوى صورتها عندى حتى بلغت غاية القوة فى عام ١٩٢٠ : هذه الحقيقة ان العـالم يعانى قبل كل شىء (أزمة روحية) دفعت كتاب الغرب وفلاسفته الى التماس العـلاج لهـا فى فلسفة الهند الروحية والى جانب هذه الحقيقة لاحظت فى اتجـاه

السياسة الاوربية ظــاهرة غريبة تلك هى نشــاط التبشير المسيحى فى الامم الاسلامية وتأييد السياسة الغربية فى ذلك الوقت لانصــار الجمود . اذ ذاك رأيت ان ادرس لعلى أجد فى حيــاة النبى الوسيلة لعــلاج ازمة العالم الروحية ولانهاض الشرق نهضة تبعث فيه حيــاة جديدة موازية لحياة الغرب بعد القرن الخامس عشر .

وبدأت دراستى لكتــاب السيرة لابن هشــام ثم اطلعت على مؤلف بالفرنسية لاميل درمنجم ثم قرأت عدة كتب أخرى اقتنعت بعد قراءتها بأن هذه الدراسة جديرة بأن تهدى العــالم كله سبيلا جديدا للحق اذا هى تمت بروح علمى وقد انتهى الكتاب على الصورة التى رجوتها والتى كان نطــاق البحث قد ازداد وترامى الى أبعد مما كنت أتوقع وان كنت وجدت فى دراسة النبى العربى ودينه وتعاليمه والحضارة التى وضع أساسها ما خلق أمامى عالما جديدا من عوالم التفكير لم يكن ذهنى متجها اليه من قبل واعتقد انى لا استطيع التحول عن فكرة قائمة عندى وهى بحث الحضارة الاسلامية بما يمكن للباحث استنباطها من الكتاب الكريم ومن الحديث ومن عهد النبى نفسه » .

هذا ما كتبه الدكتور هيكل عن هذا التحــول الخطير الذى وقع له ونستطيع أن نضيف اليه ما أورده فى صدر كتابه (فى منزل الوحى) وهو اعتراف مكتوب بأنه وجد ان اى أسلوب غير الاسلوب الاســلامى فى بناء هذه الامة لا يؤدى وانه جرب أسلوب العودة الى الفرعونية ووجدها عمــلا فاشلا باعترافه وجرب أسلوب التبعية الغربية ووجده كالبذر تلقيه فى الارض فلا ينبت .

والحق ان هيكل هو واحد من هذه المدرسة التى عادت الى الاصالة بعد أن تبين لها فســاد الطريق الذى ســارت فيه وانهم لم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون عاد منصور فهمى واسماعيل مظهر وهيكل ولم يبق على الاصرار غير الدكتور طه حسين .

يقول الاستاذ المازنى : كنت اتصور الدكتور هيكل أجنبيا طاب له المقــام فأقام ولكنه بقى محتفظــا بخصائصه التى جاء بها ولم يتأقلم ولكنى كنت أعود الى ما يكتبه فى السياسة فاستغرب ذلك أن روحه هى روح المؤمن عميق الايمان . ومضت الايام فعرفته وكتب لى الحظ ان أعمل معه وان أكون

أحد اعوانه فى السياسة فلما شرع ونحن فى غمـرة ثقيلة من المشـاغل السياسية — (حياة محمد) كنت واحدا من القليلين الذين لم يستغربوا هذا الاتجاه ولم يقع منهم موقع المفاجأة بل كنت على يقين جازم بأنه — بفضل استيلاء روح الايمان على نفسه — أقدر من يكتب عن حياة محمد لقد اغتبطت لان نظرتى لم تخطىء حين اعتقـدت من قبل ان فى هذا الرجـل كنز من الايمان » .

وصدق المازنى ولقد كان الدكتور هيكل حقـا صادقا مع نفسـه فانه سرعان ما اتجه وجهة الاصالة وفارق معسكر التغريب واختلف مع طـه وغيره ولم يضر من ذلك شيئا .

غير ان هناك ملاحظة صغيرة نوردها (للتـاريخ) : ان المنهج الذى اتخذه الدكتور هيكل فى كتابه حياة محمد بالرغم من أنه كان فى ذلك الوقت ضربة للتغريب وفرحة للمؤمنين الا انه لم يخلص خلوصا كاملا من التبعية فقد وقف هيكل عند الاسراء وعند المعجزات موقفا غامضا وكان لبدءه الدراسة من كتاب اميل درمنجم أن وقع فى مزالق كشف عنهـا اكتاب المسلمون فى هذه اللحظـة ومن بعـد .

● ● ●

(٢) الدكتور هيكل والدعوة الاسلامية

قرات كتاب وجهة الاسـلام ملخصا فى مجلة السياسة الاسبوعية ١٩٣٣ للمستشرقين جب وماستيون وبرج وكنت متابعا لجريدة السياسة الاسبوعية وكتابات الدكتور هيكل لحيـاة محمد (صلى الله عليه وسلم) وقرات كل ما كتبه فى الرسالة والهـلال وتابعت قصة ظهور البهائيين عندما جاء عباس البهـاء الى مصر وما كتبه محمد عبد الله عنان عن الفرق الهدامة وما ترجم عن محمد على اللاهورى زعيم الاحمدية وما لخصه عنه الاستاذ العقـاد فى الرسالة على ظن منه انه نهضة اصلاحية فى الاسـلام كمـا ردد ما ذكره براون عن البهائية والقاديانية واعتبارها نهضة اسـلامية بينما كانت هى محاولة لتدمير الدعوة الاسـلامية .

وقرأت فى هذه الفترة ما كتبه الشيخ عبد الله عفيفى فى الرسالة تحت عنوان (ميراث ولا وارث له) ورأيت تقدير الكتاب اسماعيل مظهر والعقاد وغيرهم لكتاب ماركس نورد زعيم الصهيونية فى ذلك الوقت وما أثير حول كتاب انهيار الغرب لشبنجلر .

كل هذا كان بمثابة ارهاص للدعوة الاسـلامية التى كان عليها أن تكشف مفهوم الاسـلام الحقيقى من كل ما يجرى على السـاحة ولقـد كنت فى سن السابعة عشرة عندما قرأت تقرير جب (وجهة الاسـلام) كما لخصه الدكتور محمد حسين هيكل فى ملاحق السياسة وقد هزنى وفتح أمامى باب الفهم للاخطار المحدقة بالاسـلام واذكر أنى سألت عنه الاستاذ حسن البنـا وعرفت أنه قرأه والحقيقة ان التقرير كان موجه الى الدعوة الاسلامية أساسا وان قدرة هيكل فى مواجهة الخطر الذى كشف عنه هذا التقرير كان محدودا ولكنه لا ريب كان من العوامل الاساسية التى وجهت الدعوة الاسلامية الى الكشف عن مخطط التغريب (وهى الكلمة التى اطلقت لاول مرة على ما كان يسمى مخطط الاستشراق والتبشر والذى حمل معه من بعد عبـارة الغزو الثقافى والفكرى .

وقد كنت متابعا للسياسة الاسبوعية وللملاحق التى صدرت منهـا فيمـا بعد وخاصة تلك الفصول التى كتبها الدكتور هيكل عن « حياة محمد » حين ترجم كتاب الكاتب الفرنسى اميل درمنجم والتى استوت من بعـد فى كتاب مستقل باسمه ومن متـابعتى للسياسـة الاسبوعية قرأت فصـل (وجهة الاسلام) فى ملحق ١٤ اكتوبر ١٩٣٣ .

وكنت أرى أن الدكتور هيكل يحاول أن يخرج من دائرة الاحتـواء على نحو من الانحـاء ولذلك فاننى تحدثت معه فى أول لقـاء معه عام ١٩٥٦ تقريبا عن هذه الفصول التى كتبها تحت عنوان الشرق الجديد من بعد ، ولكن الرجل لم يكن متذكرا هذه الفصول التى جمعها ابنه الذى كان يرافقه عندما تحدثت اليه (الاستاذ أحمد هيكل) وسررت لصدورها فى كتاب تحت هذا الاسم وقد حاول ابنه ان يجمع فى هذا السفر كتاباته الاسـلامية التى سبقت وصاحبت كتابته عن الرسول صلى الله عليه وسلم ولكنى لاحظت وسجلت منذ اليوم الاول غياب ثلاث مقالات هامة هى :

— النور الجديد أيان يكون مطلعه (الهـلال) .

— الاجتهـاد والتقليد (السياسة الاسبوعية) .

— أزمة العـالم : ازمة عقيدة (السياسة الاسبوعية) .

وكان المقـال الاول (النور الجديد) من بين مقالات ثلاثة قرأتهـا فى مطالع الصبا وكان لها أثرها فى نفسى وفى وجهتى .

كان تحرك الدكتور هيكل نحو الاسـلام تحركا غربيا لم يستطع معه أن يدخل فى اطار الاسـلام الصحيح بمفهومه الاصيل (كدين له منهج حياة ونظام مجتمع) ولذلك فان رده على (جب) فى كتابه يوحى بأنه لم يستوعب المؤامرة تماما وانه ما يزال يرى فى حضارة الغرب منطلقا للمسلمين ولا يأخذ عليها الا قصورها فى حاجات الروح والعاطفة ولا تزال تغلب عليه فكرة وحدة البشرية التى لا يمكن ان تتحقق فى عالم منقسم بين السادة والعبيد ، على كل حال فقد عودنا اتجاه هيكل فى هذا الوقت كسبا للدعوة الاسـلامية واحسسنا أن اليقظة قد استطاعت أن تهز مقاعد العلمانيين وتدعوهم الى البحث عن دور جديد فى اطار الاسـلام ومن هنا كانت كتاباتهم عن السيرة والتاريخ الاسـلامى .

ولكن بقى شىء هام : ما هو مدى ايمـان هؤلاء بالاسـلام كمنهج حياة ومن ذلك ما حدث للاستاذ العقـاد الذى كتب الفلسفة القرآنية والعبقريات وذلك انه قصد الى مقر الدعوة الاسـلامية وأخذ يسأل عن مؤلفات الاستاذ المرشـد ويعجب حين يقال له انها رسائل صغيرة ، ويقول أما من كتـاب ضخم عن الاسـلام ؟

ولقد كان اتصـال هيكل بالسيرة النبوية عامل من عوامل تعـديل موقفه خاصة بعد ان كان مغربا فى الاتجـاة نحو الفرعونية ونحو الحضـارة الغربية ، وكان نشر فصـول حيـاة محمد فى ملاحق السياسة الاسبوعية عاملا هاما فى كشف ما بها من اخطـاء فقد تصدى كثير من البـاحثين لهذه الفصول المترجمة عن (اميل درمنجم) فكشفوا اخطـاء درمنجم وخاصـة محاولته فى تصوير الاسـلام وكتابه وكان له طابع مسيحى ، أو الادعـاء فى تفسير بعض الايات بان الله تبارك وتعالى يطلب الى النبى سؤال أهل

الكتاب . ولقد صحح الدكتور هيكل هذه الاخطــاء عندما جمع كتابه للطبع ورفع هذه الهنات ولقد توقف هيكل عن متــابعة (درمنجم) بعــد أن تبين له أن المؤلف الفرنسى يتجاهل تمــاما علاقة النبى صلى الله عليه وســلم والمسلمين باليهود فى المدينة ، فلعل هذا هو الذى دفعه الى الرجــوع الى السيرة ، ولقــد جلينــا هذه المعــانى فى مواضع كثيرة من مؤلفاتنا وخاصة عندما تعرضنا لكتابات السيرة العصرية .

ولا ننسى هنا أن نذكر أن الكتابات العصرية للسيرة كانت من الوسائل التى توسل بهــا التغريب الى استخدام أسماء لامعة لمحاولة تقديم الاسلام عن طريقهم ، كبديل لما كانت تقدمه الدعوة الاسلامية حين ارتفع صوتهــا بالدعوة الى مفهوم الاســلام الصحيح الجــامع بين العقيدة وبين منهج الحياة وان الاســلام دين ودولة ، كذلك فان الدكتور هيكل لم يستطع ان يتحرر من المفهوم العلمانى فعمد الى انكار المعجزات ما عدا القرآن .

لقد هاجم الدكتور هيكل المستشرقين فى كثير من اخطائهم ولكنه مع الاسف لم يستطع ان يخرج عن اســار المذهب المادى العلمانى الغربى .

ولطالما كتب هيكل عن فســاد مناهج التعليم وحملهــا الاثر الخطير للتغريب فى مقــالات متعددة نشرها فى السياسة اليومية .

ولكن مع الاسف جــاء بعد ذلك وزيرا للمعــارف واحتضنته التركية العلمانية التى كان قد رسمها دنلوب وسار بها خلفائه ولم يستطع أن يحقق ما كتب عنه بل لقد استطاع الدكتور طه حسين فى ظله أن يدافع عن كثير من ارائه المسمومة .

● ● ●

الباب العاشر

حركة الاصلاح الإسلامى فى العصر الحديث

أولا — دور جمال الدين الافغـــانى :

ثلاث محاور يمكن أن يدرس جمال الدين الافغانى منها :

المحور الاول : جمال الدين ومحمد عبده (أو محور الثورة أم التربية) :

فمن خلال التجربة التى قام بها جمـــال الدين ومحمد عبده فى سبيل انبعاث اليقظة الاسلامية (ومن خلال لقائهما فى مصر ثم فى باريس واصدار العروة الوثقى) ثم انفصالهما بعد ذلك يتبين أن جمـــال الدين الافغانى كان يحمل لواء الثورة من أجل تحقيق أهداف اليقظة وان الشيخ محمد عبده كان يرى أن التربية هي الوسيلة الصالحة لذلك ، ولعل هذه كانت نقطة الخلاف بينهما ولكن يبقى أن يكون جمال الدين هو الذى أيقظ الحس الوطنى والشعور بالحرية والدعوة الى امتلاك الارادة ، وكانت حملته على الاستعمار هى كبرى أهدافه فقد كان يرى أن الاصـــلاح الحقيقى فى العـــالم الاسلامى يبدأ أولا بالتخلص من النفوذ الاجنبى الذى كان فى ذلك الوقت يحث الخطى للسيطرة على البـــلاد العربية والذى كان قد سيطر فعـــلا على الهند وما حولها وكان الافغانى يطمع فى ان يتخذ من مصر منطلقا لدعوته الى الوحدة الاســـلامية بمفهوم أن يكون القرآن الكريم هو أمام المسلمين وهو بهذا قد وضع أساس الحركة الاسلامية المعاصرة فقد كان تركيزه شديدا على القرآن واعتباره العروة الوثقى التى تربط بين المسلمين والقادر على جمع كلمتهم .

ولكن التجـــربة الطويلة التى خاضهـــا قد اكدت أن منطلقه السريع العاصف لم يكن هو الاســـلوب الامثل وان اســـلوب الشيخ محمد عبده هو الاكثر صلاحية لولا انه سخر به وقال للشيخ انما أنت مثبط .

المحور الثــانى : جمال الدين وسيد احمد خان (الأصـــالة والتبعية)

ومن هذا المنطلق نجد أن جمال الدين الافغانى كان أكثر أصالة اذ انه التمس منهج القرآن الكريم وهاجم اسلوب التغريب الذى أخذ به سيد أحمـــد خان حين حمل لواء فكرة (الدهرية) أو نظرية دارون وما حولها من مفاهيم من

انكار الغيب ومفهوم الخلق الاســــلامى . وهى النظرية التى فتحت الطريق أمام المسلمين الى الفلسفة المادية والعلمانية وكان هذا المفهوم قد أدخله النفوذ الانجليزي على المسلمين فى الهند واخذ يستشرى لولا أن تصدى له جمال الدين الافغانى بكتابه (الرد على الدهريين) الذى ترجمه الشيخ محمد عبده من بعد الى اللغة العربية والذى يعد الركيزة الاولى لمقاومة سموم الفكر الغربى . وهذا المحور يؤكد أصالة فكر جمال الدين والتماسه مفهوم القرآن الكريم وله فى ذلك مقالة مستفيضة تؤكد ســـلامة وجهته من هذه الناحية .

ذلك أن جمال الدين ومحمد عبده كانا فى الحقيقــة من نتــاج دعوة التوحيد التى قادها الشيخ محمد بن عبد الوهاب والشوكانى وغيرهما من (الائمة الخمسة) الذين حملوا هذا اللواء ، غير أن دعوة التوحيد انتقلت من مرحلة الى مرحلة وكانت هذه المرحلة التى عاشها جمال الدين أخطر المراحل لانها كانت تحمل أرهاصات السيطرة الاستعمارية على البلاد العربية .

ومن هنا فقد كان موقف جمال الدين من دعوة الدهريين هو أول صيحة لمواجهة ما أطلق عليه التغريب فى هذه المرحلة الباكرة .

المحور الثالث : جمال الدين والسلطان عبد الحميد :

ويكشف هذا المحور الثالث عن فكرة الجامعة الاســــلامية وكيف كان تصورها عند جمال الدين باعتباره زعيما سياسيا واجه الأضطهاد فى كل مكان وصل اليه وبين السلطان عبد الحميد خليفة المسلمين الذى كان يحمل لواء الدعوة الى (يا مسلمى العـــالم اتحدوا) وقد ألقى جمال الدين عصـــا التسيار أخيرا فى استانبول والتقى مع السلطان وكان واضحا أن هنــاك فرقا واسعا بين المنطلقين ، فقد كان السلطان يصدر عن أرضية واســعة للخلافة الاسلامية التى تحمل لوائها الدولة العثمانية التى تضم العـــرب والترك موسعا اياها لتجمع كل عناصر الامة الاسلامية من هنود وفرس وغيرهم ، أما جمال الدين فكان دعوته تنطلق من محاولة اختيار قطر اسلامى كمصر أو غيرها لحمل لواء الدعوة وهو ما لم يتيسر تحقيقه بعد اتصـــالاته الواسعة فى افغانستان ، والهند ، ومصر ، والسودان ، وغيرها .

كذلك فقد تكشف من اللقـــاء بين جمال الدين والسلطان عبد الحميد

تلك الفوارق الواسعة بين الرجلين والمنهجين والاســلوب النفسى ، وقد شهد جمال الدين لعبد الحميد بأنه كان يحمل لكل خطة يحاول النفوذ الاجنبى انفاذها ما يغايرها وكيف أنه كان يقظــا وقادرا على دفع مؤامرات النفــوذ الاجنبى .

● ● ●

ولقد تحدث الكثيرون عن صــلة جمال الدين الافغــانى ومحمد عبده بالماسونية وهى لم تكن الا جزء من أسلوب جمال الدين فى مواجهة الامور ، ذلك الاسلوب الذى وصفه محمد عبده حين قال : (لقد هدمت الحدة فى جمال الدين ما بنته الفطنة) .

فقد كان يرى أن أى منفذ يمكن الولوج منه الى تحقيق الهدف ممكنا ، فلا يتردد فى اقتحامه ، وكذلك فعــل أول الامر حين دخل الماســونية ولكنه حين اكتشف أنها خدعة ماكرة ، سرعان ما انصرف عنها وانشــأ محفله الخاص .

لقد كان جمال الدين صاحب أسلوب الثورة فى الاصلاح ، وهو أسلوب لم تتوفر له وسائله ، فان انشــاء جماعات (العروة الوثقى) فى البــلاد العربية وغيرها لم يحقق الهدف فى تكوين رأى عام ، اذ سرعان ما استطاع النفوذ الاجنبى اجتياحه ، ثم لم تلبث العروة الوثقى أن توقفت ، ورجــع الشيخ محمد عبده الى المشرق ليجد الامور قد تبدلت فكان لابد من التماس أسلوب التربية والتعامل مع النفوذ الاجنبى على طريق المسالمة واصطناع أسلوب الاصــلاح .

ولكن هذه التجربة كلها بكاملها كانت عاملا أساسيا فى حركة اليقظة فقد أحيت المفهوم الاصيل الجامع للاســلام ، واحيت اللغة العربية والشعر العربى والادب وفتحت الباب أمام العودة الى منهج الله تبارك وتعالى ومهدت الخطوات التى جاءت من بعد ، واتسع نطاقها فى الشــام والعراق ومصر والمغرب العربى تحت اســم (السلفية) وهى لم تكن سلفية جــامدة بل مستنيرة اعطت حركة المقــاومة للاستعمار طابعا قويا وفتحت الابواب أمام أضواء العودة الى المنابع والتماس مفهوم الاســلام الجامع بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع فى المرحلة التى تلت ذلك وأصبح الاسلوب القرآنى هو المنطلق الحقيقى بعد أسلوب المعتزلة الجدد .

(ثانيا) ماذا قدم إقبال لحركة اليقظة الإسلامية

أمران لعلهما أعظم ما يمكن أن يقال عن محمد اقبال :

الاول : ايمانه بما قال له والده : « اقرأ القرآن وكأنما عليك أنزل »

الثانى : ايمانه بأن قلمه وعطائه كله خالص للاسلام من أجل الدعوة الى النهوض بالامة الاسلامية واحياء الاسـلام .

فهو الشاعر الاسلامى الوحيد فى عصرنا الذى وجـه كل شعره الى الاسـلام بمفهومه الصحيح ، وقد جعل من الشعر منطلقا الى بناء الامة الاسلامية المتجددة على هدى التوحيد الخالص والايمان العميق برسـالة الاسـلام وتبليغ القرآن الكريم للعالمين .

قال الاستاذ الزيات اذا كان حسان هو شـاعر الرسول صلى الله عليه وسلم فان محمد اقبال هو شاعر الرسالة .

ومجال الحديث عن اقبال يتجاوز الحدود : كل الحدود

(وقد وجدت مجال القول ذو سعة)

فان وجـدت لسـانا قائلا : فقـل

عاش فى الغرب وتعلم فكر الغرب ولكن كانت أمانته للاسـلام فى ثقـافته وعلمه كله ، لم ينبهر بالغرب أو ينحاز اليه كمـا انحاز الذين خدعهم هذا الفكر ، واحتواهم ، الا من عصـم الله وقليل ما هم ومنهم غير اقبال مالك ابن نبى .

لقد عرف الغرب وفكره ليصحح موقف المسلمين منه وليدلهم على ان منابع الاسلام هى أكثر أصالة وقوة وان كان الغرب قد نهل من منابع الاسلام فقد حول ذلك الى بوتقته اليونانية الرومانية ، لقد اعطانا اقبال النموذج : نموذج المسلم الذى يذهب الى الغرب فى حماية من ايمانه فلا تستطيع أى قوى أن تحتويه ، ويستطيع بيقينه أن يفلت من شباك الصيد لانه كان قد تزود قبل سفره بزاد عميق من القرآن ، فقراه كأنما أنزل عليه وهو لم يقف عند ذلك فحسب ولكنه كشف لنا حقيقة العلاقة بين الغرب والعلوم الاسلامية فقال فى كتابه تجديد الفكر الدينى :

ان هذا المنهج التجريبى الاسـلامى نقل الى العالم الحديث عن طريق الاندلس وان آراء روجر بيكون أصدق وأوضح من آراء خلفه فرنسيس بيكون، فقد استمد آرائه من الجامعات الاسلامية فى الاندلس والتاريخ على ما يقول شهيد ، فدراسات روجر بيكون للمصـادر الاسـلامية مسجلة بموافقتها ومصادرها وهو يغلفها بمقولات زائفة منها قوله : لو اتيح لى لاحرقت كل كتب أرسطو لان دراستها يمكن ان تؤدى الى ضياع الوقت والوقوع فى الخطأ وازدياد الجهالة ، ذلك لان كتب أرسطو تعرض منطقـا لا يؤدى الى معرفة الحقائق التى تمثل الواقع فى حين يمثل المنهج القرآنى حقـائق مستمدة من الاستقراء والاستخلاص والتجريب وقد أتبعه العلماء العرب والمسلمون فى الفقه والطب والعلوم الكونية والطبيعة والهندسة فكانت لهم السيادة العلمية نحو قرون عشرة .

وقد عاش اقبال تجربة قومه رغبة فى ابتعاثهم على أسس صحيحة من مفهوم الاسـلام الصحيح ، يقول دكتور سمير عبد الحميد فى اطروحته عن اقبـال :

ان اقبال قد سار فى دعوته الى انبعاث مفهوم الاسـلام الاصيل على نفس الطريق الذى عرفه المسلمون فى خلال حركة اليقظة فى العصر الحديث فقد تابع خطوات الشاه ولى الله الدهلوى ومحمد بن عبد الوهاب وجمال الدين الافغانى ويرى اقبال أن الدهلوى هو أول من وجـه العنـاية الى الشريعة الاسلامية وكشف عن أسرارها وغوامضهـا وبهذا مهد السبيل لدراستها من جديد للقيـام بمهمة (التجديد) لمسـايرة التطورات الحـديثة وملابساتها الطارئة وازالة الركود فيها لتصبح سهلة مرنة تسـاير حياتها وان اقبال يؤمن بتحرير الفكر الاسلامى من جموده وبضرورة التكامل بين العقل والقلب والفرد والمجتمع والروح والمادة والدين والعلم . وذلك فى مواجهة ما يحاوله الاستشراق من التركيز على جوانب معينة من التراث والمبالغة فى اذاعتها وفى مقدمتها دراسات الصوفية المتصلة بالمفاهيم المنحرفة والدخيلة على مفهوم الاسلام الاصيل مما كان سببا فى تحول الاسلام من الايجابية الدافعة الى عقيدة مستلة تأملية الامر الذى أدى الى حـالة من التشـاؤم والقدرية ، وان الغرب لم يقبل تحرير العـالم الاسـلامى الا على

أســاس مفروض عليه وهو ان يدخله فى فكرة فكان التحرر من النفــوذ العسكرى علامة على الوقوع فى أزمة سيطرة نفوذ نظرى من جــانب الغرب ويدعو اقبال الى التعارف على الاساس الواضح والصحيح لفكرنا وذاتنا وشخصيتنا وان نؤمن بقيمنا الانسانية التى نبنى عليها تصورنا الفكرى فاذا وجدنا هذا الاساس وهو موجود واتفق عليه تحققت وحدة الفكر التى تحول دون البلبلة والاضطراب فى تية نظريات الغرب فاذا تحققت وحدة الفــكر كان من السهل مواجهــة تيــارات الفكر الوافد كله دون ان تقتلعنــا أو تمسخنا » أ . ه النص .

والواقع انى أعتقد ان هذه هى جوهر فلسفة اقبال وتلك قضيتــه الكبرى التى استطاع أن يفجرها والتى قامت عليها تيــارات الفكر الاسلامى فى قارة الهند عن طريق الرجلين العظيمين : المودودى والندوى ، بل اننى اعتقد وقد مضى الان نصف قرن على هذا الكلام ، انها قضيتنا نحن العرب والمسلمون اليوم التى نسميها التغريب والغزو الفكرى . وقد جلاها اقبال فى يسر وبســاطة ووضع لها علاجها وحلها ، وهكذا أضاف اقبال الى الفكر الاسلامى الحديث اضافتين كبيرتين : أولاهما : الكشف عن الدور الذى قام به الاسلام حين انشأ المنهج التجريبى ومنهج المعرفة ذى الجناحين اللذين تبناهما الغرب وانكر فضل المسلمين فيما أطلق عليــه (مؤامرة الصمت) والاخرى قضية الغزو الفكرى والتغريب ، والعمل الذى يجب أن يمضى فيه مفكرو الاسلام لتحرير الفكر الاسلامى من التبعية لمناهج الغرب من ناحية وللتنبه لاخطار الاستشراق فى احياء جوانب معينــة فى التراث مثل اعلائه العقــلانية والاعتزال من ناحية والفكر الفلسفى الصوفى فى قضــايا وحدة الوجود والحلول وذلك بهدف هدم وحدة الفكر الاسلامى القرآنية المصدر وابعاد المسلمين عنها .

أما العمل الاكبر الذى قدمه اقبال فهو منهجه فى بنــاء الانســان المسلم هذا الذى أطلق عليه اسم الذات (خودى) وتلك هى نظريته الاجتمــاعية الاساسية التى وجه اليها فكرة فى مواجهة التحديات التى تواجه المجتمــع المسلم فى بيئة الهند ، نتيجة ظروفه ، هى نفس الظروف والتحديات التى واجهت المجتمع الاســلامى فى كل بلاد المسلمين نتيجة الاحتلال الاستعمارى

والنفوذ الاجنبى وكانت فكرته عن الذات ترمى الى هدم نظرية وحدة الوجود التى فرضها التصوف الفلسفى وتدعو الى الارادة والمسئولية الفردية التى سلبتها نظرية وحدة الوجود التى افسدت النفس المسلمة ودفعتها الى التواكل والاستسلام ، وكان اقبال يرمى الى تقديم هذا المفهوم عن طريق شعر يهز النفوس ويقرع القلوب بعد أن عجزت كتابات المصلحين أمثال ابن تيمية من التأثير فيها لاعتمادها على المنطق .

وقد قسم اقبال نظريته الى عدة حلقات ومراحل متكاملة :

اثبات الذات ، استحكام الذات ، توسيع الذات فى تكميل الذات وقد اعتمد اقبال فى كل هذه النقاط على القرآن الكريم الذى يدعو الى السعى فى الارض وعمارتها .

وقد هزت أشعار اقبال المثقفين المسلمين الذين كانت مفاهيم الغربيه قد أغتالتهم ثمة ، فكادوا يحسون بعظمة الاسلام ومدى فهمه الرفيع للانسان المستخلف فى الارض ، والذى دعاه ربه الى العمل .

ولقد كانت وجهته ان يقدم أدبا اسلاميا رفيعا يهز النفوس ، بديلا للادب الاعجمى الفلسفى الذى وصفه بأنه يخدر النفوس ويذل طبائع الناس ، حيث قال ان أدب اليأس لا يمكن أن يخلد فى الدنيا ابدا ، ولابد أن يكون الادب الاسلامى داعيا الى الامل والرجاء فى حياة الأمة ، هكذا كانت دعوة اقبال الى بناء النفس المسلمة من جديد على الايمان والسعى فى الارض والتحرر من قيود التبعية والجمود والجبرية التى نقلت من فلسفات الهند والفرس القديمة والتى حاولت القوى المحاصرة للمسلمين تجديدها من أجل حصار المسلم والحيلولة بينه وبين امتلاك ارادته وهى نفس القضية التى نواجهها فى بلاد العرب فى العقدين الآخيرين من القرن الرابع عشر الهجرى .

لقد ركز اقبال على أزمة أمته الصغرى (مسلمو الهند) وحاول أن يخرجهم من التبعية الفكرية وجبرية الصوفية من تأخير كما دعا باكستان واطلق اسمها قبل انشائها بعشر سنوات لتحرير المسلمين من التبعية السياسية أيضا .

وقد هداه الى خطواته كلها ايمانه بأنه يقرأ القرآن كأنما أنزل عليه ومن هنا حق للاستاذ الزيات أن يطلق عليه اسم شاعر الرسالة .

كذلك فقد كان حبه لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالغ الوصف ولكنه حب ليس كحب الاخرين ، بل حب نقى يتحرك فى اطار المفهوم الاسلامى الاصيل : مفهوم أهل السنة والجماعة بعيدا عن الشطحات والمبالغات وكان يؤمن بمنهجه الذى أخرج العالم من الظلمات الى النور ومن ثم فقد جعل كل ما وهبه الله من علم وفكر وفهم وبيان فى سبيل خدمة هذا المنهج متجردا له على نحو لم يعرف عن كثير من الشعراء والمفكرين .

ان فكرته عن الانسان المؤمن غير مستعارة من كتابات الصوفية القديمة ولا من كتابات الغربيين مثل سيورمان نيتشه ولكنها اسلامية الجوهر والاداء .

كذلك فان دعوته الى اخلاقية الحضارة فكرة اسلامية أصيلة مؤمنا بأن الحضارة التى تفقد بعدها الاخلاقى لابد أن تسقط وتنهار وهو يرى أن الاصول الاجتماعية التى قدمها الاسلام قادرة على توحيد الانسانية وان الاسلام هو اصل البشرية والسبيل الوحيد لتوحيد العالم وهو يؤمن بأن العرب هم مادة الاسلام الاولى وان تمكنهم فى الارض هو المنطلق الحقيقى لنصرة الاسلام والحقيقة ان اقبال هو كوكب من مجموعة كواكب الاسلام فى العصر الحديث ما زال يضىء للانسانية ويهديها الى طريق الله الحق : وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون . (صدق الله العظيم) .

● ● ●

(٢)

بعد خمسين عاما من وفاة الرافعى ما يزال الرافعى حيا بمنهجه فى الكشف عن سموم التغريب وبالعاملين على نفس الطريق الذى مهده .

هل يمكن تقديم الرافعى

وتجاهل معاركه مع لطفى السيد وطه حسين ؟

كان السؤال المثار فى ندوة الاعتصام عن الضجة التى حدثت فى مؤتمر الرافعى الذى عقد بجامعة طنطا أخيرا بمناسبة مرور خمسين عاما على وفاته واشترك فيها عدد من الباحثين وكان الحديث لابد أن يتطرق عن أخلد مواقف الرافعى من القرآن واللغة العربية وهى قمة حياته الفكرية كلها وكيف ألقم خصوم القرآن والفصحى أحجارا جعلتهم يصمتون وفى مقدمتهم لطفى السيد وطه حسين وسلامة موسى وبالرغم من أن البحث الذى قدمه صاحب هذه الكلمة كان رقيقا لا يعمل على بعث هذه المعارك من جديد فان طائفة من الكارهين لتكريم رجل مثل الرافعى أرادوا اثارة الشغب وتفجير قضية التغريب ولم يكن الموقف فى صالحهم فان الكشف عن موقف طه حسين من القرآن ولطفى السيد من العربية لو أنه عرض على صورته الكاملة لكان خزيا وعارا على هؤلاء الذين ما زالوا يتعلقون بأوهام الحداثة والبنيوية وغيرها من دعوات يثيرها العلمانيون والماركسيون لافساد المنطلق الحقيقى الذى يتشكل الان للفكر الاسلامى فى ضوء الدعوة الكريمة المضيئة الى (أسلمة العلوم والمناهج والمصطلحات) والتى هاجمها دكتور زكى نجيب محمود فى الاهرام خلال الاسابيع الماضية بشدة احساسا منه بأن حركة اليقظة الاسلامية قد خرجت فعلا من عملية الدفاع والوقوف فى صف الرد على الشبهات المثارة ودخلت ميدان بناء الاسس المنهجية الحقيقية لعلوم النفس والاجتماع والاقتصاد والادب الاسلامية المصدر التى تكشف فى جوهرها فساد ما يدعو اليه زكى نجيب محمود وعاطف العراقى وتوفيق الحكيم وحسين أحمد أمين وفرج فودة وفؤاد زكريا وغيرهم من مفاهيم مسمومة بائرة لن تجد لها من بعد سميعا أو مجيبا .

وما يزال دعاة التغريب والغزو الفكرى يلوكون الكلمات البراقة فى اطار من المغالطة والتمويه البالغين من أجل اعادة طه حسين الى الحياة ومن أجل استرداد ولو اقل القليل من المساحة التى فقدها نفوذ التغريب بعد أن جوبه زكى نجيب محمود فى بلده (دمياط) فى ندوة ضخمة بالردود الحاسمة على شبهاته وكذلك وجد نفس هذا الموقف واشد فى ندوة (أبو ظبى) كما وجد ذلك الدكتور خلف الله فى الامارات حيث لم يجدوا من يستمع اليه فجمعوا له موظفى ادارة الثقافة ومن قبل ذلك بيوم واحد اجتمع فى نفس القاعة أربعة آلاف يستمعون محاضرة الدكتور يوسف القرضاوى وتلك كلها علامات الافلاس الواضحة من المحيط الى المحيط ، لقد انزعج بعض الماركسيين من التعرض الى لطفى السيد وطه حسين وسلامه موسى فهل كانوا يريدون أن يمدحهم الرافعى وهو الذى كشف مؤامرتهم وكل من جاء بعد ذلك هم تلاميذ الرافعى فى الحقيقة ، لقد أزعجتهم كلماته التى تجددت على السنة الباحثين فى تكريم الله تبارك وتعالى للغة العربية بنزول القرآن بها ، وفى ريادته لمنهج « تأديب التاريخ » بما كتبه من صفحات مضيئة من تراث سعيد بن المسيب وابن عيينة وغيره وكانت قضية الجملة القرآنية التى اغراه المستشرقون بأن يتركها حتى يكون علم الاعلام فى العالم كله ، وعمله الخطير فى اعداد كتاب (اعجــاز القرآن) فى وجه خصوم الاسلام والقرآن الفصحى .

غير أن الدكتور محمود عبد النبى عرض فى بحثه اعجاز القرآن فى فكر (الرافعى) ما الجم هؤلاء واخرس السنتهم حين عرض لافتراءات طه حسين عن القرآن وانكاره قصة ابراهيم واسماعيل حين قال طه : ان قصة هجرة اسماعيل وابراهيم الى مكة هى نوع من الحيلة فى اثبات الصلة بين اليهود والعرب وبين الاسلام واليهودية والتوراة والقرآن من جهة أخرى » .

قال الرافعى : انظر هذه الوقاحة فى قوله (للقرآن أن يحدثنا) كأنه زعم زاعم له أن يقول وان لا يقول ، واذا لم يكف النص فى كتاب سمــاوى تدين به الامة كلها لاثبات وجود المنصوص عليه فما بقى معنى لتصديقه ، وما بقى الا أن يكون القرآن كما زعم المستشرقون (اســاتذة طه حسين وأولياءه) كلاما من كلام النبى صلى الله عليه وسلم نفسه ومن نظمه وعمله فهو يدخله ما يدخل كلام الناس من الخطأ والغفلة والحيلة والكذب فله أن يزعم ما شــاء) .

ويقول طه حسين : ان القصة من الاساطير الموضوعة لاثبات الصلة بين اليهود والعرب » ومعنى هذا ان قريشا قبلت هذه الاسطورة الخرافية التى تثبت أن الكعبة من بناء اسماعيل وابراهيم فأخذها من وضع القرآن من قريش لانه منهم وبذلك يجزم طه حسين فى القرآن كذبا وتلفيقا لان الاسطورة — كما يقول — حديثه العهد ظهرت قبل الاسلام واستغلها الاسلام لسبب دينى — أى هى كذب صريح يعلم الاسلام أنه كذب ويتغفل به العرب بسبب دينى فماذا بقى من هذا الدين الذى يتناول الخرافة المخترعة قبل الاسلام بقليل ويوردها فى كتابه — أى القرآن — على أنها منزلة من السماء وأنها وحى يوحى .

٢ — ويشير الى أن القرآن زعم لنفسه الاستئثار بدين ابراهيم وتأويله ولم يكن أحد قد احتكر ملة ابراهيم ولا زعم لنفسه الانفراد بتأويلها فقد أخذ المسلمون يردون الاسلام فى خلاصته الى دين ابراهيم (أ . هـ) ولكن أهم المسلمون الذين زعموا هذا أم نزل ذلك فى قرآنهم فى قوله تعالى :

(ثم أوحينا اليك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفا) .

فاذا كان ذلك من فعل المسلمين فالقرآن كذلك من صنعهم عند أستاذ الجامعة . هذا الاستاذ الذى يقول انه لم يفهم ما هى الحنيفية التى وردت فى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم (بعثت بالحنيفية السمحة) وقد تكررت هذه اللفظة فى الحديث فكيف سمعها العرب ورواها العلماء ولم يفهموها وهى قد وردت مرات كثيرة فى القرآن كلما نص قاطع فى ان معنى الحنيف انما هو الذى مال عن الشرك والتشبيه والتجسيد مما يزعمه اليهود والنصارى والمشركون ، والحنف فى اللغة الميل وكان العرب يقولون فى كل تعبد واعتزل الاوثان انه تحنف وكل من حج واستقبل البيت سموه حنيفا لانه بيت ابراهيم ثم توسع الاسلام فى الكلمة على سنته فى الالفاظ الاسلامية المعروفة فالمعنى الصحيح للحنيفية : انها الشريعة النقية التى لا شوب فيها من الالحاد والشرك والتى تعدل بالناس الى الله وتوجه الخلق الى الخالق وحده وانظر ما يقول الله : ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا .

٣ — ثم يزعم أستاذ الجامعة ان قصة ابراهيم (حيلة) فى اثبات

الصلة بين اليهود والعرب وبين التوراة والقرآن فهل فى الجهل أوسع من هذا .

ان القرآن عند هذا الرجل كتاب أشبه بالكتب التى يضعها المؤلفون فتكون تمثيلا للعصر الذى وضعت فيه لانها صادرة عن فكر متأثر بالاسباب الكثيرة التى انشأت هذا العصر نشأته الخاصة به والميزة له .

(وذلك فى قوله أن القرآن يمثل العصر الجاهلى أصدق تمثيل) .

فهل يدرى طه حسين معنى قوله تعالى (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) هل يفهم هذه البلاغة التى يسجد لها البلغاء : ان معناها يا استاذ الجامعة ان القرآن لا يشخص عصرا ولا يمثله بل هو كتاب كل عصر ، وهو الثابت على كل علم وكل بحث وكل اختراع واستكشاف على مدى الازمنة فى أيها جاء مما سيستأنفه التاريخ وهذا معنى (من بين يديه) وأيها ذهب مما يطويه الماضى وهذا معنى (من خلفه) وليس يخفى عليك أن العصور يصحح بعضها بعضا ويكشف بعضها خطأ بعض وقد يتقرر فى زمن ما يثبت بعد أزمان طويلة انه كان خطأ ، فقوله تعالى (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) من الكلمات التى لا تخطر بفكر انسانى يظن أنه يشخص العصر الجاهلى بل هى علم من لا يعلم غيره انه ستجد أمور وتحدث علوم وتمحض تواريخ وتنشأ مخترعات فلو فهم الجاهل لم تكلم الا افاهم » .

● ● ●

ويقول الرافعى لقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أن أخوف ما أخاف على أمتى كل منافق عليم اللسان » وطه رجل أرسلوا لسانه وقلبه الى أوربا فرجع بلسانه وترك قلبه هناك فى خرائب روما : ان طه حسين هذا مجموعة اخلاق مضطربة وافكار متناقضة وطباع زائفة ، وما من عالم فى الارض الا وانت واجد آرائه قائمة بمجموع اخلاقه أكثر مما هى آتية من صفاته العلمية » .

وهكذا نرى ان المعركة قديمة ، حيث بدأت عام ١٩١٣ عندما حاول لطفى السيد اقتفاء خطوات القاضى ويلمور والمهندس ويلكوكس من حيث تسليم أمانة التغريب الى قادة المصريين الذين نشأهم اللورد كرومر : سعد

زغلول ولطفى السيد وعبد العزيز فهمى وكل له دوره : الاول فى التعليم والثانى فى الصحافة والثالث فى القضاء ومن خلال لطفى السيد الذى هاجم الفصحى نشأت مرحلة مهاجمة القرآن فى كلية الاداب بقيادة طه حسين ومن خــلال الشعر الجاهلى الذى تغير الى الادب الجاهلى وبقيت فيه محاولته فى التشكيك فى الشعر الجاهلى الذى هو دعامة من دعامات فهم القرآن الكريم وتفسيره وهى مؤامرة خطط لها الاستشراق من قبل فى عدة اعمال كان فى آخرها بحث اليهودى المتعصب (مرجليوث) ومنه الى اليهودى المتعصب الاخر (جولد سيهر) الذى قال بأن هناك قرآن مكى وقرآن مدنى تأثر فيه النبى (بدعوى أنه مؤلف القرآن) فى المدنية باليهود .

وهى معركة ضخمة يحاول بعض الاقزام من غلمان المستشرقين اعادة اندفاع عن طه حسين ، من أجل استنفاذ ماء الوجه ، وما يهمنا ان كان طه حسين قد أخذ النص من مرجليوث كما وصفه الاستاذ محمود محمد شاكر (شفاه الله) بأن كتابه هو (حاشية طه على متن مرجليوث) أم أنه سرق الفكرة وطار بها ليبحث لها عن نصوص فى الادب العربى من كتابات الشعوبيين وغيرهم فهذه قضية تافهة لا قيمة لها — خاصة بعد الذى كتبه الاستاذ الجليل محمد مصطفى هدارة فى الكتاب الضخم (دراسات المستشرقين) وفى الاهرام انما المهم هى الجريمة نفسها : جريمة طرح فكرة الشك الفلسفى فى افق الاســـلام من ناحية والتشكيك فى نصوص شعرية جاهلية ثابتة هى دعامة من دعامات تفسير الالفاظ القرآنية التى جاء بها من قبل الحق تبارك وتعالى على مفاهيمهم ، ففى عشرات من المواضع من كتب التفسير تجدهم يقولون : قالت العرب فى هذا اللفظ كذا وكذا ومن شعر الشاعر فلان البيت الاتى . أن المؤامرة هى فى محاولة هدم هذا الحصن القوى الثابت ، وهو ما حاوله مرجليوث ثم جاء طه حسين ففاق أساتذته فى البحث له عن شبهات اخرى تمكن لهيئة الاستشراق والتغريب والشعوبية العليا أن تفرح بفارسها الذى أفاد من كتابات (كليمان هوار) و (كازنوفا) الذى وصفه طه حسين بأنه أعظم قدرا من أى عالم اسلامى فى فهم القرآن وتفسيره ويفخر بأنه لم يفهم القرآن فى الازهر وانما فهمه فى السربون على دروس كازنوفا على النحو الذى كشفت عنه دراساته المختلفة التى تنبىء بأنها تريد أن تقول ان القــرآن

من كلام محمد ولكنها تخشى من اعادة الاتهـــام الذى عمل طه حسين على أنه يرده ظاهريا وبالخداع حين كتب (هامش السيرة) وهو كتاب لو تعمقه قارئه لوجده كما وصفه الامام الرافعى رضوان الله عليه بأنه تهكم صريح .

ان الخزى الذى يلحق هؤلاء الذين يريدون أن يخدعوا النـــاس عن انحرافات طه حسين انما يخدعون أنفسهم ، ولن تبقى لهم فى نفوس المسلمين ثقة ، مهما تذرعوا بالمنهجية الكاذبة والتضليل العلمى الذى تمكن لهم به صحف واسعة الانتشار .

• • •

(٤)

دور رائد

وفضل سبق للرافعى يجب الاعتراف به

اذا قيل ان مصطفى صادق الرافعى هو رائد الادب الاسلامى الحديث فان ذلك أمر لا مبالغة فيه ، بل هو واقع حقيقى ، بمفهوم عصره فى مجال مقاومة التيارات الوافدة التغريبية التى كانت تركز فى ذلك الوقت على اللغة العربية أساسا ولا تستطيع أن تهاجم القرآن فان حرب اللغة العربية (بعد حرب التعليم الذى استولى على تغريبه (دنلوب) كانت مركزة على اللغـة بالحملة التى بدأها (ويلكوكس) وســار وراءها كثيرون وتصدرت الجريدة (صحيفة حزب الامة الموالى للاستعمــار) ومديرها أحمـد لطفى السيد وأستاذ الجيل) الحملة على اللغة العربية بأسلوب ماكر خبيث يحاول فيه من خلال مقالات متوالية التقريب بين العامية والفصحى على حساب الفصحى، وقد تنبه الى ذلك الرافعى فى ذلك الوقت الباكر (١٩١٣ تقريبــا) فكتب مقـــالاته الجريئة فى مجلة البيــان التى كان يصدرها (عبد الرحمن البرقوقى) وكشف عن تلك المحاولة التى جرت من اجل حملة على الكتــابة بأسلوب عصرى بدلا من اسلوبه البليغ ، وفهم ان هذه مؤامرة يراد بها هدم صرح البيان العربى وايجاد هوة بين لغة الكتاب ولغة القرآن الكريم .

وفى هذه الجولة كشف عن الدور الذى حاول القيام به الشدياق فى ترجمة الانجيل وتقديمه فى لغة بليغة وكيف حيل بينه وبين ذلك لربط الانجيل بالعامية . وابعاده عن لغة القرآن .

ويمكن القول ان هذه المعركة هى التى دفعت الرافعى الى كتـــابة كتابه الفذ (اعجاز القرآن) الذى هوجم من أولياء الثقــافة الغربية وفى مقدمتهم العقاد فى هذا الوقت .

وعندما انشئت الرسالة (الزيات) ١٩٣٣ بدأ الرافعى يكتب فيها فصولا رائعة من التراث الاســـلامى كشف فيها عن عظمة الاســـلام فى واقعة رجال آمنوا على نحو كان غاية فى الروعة ، وكان مختلفــا تمام الاختــلاف مع كتابات هيكل (حيــاة محمد) والعقاد (عبقرية محمد) .

ومن هنا فنحن نؤيد الدكتور مصطفى الشكعة فى اعلان ريادة الرافعى للتيار الاســـلامى الذى نماه من بعد رجال الدعوة الاسلامية ، الذين عرفهم الرافعى وكتب عنهم مقاله الشهير (الايدى المتوضئة) .

ولكنا لا نوافق الدكتور الشعكة — حسبمـــا رواه الدكتور فاروق باسلامه — من أن العقـــاد وهيكل وطه حسين وغيرهم قد آبوا الى منهج الرافعى فى كتابه السيرة والتاريخ الاسلامى ونرى أن هناك فارقا واسعـــا وعميقا ، وان هؤلاء حين أخذوا يكتبون كان لهم هدف مختلف ، ووجهة أخرى بل ان بعضهم حمل على أسلوب الرافعى ، وهاجم كتابه عن تاريخ الادب العربى وفضلوا عليه كتاب (جرجى زيدان) الملىء بالسموم والمثالب .

ولقد خاض الرافعى معاركه مع طه حسين بعد صدور كتابه (الشعر الجاهلى) وكان أول قلم بدأ واستمر وصمد فى واجهة هذا الخطر وكشفه ، فالحقيقة أن الاتجاه الرافعى اتجاه أصيل بينما الاتجاه الاخر كان محاولة لتقديم صور عصرية من السيرة تتنكر للمعجزات وتحـــاول أن يطفىء نور المواقف الاسلامية الحاسمة تحت عنوان (الاسلوب العلمى) أو المنهج العلمى الذى لم يكن الا الاســـلوب الاسلامى أساسا ثم انتقل الى الغرب كما أشار الى ذلك الامام المراغى فى مقدمة كتاب حياة محمد لهيكل .

كذلك فقد أشار الدكتور الشعكة الى بعض هؤلاء كان ينادى بالالحاد علنا وعلى رؤوس الاشهاد ومنهم من كان يؤيد الصهيونية ، ولذلك فنحن لا نوافق على أن هذه الاسماء تبعت الرافعى وكان لها رائدا فان الطريق يختلف ولعلنا لو قلنا ان كتابات سعيد العريان ، أو محمود محمد شاكر ، أو على الطنطاوى ربما كانت امتدادا للرافعى لكان ذلك أقرب الى الحقيقة .

أما الدكتور منصور فهمى فان موقفه يختلف فقد أعلن الرجل بكل صدق رجوعه عن افكاره الاولى التى أوقعه فيها مستشرق يهودى أما أولئك فأنهم لم يتراجعوا عن خط سيرهم الاول وقد عالجت هذه القضية بتوسع فى كتابنا (حيل الرواد والقمم الشوامخ) الذى يسعدنى أن أرسله الى أخى الدكتور فاروق باسلامه اذا كتب الى على دار الاعتصام فى القاهرة وتحية له لأنى لا أعرف عنوانه) .

(٥)

الدفاع عن القرآن والاسلام والعربية

الرافعى بعد مائة عام

ولد الرافعى (مصطفى صادق) فى أتون المعركة المستعرة بين الاصالة والتبعية فى جـــو مكفهر مظلم قد سيطر فيه التغريبيون والعلمانيون على الصحافة والجامعة واستعلوا بدعواهم فكان سيفا من سيوف الحق وقلما ناريا من أقلام الايمان اذ تنبه فى وقت باكر من شبابه الى تلك التيارات التى كانت تعمل على طرح مفاهيم التغريب وسموم الاستشراق ودعاوى التبشير على الفكر الاسلامى من أجل تزييفه وتشويهه والتشكيك فيه .

وكان رحمه الله قد أتاه الله منحة ربانية فقد تشكل ذوقه وبيانه فى ضوء القرآن الكريم والسنة المطهرة وحدهما وكان قد أنفتح على جو المواجهـــة التى قادها جمال الدين الافغانى بكتابه (الرد على الدهريين) ومحمد عبده بكتابه (الاسلام والنصرانية بين العلم والمدنية) فى الرد على فرح أنطون وماكتبه الشيخ رشيد رضا ومصطفى الغلاييني وفريد وجدى فى الرد على شبهات كرومر التى أثارها ضد الاســـلام .

وكان قد حرص على أن لا يشترك فى سوق الصحافة والحزبية الذى وضح عدائه للاسلام واللغة العربية فآثر أن لا يخوض فى هذه الاوحـــال واكتفى بأن يحمل قلمه فى سبيل أن تكون كلمة الله هى العليا .

كانت قضية اعلاء بيان القرآن مطمحه وهدفه والدفاع عن اللغـــة العربية غايته ودعوته ، وكان الاســـلام من قبل ذلك ومن بعد ذلك منطلقه الى كل توجهاته فى حياته كلها .

ومن هنا كانت حياته كلها معـــارك فى سبيل اعلاء (الكلمة القرآنية) سواء مع لطفى السيد أو سلامة موسى أو العقاد أو طه حسين .

وقد كانت قضية اللغة العربية هى أول القضايا التى لفتت نظـــره فاندفع فى قوة ليواجههـــا ومن وراءه احســـاس غـــامر بأنهـــا منطـــلق

من أكبر منطلقات الغزو ، فوقف فى ميدانها فى هذا الوقت الباكر يواجه اسما من أقوى الاسماء وأبرزها فى هذا العصر وهو لطفى السيد الذى دعا الى احياء العامية بأسلوب ماكر خبيث لم يلتفت الى خطورته غير أولى الايمان العميق من أمثال الرافعى فكانت معركته الاولى التى هاجم فيها استاذ الجيل ومؤسس الجريدة وقائد معركة المصرية والاقليمية والعدو الاكبر للجامعة الاسلامية والعروبة .

وكان لطفى السيد قد كتب أكثر من سبع مقالات عام ١٩١٣ فى الجريدة دعا خلالها الى الحملة على الفصحى بطريقة فيها كثير من المداورة وان لم يخرج عن دعاوى القاضى وليم ولمور والمهندس ولكوكس ، ثم مضى من بعده على الطريق قاسم أمين وسلامة موسى وقد وقف الرافعى (من خلال مجلة البيان التى كان يصدرها صهره الاستاذ عبد الرحمن البرقوقى) موقفا جريئا حملا قبه معا لواء الاتهام مؤمنين بأن القضاء على اللغة قضاء على مقدسات الفكر الاسلامى .

وقد كتب الرافعى فى الرد على لطفى السيد كاشفا هذه المحاولة الخبيثة (تمصير اللغة) وقال لا نفهم كيف يكون احياء العربية باستعمال العامية وكيف نروض لغة القرآن التى تأبى الا أن تتقيد بها اللهجات الاخرى كما محت من قبل لغات العرب جميعا على فصاحتها وردتها الى لغة واحدة هى القرشية ثم نرضى من جهة أخرى بهذه اللهجات العامية التى تأبى أن نتقيد بشىء واذا حاولنا مذهب الاصلاح العلمى فليت شعرى اى لهجة تأخذ واى لهجة فى مصر هى غير مصرية فننبذها .

ثم قال انه لا سبيل لتمصير اللغة العربية واعتبار هذه المصرية أصلا لغويا مجمعا عليه الا بتمصير الدين الاسلامى الذى يقوم على هذه العربية . فان بعض ذلك سبب طبيعى الى بعضه فمن كشف لنا عن الوجه الذى يكون به الدين مصريا وطنيا بأسباب ذلك ونتائجه قلنا له : اخطأنا واصبت (وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة) .

ثم يقول ولعل هذا الرأى ان يشيع من ناحيتنا ويطمئن فى كل أمة لها عربية فتأخذ مآخذها فى عاقبتها وتنزع الى ما تذعن اليه فاذا أمكن ان يتفق ذلك وان تتوافى عليه الامم كان لعمرى أسرع فى فناء العربية ... الخ .

ولم يلبث الرافعى أن دخل معركة جديدة فى سبيل الفصحى هى معركته مع جبران خليل جبران الذى كتب يقول (لى لغتى ولكم لغتكم) فسخر الرافعى من غروره وادعائه وهو الذى عاش سنوات قليلة فى عمر اللغـــة العربية الممتد قبل أربعة عشر قرنا ليجىء ويقول أنه يملك من اللغة ما يحوز له أن يكتب بأسلوب خارج عن بيـــان العربية .

وقال الرافعى أن هذه اللغة قامت على أساس بيان القرآن الكريم فلن يستطيع جبران ولا غيره أن يغيروا منها شيئا مهما تجمعت عصابتهم وكان المهجريون الشماليون يعرفون فى هذه المرحلة بخصومتهم للعربية الفصحى ووقوعهم تحت تأثير التغريب وذلك بدعوتهم الى ما يسمى (تورائية اللغـــة) يقـــول :

فانك واجد فى أهل سنة ١٩٢٣ (يقصد جبـــران) من يقول فى هذه اللغة (لك مذهبك ولى مذهبى ولك لغتك ولى لغتى) فمتى كنت صـــاحب اللغة وواصفها ومنزل أصولها ومخرج فروعها وضـــابط قواعدها ومطلق شواردها . من سلم لك بهذا يسلم لك حق التصرف (كما يتصرف المالك فى ملكه) وحتى يكون لك من هذا حق الايجاد ومن الايجاد ما تسميه انت مذهبك ولغتك ، لا ، هون عليك أن تولد ولادة جديدة تبتدىء فيه الادب على حقـــه من قوة التحصيل وتستأنف دراسة اللغة بما يحملك شيئا فيها فانك عمر واحد من ملايين الاعمار فى عصور متطاولة وان ما تحدثه على خطأ لا يبقى على أنه صواب ولا ينفى ابدا الا كما ينفى العلة على انها علة فلا يقـــاس عليها أمر الصحيح ولا يحكم بها فيمن لم يعتل .. » .

معركة الشعر الجاهلى

ثم دخل الرافعى معركة الضخمة المستفيضة الحاسمة مع كتاب الشعر الجاهلى لطه حسين وشغل بها وقتا طويلا فى صحف مختلفة ثم جمعهـــا فى كتابه الشهير (تحت رآية القرآن الرد على الشعر الجاهلى) .

يقول : من اقبح ما فى كتاب الدكتور طه حسين أنه يعلن فى مقـــدمته تجرده من دينه عند البحث ، يريد أن يأخذ النشىء بذلك اتباعا لمذهب ديكارت الفلسفى الذى يقضى على البـــاحث بالتجرد من كل شىء عندما يبحث عن الحقيقة .

قال الاستاذ (يجب حين نستقبل البحث عن الادب العربى وتاريخه أن ننسى قوميتنا وكل مشخصاتها وان ننسى ديننا وكل ما يتصل به) وهذا لعمرى هو منتهى الخبل فان هناك فرقا بين البحث عن حقيقة فلسفية عقلية محضة وبين البحث عن حقيقة ادبية تاريخية قائمة على النص واذا هو نسى دينـــه (وتأمل هذه العبارة) فماذا يكون من أثر هذا فى التاريخ ما دامت المـــادة التاريخية لم تجتمع له كما أسلفنا وما دام الاستاذ مبتلى من كل جهة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ان أخوف ما أخاف على أمتى كل منافق عليم اللســـان) وطه رجل ارسلوا أسانه الى أوربا فرجع بلسانه وترك قلبه هناك فى خرائب روما واذا كان عميد كلية الاداب لا يحسن من العربية شيئا ولا يفقه من هذه المباحث شيئا ولا هو من دين الامة فى شىء فماذا نقول فى الاستاذ الاديب الذكى البليغ مدير الجامعة الذى اسمه أحمد (يقصد أحمد لطفى السيد) .

والامر الذى نخشاه من طه انه (أداة) أوربية استعمارية تعمـــل على افساد أخلاق الامة وحل عروتها الوثقى من دينها فى أدبه ولغته وكتابه ويحقر كل من يتسم بشىء من ذلك عالما أو متعلما أو متورعا فهو دائب على ازالة ما وقر فى نفوس المسلمين من تعظيم نبيهم وكتابه وايثار دينهم وفضيلتهم واحلال علمائهم وسلفهم مرة بالتكذيب ومرة بالتهكم ومرة بالزيادة ومرة بافساد التاريخ ومرة بنقل الاخلاق الفاحشة المتعهرة فى مدنية الفرنسيين ... الخ .

● ● ●

ثم دخل فى معارك مع كل م نهاجم القرآن أو العربية أو الاســـلام هاجمه سلامة موسى بدعوى أنه من أصحاب المذهب القـــديم فقال الرافعى : زعم ان ما تقول به من اقتداء العرب فى اساليبهم والارتياض بكلامهم والحرص على لغتهم وان يكون الكاتب فى هذه اللغة حسن البيان رشيق العرض رائع الخلابة يتثبت فى الفاظه وينظر فى اعطاف كلامه ويفتن فى أسالببه — كل هذا وما اليه من مذهب قديم وقال ان اهل المذهب القديم يهملون العلم لأن العلوم تتعارض ومعتقدات العرب وظاهر أنه يعنى بالعرب المسلمين لا غيرهم ، فالمذهب القديم اذن هو ان تكون اللغة لا تزال لغة العرب فى أصولها وفروعها

وان تكون هذه الاشعار القديمة التى تحويها لا تزال حية تنزل من كل زمن منزلة أمة من العرب العظماء ، وان يكون الدين العربى لايزال هو كأنما نزل به الوحى أمس ، لا يفتننا فيه علم ولا رأى ، وأن يأتى الحرص على اللغة من جهة الحرص على الدين اذ لا يزال فيهما شىء كالاساس والبناء لا منفعة فيهما معا الا بقيامهما معا ، ان هذه العربية لغة دين قائم على أصل خالد هو القرآن الكريم وقد أجمع الاولون والاخرون على اعجازه بفصاحته الا من لا حفل به من زنديق يتجاهل أو جاهل يتزندق » ثم أن فصاحة القرآن يجب أن تبقى مفهومة ولا يدنو الفهم منها الا بالمران والمزاولة ودرس الاساليب الفصحى والاحتذاء عليها » وهكذا كشف الرافعى عن دخيلة هذه الاسماء وولائها للغرب وعداوتها للاسلام .

ويمضى الرافعى رحمه الله مدافعا عن القرآن والعربية والاسلام حياته كلها وهذا جانب من جوانبه الى جوانب أخرى من الابداع حفلت بها مجلداته (وحى القلم) حيث تناول فيها مواقف وصفحات وصور من التاريخ الاسلامى وأعلامه ورجاله على نحو رائع يأخذ بالالباب .

وما يزال الرافعى بعد مائة عام من مولده اليوم باقيا وقائما كالعلم ، علامة على القدرة القادرة فى الدفاع عن الاسلام والعربية والقرآن وكتابه (اعجاز القرآن والبلاغة النبوية) لا تزال صفحاته بعد مضى السنوات الطويلة تكشف عن تلك الروح المؤمنة الصادقة التى انصرفت عن مطامع الدنيا وحفظت نفسها من بلايا الحياة الصحفية والسياسية واكتفت بأن تكون سيفا للاسلام مشهورا فى وجه كل دعى ودخيل .

رحمه الله رحمة واسعة

● ● ●

(٦)
الدفاع عن الجملة القرآنية وحراسة لغة القرآن

اليوم وبعد خمسين عاما من رحيل شيخنا الرافعى عن عالمنا ما يزال فكره القرآنى متألقا وما تزال القضايا التى فجرها قائمة تدعو أصحاب الاقلام المسلمين الى الجهاد والعمل من أجل مواجهتها ، غير أننا اذا أردنا أن نتكلم عن الرافعى اليوم فان هناك ثلاث موضوعات لابد من التعرض لها :

أولا : قضيته الكبرى التى عاش لها ومات من دونها وهى الدفاع عن القرآن الكريم والعربية الفصحى لغة القرآن .

ثانيا : ريادته فى تأديب التاريخ وتقديم المنهج الاسلامى الاصيل الذى سار عليه أهل الاصالة من تقديم الصفحات المتألقة من تاريخ الاسلام الى الشباب المسلم .

ثالثا : عمله الخطير فى اعداد كتابه (تاريخ آداب اللغة العربية) الذى أزعج الاستشراق والتغريب حتى فضلوا عليه أصحاب التبعية والولاء الغربى وحجبوه عن الظهور وغضوا الطرف عنه لانهم كانوا يعدون لمفهوم يقوم على أساس التفسير المادى للتاريخ وهو المنهج الذى حمل لوائه من بعد أستاذ الجيل وعميد الادب العربى .

● ● ●

كان شيخنا الرافعى أجزل الله مثوبته يرى أن عليه واجبا هو عليه أقدر وبه أجدر أن يكون للاسلام حارسا ونصيرا وللفصحى لغة القرآن حاميا وظهيرا ينفث فيها روحا من روحه ويرد اليها مكانتها ويذود عنها اعدائها فلم يجترىء مجترىء من أهل الزيغ والضلال على لغة القرآن أو دين الاسلام الا وتصدى له وكشف عن حقيقة نفسه ونقد مفترياته وأبطل دعاواه ببراهينه الفلسفية الدامغة وعباراته اللاذعة وأسلوبه العربى الرصين واذا ذكر الرافعى ورد على الذهن توا : أشهر الرافعيين : مصطفى صادق الرافعى صاحب وحى القلم ومدرة الاسلام الذى جاهد خصوم القرآن واللغة العربية

ووقف كالطور الراسخ امام تلك المحاولات الخطيرة التى كانت تستهــدفه حرب الكلمة .

ولكنا لا ننسى فى هذا المجال امين الرافعى صاحب الاخبار والصحفى المسلم المجــاهد الذى مات وهو يحتضن اللواء حتى لا يسقط من يــده وعبد الرحمن الرافعى مؤرخ الحركة الوطنية فى مصر .

اما مصطفى فكان علما على درء تلك المحاولات الخطيرة التى استهدفته لغة القرآن وهو الرجل الاعزل الذى واجه المتصدرين فى الصحافة والحزبية والذى وقف تحت راية القرآن يدفع فى جولاته الثلاثة مع اعداء القــرآن ومع لطفى السيد ومع طه حسين وسلامة موسى وجبران .

ومن عجب انه قاد اولى هذه الحمــلات وهو فى مطلع الشبــاب عام ١٩١٣ على صفحات (مجلة البيــان) التى كان يصــدرها صهره الكريم عبد الرحمن البرقوقى ، وكانت كلمته فى مواجهة لطفى السيد ودعوته الى العامية من اقوى ما عرف عن الرافعى من كلمات ومن أصدق ما وجه الى هذه الدعوة المبطلة الضــالة ، ولقد كان الرافعى اماما فى اللغــة وأميرا للبيان حتى غدا شكيب ايلان والكرملى وغيرهم من الاساطين يخطبون وده فيخاطبه الاب انستاس مارى الكرملى بقوله :

الى فخر بلغاء المصريين الاستاذ الجليل مصطفى صادق الرافعى رفعه الله الى أعلى مقــام ، لقد حل عندى وحى القلم محلا رفيعا لما حوى من مختلف الموضوعات التى جاءت بأفصح عبارة وابلغها بل بتحديد كل كاتب يأتى بفرعها لهذا اعتبرت الاستاذ الرافعى جاحظ العصر وابن مقنعة او بديع زمانه .

هذا فضلا عن انه اشتغل بالكتابات القديمة الاسلامية التى اطلق عليها من بعد تأديب التاريخ قبل ان يشتغل به غيره بوقت طويل ، وقبل أن يكتب هامش السيرة وعبقرية محمد وكان رائدا لعلى الطنطــاوى وعبد الحميد المشهدى وعلى احمد باكثير وسعيد العريان وعبد الحميد السحار .

وليست العبرة بالسبق التاريخى وحده ولكن بالاداء من رجل يؤمن بالنبوة والوحى ويرفع من شأن تاريخ الاسلام والنبى من خلال مفهوم الأصالة

لا مفهوم العلمانية من منطلق واضح اليقين والايمان حيث يقول :

في ضميرى دائمـا صـوت النبى
آمـرا : جاهـد وكابـد واتعب
صائحا : غـالب وطـالب واداب
صـارخا : كن آبـدا حـرا أبى
كـن سـواء ما اختفى وما علن
كـن قـويا بالضمير والبـدن
كـن عـزيزا بالعشـير والوطن
كن عظيمـا في الخطـوب والزمن
رب بالاسـلام قـد هديتنـا
رب من نـورك قـد آتيتنـا
فعـلى عهـدك ما أحييتنـا
أحـرس الكنز الذى وهبتنـا
أو أمـوت دونه مـوت البطـل
جانبـا أحيـا بقلب من جبـل
نيرا أحيـا بروح من شـغل
جاهـدا أحيـا بجسـم من عمل

ونحن نعلم ما وجه الى كتابات العلمانيين عن الاسـلام وتاريخ الرسول من نقدات فضلا عن موقفهم الشخصى غير الملتزم بالاسـلام منهج حياة لهم .

● ● ●

(٢)

تابع الرافعى خطواته على نفس الطريق :

فسرعان ما جاءت محاولة لطفى السيد فى الدعوة الى تمصير اللغـة العربية (الجريدة ١٩١٣) فكتب سبع مقالات حاول فيها الدعوة الى العامية فى أسلوب يحمل كثيرا من المراوغة والخـداع دون أن يكشف غايته غير ان الرافعى والبرقوقى كانا له بالمرصـاد وقد وقفا من هذه المحـاولة موقفا

حاسما جريئا حملا فيه لواء الاتهـام مؤمنين بأن القضـاء على اللغة انما هو قضاء على مقدسات الاسـلام ولاول مرة أعلن أن اللغـة ملك نلامة التى تملك الحرية فى الزيادة عليها بأسـاليب جديدة (وكان ذلك هو منطلق كل خصوم الفصحى من بعد بدعوى أن المصريين وحدهم أو حتى هم والعرب جميعا يملكون حق التصرف فى لغة الفكر والثقافة والعبادة لالف مليون مسلم .

قال الرافعى فى دحض هذه المحاولة :

أن فى العربية سرا خالدا هو هذا الكتاب المبين (القرآن) الذى يجب أن يؤدى على وجهه العربى الصحيح ويحكم منطقا واعرابا بحيث يكون الاخلال بمخرج الحرف الواحد منه كالزيغ بالكلمة عن وجهها وبالجملة عن مؤداها وبحيث يستوى فيه اللحن الخفى واللحن الظاهر ثم هذا المعنى الاسلامى (الدين) المبنى على الغلبة والمعقود على انقاض الامم واتقيم على الفطرة الانسـانية .

انما القرآن جنسية لغـوية تجمع أطراف النسبة الى العربية فلا يزال أهله مستعربين به متميزين بهذه الجنسية حقيقة أو حكمـا حتى يتأذن الله بانفراط الخلق ولولا هذه العربية التى حفظها القرآن على الناس وردهم اليها وأوجبها عليهم لما اطرد التاريخ الاسلامى ولا تراخت به الايام الى ما شاء الله لما تماسكت أجزاء هذه الامة ولا استقلت بها الوحدة الاسلامية على انك لو اعترضت كل من يهجن العربية ويزرى على سبكها لرأيته أجهل النـاس بتراكيبها وحكمة اشتقاقها ووجوه تصريفها .

والقرآن الكريم ليس كتابا يجمع بين دفتية كتاب أو كتب فحسب اذ لو كان هذا اكبر أمره لتحللت عقده وان كانت وثيقة ولاتى عليه الزمان وليس يقول بهذا الرأى الا ظنين قد أنطوى صدره على غل واجمع قلبه على دخلة مكروهة .

● ● ●

وكان له موقفه الحاسم مع جبرآن خليل جبرآن حين قال (لكم لغتـكم ولى لغتى) .

حيث هاجم قواعد اللغة وقوانينها ووصفها بالجمود .

قال الرافعى : انك واحد من أهل سنة ١٩٣٣ من يقول فى هذه اللغة لك مذهبك ولى مذهبى ولك لغتك ولى لغتى ، فمتى كنت يا فتى صـــاحب اللغة ودارسها ومنزل أصولها ومخرج فروعهـــا وضابط قواعدها ومطلق شواذها ، ومن ســـلم لك بهذا حتى يسلم لك حق التصرف (لما يتصرف المالك فى ملكه) وحتى يكون لك من هذا حق الايجاد لما تسميه أنت مذهبك ولغتـــك .

لا وهون عليك أن تولد ولادة جديدة فيكون لك عمر جديد تبتدىء فيـــه الادب على حقه من قوة التحصيل وتستأنف دراسة اللغـــة بما يجعلك شيئا فيهـــا ، من ان تلد مذهبا جديدا أو تبتدع لغة تسميها لغتك ، فانك عمر واحد فى عصر واحد بين ملايين من الاعمار فى عصور متطـــاولة وأن ما تحدثه على خطأ لا يبقى على انه صواب ولا يبقى أبدا الا كما تبقى العلة على أنهـــا علة فلا يقاس عليها أمر الصحيح ولا يحكم بها فيمن لم يقبل .

واذا كان الرافعى قد قاوم الدعوة الى العامية (اللهجة العامية) منذ دعا اليها لطفى السيد منذ سنة ١٩١٣ حيث لم يتقدم الصفوف من يدرأ عن الفصحى تلك الدعوة الخبيثة فانه قد قاومها بجهـــد أشد وصلابة أعنف مرة اخرى عندما ظهرت على لسان سلامة موسى الذى حاول أن يجدد المهنـــدس ولكوكس ومن أجل هذا سمى حارس لغة القرآن ، ولا ننسى انه عندما اشتد الموقف بزكى مبارك وهو يقاوم اتجاه (أحمد أمين) فقد قال (لو كان الرافعى حيا ورأى أحمد أمين يقـــول فى ماضى الادب العربى ما يقول لأصـــلاه نار العذاب وصيره أضحوكة بين أهل الشرق والغرب) .

(٣)

ثم كان له على مدى العمر وامتداد المعركة موقفه من كتاب الشعـــر الجاهلى وتصحيح موقف الاديب العربى والفكر الاسلامى من دخائل كثيرة تتصل بالتاريخ والاديان والعقـــائد جريا وراء نظرية انتحال الشعر التى تريد أن تشكك فى القرآن نفســـه .

وهكذا أمضى الرافعى حياته كلها فى سجـــال مع أصحاب النظريات الوافدة داعيا الى الاصالة معتزا بالنهج البيانى الذى رسمه القرآن الكريم والسنة المشرفة ومن هنا حق له أن يدخل فى دائرة مدرسة البيان على النحو

الذى جلاه أبناء الجيل الثالث من الاصالة واحتمل فى سبيله مثل ما احتمل شيخنا من نصب ووصب : ذلك اخى الدكتور حلمى قاعود وهكذا على مدى خمسين عاما ما تزال مدرسة الاصالة تفرز حماة الفصحى ودعاة العودة الى المنابع .

● ● ●

ومن هنا فانه قد ثبت تماما ان مدرسة الاصالة التى نمت وترعرعت على يدي شيخنا الرافعى لا تزال ممتدة فى اجيال تتوالى ولم تتوقف عند سعيد العريان ومحمود محمد شاكر وكامل محمود حبيب وعلى الطنطاوى وعبد الله كنون الحسنى ولم يقف اشتباك مدرسة الاصالة بمن اشتبك بهم الرافعى : طه حسين وسلامة موسى ولطفى السيد وهيكل والعقاد وزكى مبارك وأنها ما تزال تشتبك مع خلفاء هؤلاء من زكى نجيب محمود وتوفيق الحكيم ولويس عوض وغيرهم .

وعندما تتجدد الدعوة الى الادب الاسلامى اليوم نجد شيخنا الرافعى وقد وضع القواعد الحقيقية لهذا الاتجاه حين دعا الى تدين الادب ، والدفاع عن البيان العربى وكشف روائع التاريخ الاسلامى ورد اخطاء هيكل فى الاسراء وقال عن هامش السيرة هو تهكم صريح ويتجلى مذهبه فى الادب على هذا النحو :

القبلة التى اتجه اليها فى الادب انما هى النفس الشرقية فى دينها وفضائلها فلا أكتب الا ما يبعثها حية ويزيد فى حياتها وسمو غايتها ويمكن لفضائلها وخصائصها فى الحياة ، ولهذا لا أمس من الاداب كلها الا نواحيها العليا ثم انه يخيل الى دائما انى رسول لغوى بعثت للدفاع عن القرآن ولغته وبيانه » .

ومن هنا كان فن (تأديب التاريخ) الذى برع فيه شيخنا الرافعى حيث يتناول الحيز الصغير فى عدة سطور فينشىء له قصة كاملة تكشف عن عظمة الاسلام فى أدق مواقفه ، انظر اليمامتان ، الطفولتان ، السمكة ، الزاهدان ، الايدى المتوضئة .

ولعلنى لو ذكرت لكم اننى منذ خمسين عاما ما زلت كلما دخلت المسجد فى صلاة العيد اذكر كلمات الرافعى فى قصة (الله اكبر) حيث يقول :

رأيت فى نومى انى أدخل المسجد لصلاة العيد وهو يعج بتكبير المصلين (الله أكبر الله أكبر) ولهم هدير كهدير البحر فى تلاطمه وأرى المسجد قد غص بالناس فأتصلوا وتلاحموا ، تجد الصف منهم على استوائه كما تجد السطر فى الكتاب ممدودا محتبكا ينتظمه وضع واحد ، وأراهم تتابعوا صفا وراء صف ونسقا على نسق ، فالمسجد بهم كالسنبلة ملئت حبا ما بين اولها وآخرها ، كل حبة هى من الف من أهلها وشملها فليس فيهن على الكثرة حبة واحدة تميزها السنبلة فضل تمييز ، لافى الأعلى ولا فى الاسفل .

وضج الناس (الله اكبر الله اكبر) فى صوت تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، أما الذى فى جانبى فكان ينتفض لها نفضا ، وكان المسجد فى نفضه أيانا كأن قطارا يجرى بنا فى سرعة السحاب فكل ما فيه يرتج ويهتز ورأيت صاحبى يذهل عن نفسه ويتلألأ على وجهه نور لكل تكبيرة ، كأن هناك مصباحا لا يزال ينطفىء ويشتعل فقطعت الرأى انه من الملائكة .

وعرفت والله من معنى المسجد ما لم أعرف حتى لكأنى لم أدخله من قبل » .

ومن هنا كان فيه حرص على اللغة من جهة الحرص على الدين اذ لا يزال منهما شىء قائم كالاساس والبنـــاء لا منفعة فيهما معا الا بقيامهما معـــا ، وكان يؤمن بأنك لن تجد ذا خله خبيثـــة لهذا الدين الا وجدت له شبهـــا فى اللغـــة .

لقد كشف شيخنا الرافعى عن المؤامرة التى كانت تدبر ولا تزال للجملة القرآنية بالدعوة الى ما يسمى اللغة الوسطى أو العامية الفصيحة وهى مؤامرة مستمرة منذ كتب عنها الرافعى الى اليوم وما زلنا نعاهد الله على الدفاع عن الجملة القرآنية امتدادا لما قام به حارس لغة القرآن رحمه الله رحمة واسعة وأجزل مثوبته وأسكنه فسيح جناته .

هذا وبالله التوفيق ،،،

(٧)

(فى قضايا ثلاث
تمتد من ١٩١٢ إلى ١٩٣٢ وما بعدها)

اولا — الرافعى واعجاز القرآن :

ثانيا — الرافعى ودعوة لطفى السيد الى العامية :

ثالثا — الرافعى تحت راية القرآن فى الرد على طه حسين :

كان كتاب (اعجاز القرآن) بمثابة القنبلة الخطيرة التى ألقاها الرافعى على معسكر التغريب فى جو ظن خصوم الاسـلام والعربية أنهم قادرون فيه على الهدم دون ان يتنبه اليهم احد حتى جاء يوسف حنا يقول كلمته تحيـة للرافعى من وراء الغيب على لسـان رجل غير مصرى وغير مسلم حين قال : ان الرافعى هو المختار لحراسة لغة القرآن ، يقول الرافعى لم اقل له هذا ، ولم اعتقدها مطلقا ، ومن اجل ذلك آثرت فى هذه الكلمة تأثيرا عظيما واعددتها انبـاء من الغيب .

• • •

لقد كتب (اعجاز القرآن) فى ظروف خطيرة ، واجهت فيها الفصحى لغة القرآن تحديات ضخمة وهاجم القرآن كثير من التغريبيين فكان هذا الكتاب بمثابة مواجهة صريحة ، يقول الشيخ رشيد رضا فى مقدمته : أنه رد على الفئة من الزنادقة الملحدين الصـادين عن دين الله الذين اخذوا فى الطعن فى الدين وفى اللغة العربية وادابها والتمادى فى بلاغتها وفصاحتهـا وجمـود ما روى عن بلغاء أهلها من منظوم ومنثور ، ودعوتهم للناطقين باللسـان العربى المبين الى هجر أساليب الاولين واتباع أساليب العصريين ومنهم من يدعون الى استبدال اللغة العامية المصرية بلغة القرآن ، والغرض من ذلك صد المسلمين عن هداية الاسـلام وعن الايمان باعجاز القرآن .

ان الله تعالى قد أوجد بالقرآن أعظم انقـلاب فى البشر بتأثيره فى أنفس

العرب اذ جعلهم بعد أميتهم أساتيذ الامم وسادة العـــالم ، وما فقد المسلمون هدايته الا لجهلهم بأسرار لغته لذلك يهاجمه أعداءه الملاحدة والمستعمرون عن طريق لغته ، فليعلم المسلمون هذا وليحرصوا على حفظ دينهم بحفظ لغتهم وممارسة آدابها وأسرار بلاغتها وليكن غاية هذا كله فهم القرآن كما كان يفهمه السلف الصالح » .

وقال الرافعى : أن جهلهم باللغة وأسرار البيـــان هو السبب الذى ضل بهم وجعلهم يرون القرآن كلاما من الكلام يجرون عليه الحكم الذى يجرى على غيره كما يظن الجاهل الذى ليس فى نظره معان عقلية كل صورة ككل صورة » .

● ● ●

وقد مضى الرافعى فى هذا الطريق وكان مشغولا باخراج كتابه (أسرار الاعجاز) الذى لم يتمه وكان يقول فى رسائله الى أصحابه لا استريح الا اذا أخرجت (أسرار الاعجاز) لان الناس مهيئون للايمان ولكن ينقصهم من يكشف لهم عن أماكنه .

وقد تناول فى مجلة الرسالة وغيرها عددا من الايات الكريمة :

ولكم فى القصاص حياة ، حتى اذا بلغ مغرب الشمس ، قول معروف ، زين للناس ، وأتوا النساء صدقاتهن نحلة ، كأنهن بيض مكنون .

وفى هذا يقول : أن النبى صلى الله عليه وســـلم قبض ولم يفسر من القرآن الا قليلا جدا ولو كان النبى فسر للعرب بما يحتمله زمنهم ، وتطيقه أفهامهم ، لجمد القرآن جمودا تهدمه عليه الازمنة والعصـــور ، فان كلام الرسول نص قاطع ولكنه ترك تاريخ الانسانية يفسر كتاب الانســـانية فتأمل حكمة ذلك السكوت فهى اعجاز لا يكابر فيه الا من قلع مخه من رأســـه .

ويقول : لم يأت دين من الاديان بمعجزة توضع بين أيدى الناس يبحث فيها اهل كل عصر غير الدين الاســـلامى مما أنزل فيه من القرآن ، فكأن النبوة فى هذا الكتاب متجددة أبدا يلتقى بروحها كل من يفهم دقائقه وأسراره فلا يلبث البليغ الذى يفهم القرآن ولو لم يكن من أصله المؤمنين به — ان يستيقن فى نفسه انه حارس على اللغة ثم يغلوا فى هذا اليقين فاذا هو قد أوحت اليه نفسه أنه ليس حارسا على اللغة العربية فحسب ، ولكنه كذلك

من حراس المعجزة ويقول : ان العربية قد وصلها القرآن بالعقل والشعور النفسى حتى صارت جنسية »

● ● ●

ولقد لفت هذا الاتجاه الرافعى أوكار التغريب فى شدة فجرت محـــاولة لاغرائه فنشرت احدى الصحف العربية التى تصدر فى أمريكا فقالت :

انه لو ترك الجملة القرآنية ، والحديث الشريف لكان ذلك أجدى عليه وللأ الدهر يقول : ولخطمت فى أهل المذهب الجديد حطمة لا يبعد فى اغلب الظن أن تجعلنى مذهبا وحدى ، وقد وقفت طويلا عند قولها (الجملة القرآنية) فظهر لى فى نور هذه الكلمة ما لم أكن أراه من قبل واذا أنا تركت الجملة القرآنية وعربيتها وفصاحتها وسموها وقيامها على تربية الكلمة وارهاف المنطق وصقل الذوق مقـــام نشأة خاصة فى أفصح قبـــائل العرب وردها تاريخنا القديم الينا حتى كأننا فيه وصلتنا به حتى كأنه فينا ، وحفظهـــا لنا منطق رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنطق الفصحاء من قومه حتى لكأن ألسنتهم هى عند التلاوة تدور فى أفواهنا وسلائقهم تقيمنـــا على أوزانها ، اذا أنا فعلت ذلك ورضيته افترانى اتبع اسلوب الترجمة فى الجملة الانجيلية وأسف الى هذه الرطانة الاعجمية المعربة ، وارتضخ تلك اللكنة المعوجة ، وأعين بنفسى على لغتى وقوميتى وأكتب كتابة تميت أجدادى فى الاســـلام ميتة جديدة » الخ .

ثم أشار الى الدور الذى يقوم به خصوم الاسلام من جهة اللغـــة كيف يعملون على هدم الجملة القرآنية واحياء الجملة الانجيلية التى نراها كتابات اللبنانيين والمارون وغيرهم .

نعود الى القول : ان العربية بنيت على أصل سحرى يجعل شبابهـــا خالدا عليها فلا تهدم ولا تموت لانها أعدت من الازل فلكا دائرا للنيرين الارضيين العظيميين : كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ومن ثم كانت فيها قوة عجيبة من الاستهواء لا يملك معها البليغ أن يأخذ وان يدع » .

● ● ●

(٨)

كيف سيطر المنفلوطى والرافعى على قراءات الشباب المسلم منذ خمسين عاما

أفضى شيخنا الرافعى الى ربه منذ خمسين عاما (١٩٣٧) وظن التغريبيون أنه اختفى الى الابد وأنه لن تقوم له قائمة وان الدعائم التى غرسها فى تربة الفكر الاسلامى والادب العربى قد انتهت ، ولكن هذا الظن لم تصدقه الايام ، ووجدنا أنفسنا بعد نصف قرن نحتشد فى طنطا تحت راية الجامعة مع عشرات من الاعلام ومع الاجيال الجديدة لنجدد ذكرى هذا الرجل الكريم الذى نشأنا على فصوله فى الرسالة ، ومعاركه مع طه حسين والعقاد وسلامة موسى ولطفى السيد ، هذه المعارك التى كان يديرها من قلعته فى محكمة طنطا ، وهم أساطين الصحافة والفكر فى القاهرة ومع ذلك فان صوته كان مدويا ، وقد رفض أن يعمل فى الصحافة لانه كان يرى فيها رايا ولكن ذلك لم يمنعه ان يتخذها منبره لكشف زيف خصوم القرآن واللغة العربية .

نعم قد انتهت تلك المعارك ولكن مغزاها ما زال باقيا ، ويجب أن يعاد النظر اليها ، لا من اجل الخلاف بين الكتاب ولكن من أجل القضية الكبرى : قضية الغزو الفكرى والتغريب التى تنبه لها هذا الرجل واحتشد لها وخاصم من أجلها .

ولقد عشنا شبابنا ومطالع الصبا نقرأ المنفلوطى ونحبه وتستغدب كلماته وكان اكثر شهره فى العشرينات من الرافعى ، فقد كانت (النظريات) و (العبرات) والقصص الفرنسية المترجمة الى العربية والتى صاغها بأسلوبه الجميل (ماجدولين) والشاعر ، الخ يحتل مكانا واسعا فى قراءتنا حتى اننا كنا فى بلدنا ديروط نسير على شاطىء الابراهيمية مجموعة من الشباب نقرأ (ماجدولين) ونحفظها حفظا ، ونسعد نفوسنا بتلك الصور ونبنى أسلوبنا الادبى ببلاغة المنفلوطى الذى كنا نحبه لأنه من جيرة الصعيد ونحن نتنافس فى انتساب هؤلاء الاعلام فكانوا يقولون لنا نحن لدينا المنفلوطى وأنتم ماذا

عندكم فكنا نقول : ان حافظ ابراهيم شاعر النيل قد ولد فى ذهبية على شاطىء الابراهيمية حيث كان والده مهندس القناطر .

ولكن هذه النظرة الاقليمية تغيرت من بعد ، عندما بدات الرسالة تنشر للرافعى فصوله الاسلامية الرائعة التى غيرت من وجهتنا ، فقد نقلتنا الى الاسلام وتاريخه وأبطاله ، حيث كان المنفلوطى يحدثنا عن الوجدان والعاطفة واذا كان الرافعى والمنفلوطى قد اختلفا ودارت بينهم معارك ، فاننا قد اجبناهما معا ، وتكونا على سماطهما ، وآمنا بانهما رائدا مدرسة البيان العربى الجديد التى شكل قاعدتها الشيخ محمد عبده ، والتى وفاها شرحا ودراسة اخانا الكريم الدكتور حلمى القاعود فى رسالته الحافلة .

ولقد عشنا نتابع هذين الرجلين حتى جاء الدكتور محمد أبو الانوار فاعد دراسته الضخمة فى مجلدات ثلاث عن المنفلوطى ، وجاء من العراق (مصطفى البدرى) ليدق ابوابنا فى القاهرة باحثا عن آثار الرافعى التى نشرها فى عشرات الصحف دون توقيع ، فأعد فى المرة الأولى رسالة موجزة ، ثم عاد بعد سنوات فاعد الدكتوراة من جامعة القاهرة كلية دار العلوم عن الرافعى ، وكان والده قد أسماه (مصطفى) تيمنا باسم الرافعى كما أطلق (محمود أبو رية) اسم مصطفى على ابنه الاكبر ، وجاء من الجزائر الاستاذ محمد على ديوز بعد أن قطع رحلته فى الصحراء خلال الحرب العالمية الثانية على ظهور الجمال حتى اذا وصل القاهرة قال : لن ادخلها حتى أزور الرافعى فى طنطا ، فنحن فى جنوب الجزائر (القرارة) نحبه ونشغف به ونسمى اولادنا باسمه .

وفى السجون عاش شبابنا المسلم يقرأون (وحى القلم) بعد القرآن ويحفظون تلك القصص التى تصور تماسك الابطال فى مواقف الشدائد أمثال سعيد بن المسيب وغيره ممن قارعوا الاحداث وكانت اطروحة البدرى حافلة وان لم تطبع الى الان ونرجو أن ترى النور من قريب .

وما يزال الرافعى فى حاجة الى دراسة واسعة فى معاركه مع لطفى السيد وطه حسين والعقاد وسلامة موسى ، فقد كان قوى العارضة ، يمتلك ناصية البيان ، ويدافع عن الحق الذى يؤمن به .

ولقد أوردت له فى كتابنا (المعارك الادبيـــة) كثيرا من نصوص هذه المعارك وعقدت فصلا مطولا تحت عنوان :

(معارك الرافعى مع طه حسين والعقاد وزكى مبارك وعبد الله عفيفى)

جاء فيها : ولا شك أن الرافعى الذى كان بعيدا عن محيط الصحافة القاهرى مقيما فى مدينة (طنطا) رئيسا لكتاب المحكمة والذى تصدى فى وقت مبكر للدفاع عن اللغة العربية والاسلام قد احس بخصومته للمدرسة المجددة : هذه المدرسة التى بادأته الخصومة حين اصدر كتابه (السحاب الاحمر) فهاجمه سلامة موسى و (رسائل الاحزان) الذى هاجمه طـــه حسين فى السياسة الاسبوعية ثم وقعت الواقعة بينه وبين العقـــاد حـــول ديوان (وحى الاربعين) بعد ان وقعت بينه وبين طه حسين حول كتـــاب فى الشعر الجـــاهلى .

وكان الرافعى فى خصومته قوى العارضة عنيفا متمكنا مما يقول دامغ الحجة ، تتصل معاركه دائما بأمرين : اللغة العربية والاســـلام وقد بلغ قمة العنف فى كتابه (على السفود) الذى هاجم به العقاد .

يقول الرافعى : سعيت لدار المقتطف لامر ، فوافقت العقـــاد هنـــاك ولكنه لقينى بوجه غير الوجه الذى كان يلقانى به فاعتذرت من ذلك الى نفسى ، وجلسنا نتحدث وسألته الراى فى (اعجاز القرآن) فكأنما القيت حجرا فى ماء آسن ، فمضى يتحدث فى حماسة وغضب وانفعال ، كأن ثأرا بينه وبين اعجاز القرآن ولو كان طعنه وتجريحه فى الكتاب لهان على ولكن حديثه عن الكتاب جره الى حديث آخر عن القـــرآن نفســـه وعن اعجازه وايمانه بهذا الاعجاز .

وكان العقاد قد تناول كتاب اعجاز القرآن فى (البـــلاغ الاسبوعى) ١٩٢٦/١٢/١٠ فلما ارسل الرافعى رده عليه رفض البلاغ نشره وقد أشار الى ذلك فى رسائله الى الشيخ محمود ابو رية فى غير موضع مما يحمله قوله (ان العقـــاد سيكتب عن اعجاز القرآن وانا غير واثق منه لان عقيـــدته زائفة) ثم قال ان العقـــاد خرج الى السخف فى كتابته عن الاعجاز وأنه

ارسل ردا فيه مغامز كثيرة وقال اظننى قلت لك : ان الرجل صرح لى بأنه لا يعتقد بالقرآن ولا بالنبوة ولا بالوحى » .

تلك هى المعركة الاولى : اما المعارك بين الرافعى والعقاد ، وقد كانت للعقاد فى هذه الفترة تجاوزات سجلها على أحمد باكثير فى مقال له نشره فى الفتح دون أن يذكر اسم العقاد ولكن هذه المرحلة مرت وعاد العقاد الى ايمانه وشبيه بهذا موقفه من طه حسين فقد دار حول موقف كتاب (الشعر الجاهلى) من القرآن الكريم ، اما موقفه من لطفى السيد فكان من حول دعوته الى تفصيح العـــامية .

وكان جماعة دعاة الادب الجديد ينكرون اســـاسا أسلوب الرافعى وطريقته ويتهمونه بالجمود .

ولكن الرافعى كان حريصا على ما أطلق عليه (حارس اللغة العربية : لغة القرآن) وقد راودوه عن أن يترك (الجملة القرآنية) ويذيعوا ادبه فى مختلف انحـــاء العالم الاســـلامى فرفض .

وكان الرافعى هو السابق فى قضية تأديب التاريخ ، سبق طه حسين وهامش السيرة ، وسبق غيرهم من كتبوا فى هذا الباب وكان ملتزما ومتشددا .

وكان الرافعى يرى أن العقاد قليل الانصاف (وانه ينفس على قوة البيان فيتجاهلنى حتى لا أجرى معه فى عنان) .

لقد جرت حركة التغريب على عزل المنفلوطى والرافعى وشكيب ارسلان ورشيد رضا ومحب الدين الخطيب عن مجال التأثير وكتب سلامة موسى فى مجلته ما أسماه أوكار الرجعيين هاجم فيهـــا الرافعى والخطيب وشكيب ارســـلان ، وذلك من أجـــل اذاعة أراء طه حسين وســـلامة موسى وعلى عبد الرازق وغيرهم .

ولكن أهل الاصالة لم يفقدوا من يذكرهم ويقدمهم ، ولقد قدمنا دراسات عن أحمد زكى باشا شيخ العروبة وعبد العزيز جاويش ، والزيات وفريد وجدى وجاءت المدرسة القرآنية فقدمت الغمراوى وحسن البنا ومصطفى

النسباعى وعبد القادر عوده وسيد قطب وتشكل للمدرسة القرآنية قواعد واصول تحررت من اسلوب مدرسة الكلام والتمست مفهوم السلف الاصيل خاصة فى كتابه السيرة وتاريخ الاسلام وبطولاته .

وسيظل الرافعى رائدا من رواد هذا الادب مهما بعد العهد ، فهذه المدرسة هى مدرسة الاصالة التى تتشكل فى ضوئها اليوم مفاهيم الادب الاسلامى واسلمة العلوم والمناهج .

ذلك أن البيان القرآنى هو الاساس الحقيقى للفكر الاسلامى فى مرحلته القائمة بعد أن تكشفت لنا أبعاد المؤامرة التى ترمى الى خلق أسلوب فى الكتابة عامى ، على النحو الذى تكتب به الصحافة ، وذلك من أجل الفصل بين بيان القرآن والبيان العام ، ومن هنا فنحن ندعو دائما الى التماس منهج الاصالة فى البيان على النحو الذى قدمه الرافعى والمنفلوطى .

واذا كان لنا أن نسجل الان بعد خمسين عاما من عبور الرافعى الى عالم الخلد ، فان مدرسة الاصالة تتنامى الان وتمضى فى الطريق الى الافاق العليا ، آفاق بلاغة القرآن والسنة المطهرة .

هذا وبالله التوفيق ،،،

● ● ●

(٩)
فى ذكرى المنفلوطى

(١٨٧٦ — ١٩٢٤)

ما يزال اسم (مصطفى لطفى المنفلوطى) بعد مرور اكثر من ستين عاما على عبوره الى العالم الاخر حيا نابضا بالحيـــاة ، تهتز النفس لذكراه، وتسعد بالحديث عنه ، وتجد فيه وفى ذلك الرعيل من أعلام البيـــان الذين برزوا فى مطالع النهضة : الرافعى ، والبشرى ، وشكيب أرسلان وأحمد حسن الزيات عن بعد ، فلقد حفظ لهم صدقهم وايمانهم بأصالة البيان القرآنى العربى وجودهم بالرغم من كل الاعاصير والزوابع التى مرت بالادب العربى خلال هذه الفترة ، حيث تطاولت دعوات التغريب والغزو الثقافى والاسلوب التلغرافى وما يسمى باللغة الوسطى وأسلوب الصحف والعاميات بالرغم من هذا كله فما تزال مدرسة البيـــان العربى الحديث قائمة ومقدورة ومشهود لها بالفضل والريادة .

وقد أكد تاريخ الادب العربى على الدور الذى قامت به هذه المدرسة وعلى رأسها شيخنا الجليل مصطفى لطفى المنفلوطى وذلك الرعيل من اخوانه وتلاميذه فقد كتب عنهم كثيرون من المعاصرين بدافع من تقديرهم لفضلهم وكان آخر هؤلاء منذ سنوات معدودة الدكتور حلمى القاعود فى رسالة ذائعة عن أعلام البيان العربى وكان للشيخ المنفلوطى فيها مكان مقدور .

ومن قبل ذلك كتب الدكتور محمد أبو الانوار اطروحة عن المنفلوطى طبعت فى ثلاث مجلدات كبار ومن قبله كتب الاستاذ محمد شلبى رسالة طيبة ولم يخل تاريخ النقـــد الادبى على مدى هذه السنوات الطـــوال من ذكر المنفلوطى ودورة الرائد المقدور ، وتقييم أعماله سواء فى مجال الانشـــاء والبيان أو فى مجال ترجمة القصص الاوربى على النحو الذى عرف به ولاول مرة وهو وضع القصص الغربى بعد ترجمته فى قالب عربى رفيع كما فعل فى قصص ماجدولين والشاعر وغيرها وكانت هذه القصص تترجم له ثم يصوغها بأسلوبه الجميل ولا نستطيع أن ننسى دوره فى مجال الشعر .

قال الاستاذ الزيات رحمه الله : أشرق أسلوب المنفلوطى على وجـه (المؤيد) اشراق البشاشة وسطع فى أندية الادب سطوع العبير ورن فى أسماع الادباء رنين النغم ورأى القراء والادباء فى هذا الفن الجديد ما لم يروه فى فقرات الجاحظ وسجعات البديع ومالا يرون فى غثاثة الصحافة وركاكة الترجمة فاقبلوا عليه اقبال اليهم على المورد الوحيد العذب ولا يزال أدب المنفلوطى بعد ستين عاما قويا حيـا يبعث فى النفس اثاره دون ان يقضى على الالوان الجديدة التى جاءت بعده .

ولقد كان مدرسة جديدة فى البيان العربى بدأت آثارها فى كتـابات الكثيرين من بعده وقد استطاع المنفلوطى أن يظفر من ناقديه بأنه أحـد أولئك الادباء القـلائل الذين ادخلوا المعنى بالصورة فى الانشاء العربى ، فهو وان جدد فى أسلوب التعبير فقد ظل محافظا فى ميدان المعانى .

وقد اتصل المنفلوطى بالشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد وكتب فصوله التى عرفت باسم (النظرات) والتى اشتهر بها واذاعت اسمه فى كل مكان وابتدع فيها هذا الفن الجديد من الكتابة العربية الجزلة السهلة الرائعة ، ثم كانت له تلك القصص الحزينة التى جمعهـا تحت عنوان (العبرات) فقد كانت تكشف عن عاطفة ممضة واذا كان المنفلوطى قد اعجب شبـاب ١٩٠٧ حين كان ينشر نظراته فى المؤيد فقد ظل هذا الاثر متصلا فى شبـاب مصر والبلاد العربية وانى لاذكر اننا كنا أعوام ١٩٣٠ وما بعدها نتجمع فى بلدتنا (ديروط) فنمشى فى الاصيل على ضفاف (الابراهيمية) نردد عبـارات المنفلوطى فى قصة (ماجدولين) وغيرها وقد حفظناها عن ظهر قلب وكنـا نفرح بالمنفلوطى ونتحيز له لانه ابن بلدنا فقد كانت ديروط مجاورة لمنفلوط، وكانت كل منهما تزدهى بأبنها حيث ولد حافظ ابراهيم على ضفاف ديروط ، وكان أهل منفلوط يحبونه كما نحب نحن المنفلوطى .

وللمنفلوطى تاريخ عريض ، فى مجال السياسة والوطنية وكان حبه قسيما بين الشيخ محمد عبده وسعد زغلول .

ولسنا نستطيع أن نتحدث عن المنفلوطى دون أن نذكر دوره الذى كان له أبعد الاثر فى تركيز الاصالة الادبية فى البيـان القرآنى حين شنت عليه الحرب من جهات كثيرة وأهمها المهجريون الذين كانوا يتطلعون الى تغيير الاسلوب الادبى بادخال مصطلحات تورائية عليه حيث كانت مدرسة المهجر

التى يقودها جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وغيرهما تزدهى بأنها تجدد الادب العربى والاسلوب العربى ، ولقد استطارت شهرتها واغرت بعض المثقفين والكتاب ردحا من الزمن غير أنها لم تستطع أن تواصل فان مدرسة البيان العربى الذى اقامها المنفلوطى لم تلبث ان تغلبت واكتسحت وامتلكت القيادة والصدارة وانهزمت فلول الادب المهجرى بدعاواه وانهارت قواعده تماما وكان ذلك نصرا لاسوب القرآن الكريم ، وبيـــانه الذى سيطر على الساحة الادبية وبرز بروزا واضحا فى مجلة البيـــان التى كان يصـــدرها عبد الرحمن البرقوقى ، ثم فى مجلة الرسالة على أوسع نطاق .

وبعد فقد اخذ المنفلوطى مكانه الحق لانه علم على راس مرحلة من مراحل الانشاء الادبى وعلى راس (طريقة) فى الادب واسلوب فى التعبير فقد خرج المنفلوطى عن الاسلوب التقليدى فأدخل الى الادب المعانى والصور بعد ان كان الزخرف هو كل شىء ، فهـــو مرحلة بين المويلحى وبين الزيات والرافعى وهو الذى صدع بناء المدرسة المهجرية واستطـــاع أن يحتفظ بالاسلوب العربى المتصل بالبيـــان القرآنى الذى هزم الطابع التورائى الذى ادخله جبران ونعيمة وانتهى بنهايتهما ولا ننسى انه كان الى ذلك كاتبا وطنيا واجه الانجيز بقلمه فى عنف ومقاله فى الرد على روزفلت حين جاء الى مصر مشهور وقصيدته فى هجاء الخديو معروفة .

وقد يتسائل البعض لماذا كان المنفلوطى بدعا فى أسلوبه .

وقد أجاب عن ذلك بقوله : وليعلموا أنى ما استعطت ان اكتب لهم تلك الرسائل التى يعلمونها بهذا الأسلوب الذى يزعمون أنهم يعرفون لى الفضل فيه الا لانى استطعت أن انفلت من قيود التمثيل والاحتذاء وما نفعنى فى ذلك شىء ما نفعنى ضعف ذاكرتى والتواؤها وعجزها عن أن تمسك الا قليلا من المقروءات التى كانت تمر بى » . وهكذا كان المنفلوطى خلاصة عصره كله ، فقد استطاع أن يمتص ما فى تربة عصره من أساليب ومذاهب ويصيغها أسلوبا جديدا بعيدا عن السجع وقريبا من الازدواج فكان بعيـــد الاثر فى شباب جيله وفى الاجيال من بعده مؤثرا اشد التأثير حتى لقد أصبح مدرسة نهج على نهجها من بعده كثيرون .

هذا وبالله التوفيق ...

(١٠)

باكثير بعد ٢٠ عاما

اليوم وقد مر على غياب الاخ الكريم (على احمد باكثير) أكثر من عشرين عاما فانه ما زال ماثلا فى القلب والوجدان لا يغيب ، ذلك لانه كان محبا لمن يعرفه صادق الحب ، وكان وفيا خالص الوفاء وكان الى ذلك مؤثرا فى النهضة الادبية العربية الاسـلامية على نحو لا يمكن لمؤرخ الادب ان يتجاهل دوره وأثره مهما اختلف معه .

ولقد كان لوفاته فى ظروف غامضة مأساوية أثرها الكبير فى الاحساس بأثره وفضله ، ذلك انه عاش تلك المرحلة الاخيرة من حياته فى ظل جو مظلم شديد الظلمة حجب فيه أصحاب الكلمة المؤمنة الصادقة ودعاة الاصـالة والمحبين للاسـلام والعربية عن مواقع التأثير ، وكان ذلك بالنسبة لباكثير شديدا على نفسه الحرة الصافية ، حيث لم يكن يملك من أدوات النفـاق أو الخضوع ما يمكنه من أن يمضى مع الذين مضـوا فى ذلك العهد الذى تسلط فيه الماركسيون على الاعلام والادب والصحافة والفن والمسرح فاذا بهم يقصون كل من كان مؤمنا بقيم هذه الامة وفى مقدمتهم عبد الحليم عبد الله وعلى أحمد باكثير وهما من ماتا بعد ذلك بقليل كمدا والما لما أصـابهم من حرمان فى مكانتهم الادبية حيث القيت عليهم ظلال التجاهل والصمت .

ولقد جمعتنا مع باكثير جلسات طويلة وحافلة ، وكنا على موعد مع مشرق النور ، غير أن الصديق الكريم كأن قد أوفى ما قدر من أجل وغادرنا الى دار الحق وعاش فى نفوسنا وأحاسيسنا حيا بعمله الادبى الكبير الذى يجب أن يكتمل فى دائرة ما يسمى (الاعمال الكاملة) .

ومن هنا فاننا نحيى بصدق واخلاص جهود الاخ الكريم الاستاذ الدكتور محمد حميد . على ما يقوم به فى هذا السبيل وفقه الله الى استكمال هذا العمل . ان الدور الذى قام به باكثير فى أسلمة المسرح وتأصيل دوره سيظل بارزا وواضحا ، وسيعرفه له الذين سيكتبون عن هذا العمل فى مقتبـل

الايام وان انسى لا انسى مواقف له كريمة وحاسمة فى مقدمتهـا موقفه من شخصية ادبية بارزة (مما سجله فى مجلة الفتح التى كان يصدرها السيد محب الدين الخطيب) حين التقى بها فحاولت أن تحتـويه فى دائرة الفكر الغربى الذى كان يعلى من شـأن الاخلاق على الدين ، ومع أنه كان فى ذلك الوقت ما يزال طالبا فى كلية الآداب فقد راجع كاتبنا الكبير وكشف له عن خطاه فى تبنى مقولة الكارهين للاديان واعتقد انه اثار فى نفس الاديب الكبير الشكوك فى نظريته ، ولقد راجعته فى هذا الامر فدهش لانى قد عرفت الرجل الذى لم يكتب اسمه ولعل صاحبنا الكبير قد تحول عن مفهومه هذا من بعـد ولكن هذا الموقف يعطى احساسا بمدى صلابة عود باكثير فى هذا الوقت المبكر من العمر وعمق ايمانه وقدرته على المناقشة والمحاجة وهو موقف تكرر كثيرا .

كان (على أحمد باكثير) علما من أعلام الشعر والقصة فى الادب العربى المعاصر وله آثاره الفنية الاصيلة المؤمنة بحق هذه الامة فى الوجود وبعقيدتها ولغتها ، وكان عمله كله فى هذا المنطلق وكان له دوره وآثاره الواضحة فى مواجهة الاستعمار والصهيونية والغزو الفكرى وهى آثار نشر بعضها ولم ينشر البعض الاخر ، وعلى الاخوة الذين يريدون احيـاء تراث باكثير أن ينقبوا عن كل هذه الاثار ويقدمونها من جديد لشباب هذا الجيل حتى تسعد هذه الروح فى برزخها وتؤكد بأن هذه الامة لا تنسى الرجال الذين قدموا اليها عصارة فكرهم ووجدانهم ، فلنقدمه شاعرا وقصاصا وناقدا كبيرا .

لقد كانت رحلة باكثير طويلةجدا من أندونيسيـا الى حضرموت الى القاهرة ، ولقد كانت نفسه الصافية وروحه المؤمنة تقوده فى كل خطواته فكان صادق الوفاء للفكرة الاسـلامية فهى نبراسة فى كل كتاباته ، وكان محبا أصحبه فى مجال الفكر والادب ولكنه كان قوى الشكيمة فى مواجهـة خصوم الاسلام والعربية فقد ألف فى نقدهم أكثر من عمل — فكشف زيفهم فى مسرحية (حبل الغسيل) ورد عليهم كيدهم وباطلهم وتلك مرحلة كانت من أقسى المراحل على أهل الاصالة كان يعزينا فيها التطلع الى أفق الغـد الذى جاء يكشف هؤلاء الكارهين ، ولقد كانت له مساجلات معروفة تكشف عن ايمانه بالاسـلام منهج حياة ولعل هذا هو الذى جعله غريبا عن هذه المجمـوعة التى سيطرت على الحياة الادبية فى عقد الستينات اللعين والتى قاومها باكثير ما استطاع وترك فى كشف زيفهـا اثرا ما يزال حيا مقروءا .

ولا زلت اذكر يوم أن طلبنى بالهاتف وحدثنى عن رغبته فى جمع مسرحياته الاسلامية التى كان ينشرها فى الصحيفة الاســلامية اليومية خلال سنوات ١٩٤٦ / ١٩٤٧ وقد تفضل ودعانى لكتابة مقدمة لها وقد قدمها فى الاغلب للهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٦٥ تقريبا واظن أنها ما تزال مدفونة فى اضابير تلك الهيئة ، اذ انه لم يلبث أن توفى بعد قليل ولكن هذا العمل لن يضيع اذا توفر له من يعيد جمع هذه المسرحيات من جديد من بطون الصحف التى كان يكتب فيها اذ ذاك وهو عمل ناجح بكل المقاييس حين نقدمه لشباب الاسلام فى هذا العصر .

ذكريات كثيرة بعد عشرين عاما من عبوره الى عالم الحق ما تزال حية فى الصدور تمثل تقديرا وحبا واعجابا لهذا الانسان الكريم الذى يمثل الفطرة الاسلامية العربية خالصة من كل تذويق أو تنميق من خلال حياة خصبة عامرة تضع صاحبها فى اجل مكان فى عالم الفكر والبيان العربى .

• • •

(١١)

كمال الملاخ
وإحياء نظرية الفرعونية الباطلة

كان الحديث عن دعاوى كمال الملاخ بمناسبة وفاته ولقد أفضى الاستاذ كمال الملاخ الى ما قدم وانتهى بذلك شوط طويل امتد أكثر من ثلاثين عاما كان يعمل خلاله يوما بعد يوم على تغذية نظرية خاطئة فى محاولة جبارة متصلة على صفحات كبرى الصحف العربية ليجعل من فكرة وثنية قديمة جاءت المسيحية المنزلة بعدها لتدحضها وتكشف زيفها وتزيل آثارها ثم جاء القرآن الكريم ليكشف زيف فرعون وفرعونيته وادعائه الالوهية وتكذيبه لنبوة موسى عليه السلام وتدمير هذه المحاولة التى كانت ترمى الى تأليه الحاكم المستبد .

أن الفكر الاسلامى لا يرد (تاريخ مصر الفرعونية) ولكنه يضعه فى مكانه الصحيح فى عصور ما قبل الاسلام ، ايمانا بالدور الذى قام به الانبياء عليهم السلام جميعا قبل بعثه محمد صلى الله عليه وسلم ، ويذكر لهم الايمان بالبعث والحساب ، وهو يعتبر هذه المرحلة جزءا من تاريخ مصر اختلطت فيه ملامح الايمان بالبعث والجزاء بالوثنية على النحو الذى صوره نبى الله يوسف حين قال (أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) .

ولكن الفكر الاسلامى يقف موقفا واضحا من المؤامرة التى قام بها النفوذ الاجنبى فى ثلاثينيات القرن العشرين الميلادى من أجل اعادة لون مصر الفرعونى باحياء تراث الفرعونية الوثنى واحلال الصبغة الفرعونية فى المبانى والملابس والاغانى والفن (وخاصة فى رموز الجامعة وبنك مصر من كليوباترة الى الكاتب الجالس القرفصاء) محل الطابع الاسلامى وهى محاولة لم يستطع المتصدرون لها أن يعلنوا هزيمتهم المبكرة وفشلهم السريع بعد أن فتحت لها أبواب الصحف وقامت جماعات تدعو لها،الامر بسيط يسير هو أن الفرعونية

لم تخلف تراثا تاريخيا أو ثقافيا (من فلكلور أو شعر أو أغانى) يمكن أن يمثل أدبا أو تراثا أو شيئا من ذلك ومع سقوط المحاولة فان هناك من كان حريصا على اشاعة هذه الروح الفرعونية واحياء هذا التراث والاذاعة به وفى ظل تشجيع السياحة تعالت الصيحة فى هذا الاتجـــاه وجرت محاولات كثيرة لجعله مقابلا للاسلام أو بديلا له فى اخلاقيات المجتمع وتقاليده .

وقد استخف كمال الملاخ قومه فاندفع فى هذا الاتجـــاه اندفاعا شديدا وكانت هناك قوى تحاول أن تفرض هذا التيار فقد استخدموه فى بعث تاريخ الفراعنة وفتحوا له الابواب واعطوه الهدايا والنياشين والدرجات العلميـــة ونسبوا اليه اكتشاف مراكب الشمس على الرغم من الشبهات المحيطـــة بدوره فى هذا الامر ، وكان يظن أنه بهذا الطريق الذى يسلكه يخـــدم ثقافة ما أو عقيدة ما ، ولكنه لم يكن يعرف أنه يزيف تاريخا ناصعا مشرقا متصلا بألف مليون من المسلمين ، وان هدفه يرمى الى تمزيق ثقافة الامة التى تنتسب كلها الى تراث الفكر الاسلامى الذى استضفى كل تراث الاديان السماوية وفكرها وفلسفاتها باعتراف عشرات من الباحثين المتصفين من غير المسلمين .

كان هدفه احياء فكر وثنى قام على الاصنام والتماثيل وانحرف عن عبادة الله الواحد الاحد وما كان يمكن أن يكون هذا التراث الزائف مرتبط بالدين المنزل ، نعم كان موسوعة فى هذا الركام من الزيف وحصاد الهشيم وقبض الريح ، فى محاولة لاحياء عصر وفكر وعقـــائد جاءت الاديان المنزلة لكشف زيفها ، وحماية العقل البشرى من فسادها واضطرابها وكان كمال الملاخ الذى افضى الى ما قدم يتعامل مع الناس من خلال مفهوم عابد فى معابد الاصنام التى ازالتها الديانة المسيحية ولم يستطع أن يحرر نفسه من الولاء الوثنى فى عناد وتعصب شديدين وكان يردد هذه الكلمات التى دفنها التاريخ من الفكر الوثنى القديم ومن ذلك دعواه البـــاطلة فى مقـــال له فى الاهـــرام ١٩٨٧/٥/٦ بأن ١٦٢ كلمة اجنبية دخلت القرآن الكريم من بينها كلمة فرعون فى دعاوى عريضة لتأصيلها من أيام البطالة وقبلها وكذلك ادعائه أن عددا من الالفاظ المتداولة فى اللغة العربية انحدرت من اللغة المصرية القديمة وقد دحض مقولته الدكتور احمد حسين الصاوى الذى قال أنه لمن المؤسف أن الأستاذ الملاخ قد خانه التوفيق فى حكمه ولعل هذا راجع الى فرط تحمســـه

لكل ما هو مصرى قديم وقلة احتفاله بما هو عربى أصيل وقد اختار الدكتور الصاوى عددا من الالفاظ التى أوردها فكشف عن انها من الالفاظ العربية العريقة منها كلمات (لقمة ، خبز ، الرقاق ، كال ، واحد ، اثنتان ، دمس).

ونبه الدكتور الصاوى الى من زعموا ان اسم القاهرة الذى أطلقه المعز لدين الله على هذه المدينة ليس فى الحقيقة من اللغة المصرية القديمة وان كثيرا من الكلمات موجودة فى اللغات الارامية والسريانية والعبرية فهل يجيز ذلك أن نقول أن تلك الالفاظ اشتقت من اللغة المصرية القديمة ، وقال الدكتور الصاوى فى دحض مقولة الملاخ :

(ان العنصر العربى الخالص متمثلا فى بعض موجات الهجرة من قبائل شبه الجزيرة العربية ، كان من الروافد التى كونت شعب مصر القديمة ، وكان من نتائج ذلك التأثير الحضارى لذلك دخول بعض الالفاظ العربية الى اللغة المصرية القديمة وليس العكس) أ . هـ .

ومن ناحية اخرى نقول أن مسألة الكلمات الاعجمية التى ادعى البعض انها دخلت الى القرآن ، قد ناقشها عشرات الباحثين وانتهوا الى حقيقة لا يداخلها الشك بأن كلمات القرآن كانت عربية أصلا ، ومن الجائز انها استعملت فى لغات اخرى ولكنها من اللغة العربية القديمة التى هى أساس كل هذه اللغات التى ظهرت من بعد وان القرآن الكريم برىء تماما من الالفاظ الاعجمية وهو ما نقول به ولكن كمال الملاخ كان يرمى الى غمز هذه الثقافة الاسلامية .

ونحن نتساءل لماذا هذا التوسع فى تاريخ مصر القديمة وبمفاهيم الفرعونية والوثنية والادعاء بأنها دخلت كل ميادين الثقافة والتاريخ والطب والاطعمة مع أن هذه المرحلة مرتبطة بعصر طفولة البشرية وصراع الملوك والفراعنة التى كان كل من يجىء بعد الاخر يمحو اسمه ويثبت الاسم الجديد وما يهللون به عن توحيد اخناتون الذى وحد عبادة الفراعنة من الأصنام الى عبادة قرص الشمس وسمى هذا توحيدا وتتردد دعاوى هذه الصراعات دون أن ترتفع أعلام الانبياء الذى دعوا الى التوحيد الخالص ادريس وابراهيم ويوسف وموسى عليهم السلام .

ويكفى فى هذا المجال أن نقول ما كتبه المؤرخ العالمى ارنولد توينبى : « عبثا بحثت فى الحضارة الفرعونية فى كيان مصر الحديثة) واعلن أن الحضارة الفرعونية قد ماتت من قديم وهذه حقيقة يجب أن تكون موضع نظر الخادعين والمخدوعين على السواء فليست الفرعونية الا تلك التماثيل المكدسة فى المتاحف أو المعلقة على سفوح الجبال أما فى الوادى فقد انقرضت كما يقول دكتور جمال حمدان كما انقرضت من قبل تماسيح النيل فى النهر وان انتقال مصر الى الاسلام بعد أن مرت بها الدعوة الابراهيمية الحنيفية ودين موسى ودين عيسى ليعطى الصورة النهائية لحضارة كونها الاسلام ولثقافة بناها القرآن واللغة العربية ويمثل وضعها هذا انقطاعا طبيعيا لا سبيل الى استعادته مع العصور الحديثة والديانات القديمة ولم تكن العروبة والعربية حديثة على مصر بدخول الاسلام بل كانت موجات متوالية خرجت من الجزيرة العربية قبل آلاف السنين ووسمت هذه المنطقة واعدتها للنقلة الى المرحلة الاخيرة .

وهذا الكلام يقال لجماعة من الكارهين للاسلام الذين يحاولون أن يصوروها وقد تشكلت تقاليدها وقيمها من خارج عطاء الدين الحق ، ويدعون أن مصر هى التى شكلت وجودها الذى اعطاها طابعها القائم من القدرة على المقاومة وحماية ذاتيتها ونحن نقول لذلك ان هذا التشكل انما تم فى ظل العقيدة التى جاء بها ابراهيم وادريس ويوسف وموسى (وهى دين التوحيد الخالص) وان كل ما كان فى عصور ما قبل الاسلام من معالم الايمان أو الثبات أو الخلق الكريم فهو من الحنيفية السمحاء التى استكملت وجودها بالاسلام، هذا هو العطاء الحقيقى الذى صنع لمصر كيانها القوى القادر على حماية وجودها فهى بالاسلام واللغة العربية قد اقامت هذا الصرح العظيم وكل تفسير غير هذا فهو من اضاليل الشعوبية واهواء الشعوب .

ومن ناحية اخرى فان ما ادعاه طـه حسين وغيره من أن الفرعونية متأصلة فى نفوس المصريين ، هذا القول قد كذبته ابحاث العلماء وحفريات الاثار وقيام قاعدة (الانقطاع الحضارى) التى أشار اليها علماء الجغرافيا والاثار ترفض دعاوى الشعوبيين اعداء الاسلام ولعل هذا هو سر ذلك الولاء العجيب الذى كان قائما بين الملاخ وطه حسين .

هذا وتقول أحدث النظريات واقواها ان الفراعنة موجة من موجات الجزيرة العربية التى هاجرت وانه توجد روابط سلالية بين العرب والفراعنة ترجع الى ما يربو عن خمسة آلاف سنة مضت وان هناك اثارا باقية حتى يومنا هذا تدل على أن مصر كانت متصلة ببلاد العرب الجنوبية ، هذه حقائق يقتضينا الانصاف ان نسجلها .

ولقد كان هدف دعاة الفرعونية ادخال مفاهيم الوثنية المرتبطة بالوثنية اليونانية وتجديد عبادة البشر بعد ان حطم الاسلام هذه العبودية واعلى من شأن الله وحده جل شأنه .

وتؤكد أبحاث دقيقة أن الامتداد الفرعونى قد قطع قبل الف سنة من دخول الاسلام .

ولقد كان من الضرورى تضفية هذه القضية فى هذه المناسبة .

والله ولى التوفيق ،،،

● ● ●

((خاتمـــة))

ريادة الإسلام للفكر العالمى المعاصر

(كشف الغربيون المنصفون عظمة الاسلام كما أعلنوا زيف فكرهم)

فى خلال هذه المرحلة من حياة الدعوة الاســـلامية تكشفت حقيقتـــان اساسيتان لا يمكن تجاهلهما .

الأولى : كشف الغربيون أنفسهم بواسطة أبرز مفكريهم فساد الحضارة الغربية واضطرابها وخروجها عن الجادة ومدى المخـــاطر التى تحاصرها فظهرت عشرات الكتب التى تقـــرر هذه الحقـــائق وتنص على محاجاتهـــا للفطرة والعلم والدين الحق .

من يطالع (أفول الغـــرب) تشبنجلر ، أو الانســـان ذلك المجهـــول لالكس كاريل ، أو الاســـلام على مقدمة الطرق ليوبولد فايس أو الاســـلام بين النظرية والتطبيق للمهدية مريم أو ثورة المنتمى ، أو الكتب المقـــدسة والقرآن لموريس بوكاى .

هذه الكتب وغيرها تكشف عن زيف الحضارة الغربية وفساد فكرها

ثانيا : كشف الغربيون أنفسهم بواسطة مفكريهم عن عظمة الاســـلام ومنذ سنوات بعيدة كتب اللورد هدلى كتابه (ايقاظ الغرب للاســـلام) وكتب الكونت دى كاسترى كتـــابه (الاســـلام خواطر وسوانح) وكتب كاريل (الابطال وعبادة الابطـــال) وعن نبى الاسلام فصله الرائع (البطولة فى صورة نبى) كما كتب جوستاف لوبون كتابه (حضارة العرب) وكتب دارير عن الاســـلام فى مجال العلوم وعطاء الاســـلام بايجاد المنهج التجريبى الذى قامت عليه الحضارة الحديثة .

كذلك كتبت دكتورة سجريد هونكة عن دين الغرب للحضارة الاسلامية والعلوم الاســـلامية .

وفى السنوات الأخيرة كتب بوكاى وجـــارودى والسون فأضـــافوا اضافات جديدة لهذا التيار المجهل الآن فى محاولة التغريبيين أنكاره وحجبه وجاءت دراسات الاعجاز العلمى فى القرآن لكشف جوانب جديدة فى عطـــاء

الاسلام للحضارة المعاصرة ، هذا العطاء الذى يمر بمرحلة تجهيل شديدة مما يطلق عليه (مؤامرة الصمت) .

وعندما اكتشف المستشار عبد الحليم الجندى كتاب فرنسيس بيكون الذى وصف بأنه مصدر الفكر الغربى الحديث ، وأخذ فى قرائته وترجمته وجده منقولا بكامله من كتاب (الرسالة للامام الشافعى) مع عدم ذكر المصدر .

وعندما جرى الحديث عن منهج ديكارت وحاول طه حسين أن يخدع الناس بأنه نقله اليهم وقال لانه هو منهج العصر الحديث تكشفت حقائق كثيرة فوجدت النسخة المحفوظة فى مكتبة ديكارت من كتاب (المنقذ من الضلال للامام الغزالى) وقد أشار على نص منها بقلم لونه أحمر قائلا : تنقل هذه الفقرة الى منهجنا .

كانت هذه الفقرة هى قول الامام الغزالى : ان الشك يسبق اليقين وقد تبين أن مصدر المنهج العلمى الغربى الحديث هو اسلامى اساسا فقد أشار الدكتور محمد حسين هيكل فى مقدمة كتابه (حياة محمد) قائلا : لقد كتبت السيرة بالمنهج العلمى الحديث فأشار الشيخ المراغى فى المقدمة : ان هذا القول مما يعتذر عنه فان هذا المنهج الذى يشير اليه هيكل هو منهج الاسلام الذى نقل الى الغرب وجهله المسلمون ثم جاءوا ينقلونه دون أن يدروا أنه من ابداعهم أصلا .

ولقد حاولت قوى التغريب والغزو الثقافى أن ترد كل ما ينسب الى علماء الاسلام من فتوح فى الفكر أو العلم ، ترده الى مصدر غربى ولما أعترف علماء الغرب بعظمة عطاء ابن خلدون فى ريادته لعلمى التاريخ والاجتماع قام بعض علماء التغريب بانتقاص هذا الرجل باتهامه انه استقدم منهجه من فكر اليونان القدامى ولكن شاء الله تبارك وتعالى أن ينصفه رجل كان من دعاة العلمانية ثم شرح الله صدره للاسلام هو الدكتور حسن الساعاتى الذى شهد بأن (القرآن الكريم) كان هو النبع الاساسى لنظريات ابن خلدون وان أصول علم الاجتماع الذى شاد عمده وأنشأ بنيانه منذ أكثر من تسعة قرون نابعة من القرآن الكريم وبحيث يمكننا أن نسمى علم الاجتماع الخلدونى : علم الاجتماع القرآنى وعلم الاجتماع الاسلامى .

وبالرغم من أن ابن خلدون لم يقرر أنه اعتمد على القرآن الكريم فى كثير من نظرياته الاجتماعية التى بأورت ابتكاره لعلم الاجتمـاع الانسانى والعمرانى البشرى الا أنه درج على ذكر آيات قرآنية كثيرة تدفقت ينبوعا لافـكار وقوانين اجتماعية ومصدرا لاستدلال وتعليل وبرهان وذلك بغرض دعم النظرية التى يجهد فى بلورتها أو لتوضيح الفكرة التى يحاول صياغتها فى اطار اجتماعى سليم أو لبيان كون الظاهرة التى يتناولها بالتحليل والتفسير من السنن الاجتماعية التى لا تتبدل .

وهكذا فان الباحث المتعمق يستطيع أن يحكم بأن ابن خلدون قد اهتدى الى وضع علمه الاجتمـاعى الجديد بتدبره الاجتماعى للقرآن الكريم من جهة وباهتدائه بمنهج علم الحديث وأصول الفقه من ناحية أخرى وبناء على ذلك يمكن أن نقرر أن (علم الاجتماع الخلدونى) هو نتاج التفكير العلمى الاسلامى الذى ينشد التوصـل الى اليقين وعلى هذا يمكن القول بصدق : ان علم الاجتماع القرآنى يعتمد على استقراء نظرياته على وقائع الأمة الاسـلامية وأحوالها فى عصور مختلفة وجملة القول ان ابن خلدون وضع فى اعتبـاره القرآن الكريم مصدرا أساسيا ورئيسيا يقتبس منه ما يعينه على فهم الظواهر الاجتماعية وصياغة نظريات وإقامة أدلة ودعم حجج وبناء براهين » أ . هـ

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى نرى أن الحقـائق التى كانت غامضة أو محجوبة بشـأن عظمة الاسـلام وعطائه ودوره فى بنـاء الحضـارة الانسانية ، هذه الحقائق تنكشف عنها الاستار رويدا رويدا .

ونجد اليوم أمثال الدكتور فؤاد سيزكين فى محاولته الخطيرة للكشف عن دور الاسـلام فى مجـال العلوم التجريبية فقـد ظلت أوربا لقرون طويلة تدعى أنها فى نهضتها العلمية منذ القرن الثالث عشر ، كانت تعرفا على تراثهم الاغريقى ، ثم تعدلت الصيغة حتى أصبحت الاعتراف بالعلماء العرب والمسلمين فى دور الوساطة بين الاغريق والعـالم الاوربى عن طريق ترجمـة الكتب الاغريقية الى العربية ثم انتقالها الى اللاتينية .

ثم تطور هذا الموقف كما يقول الدكتور سيزكين الى اظهار العـرب والمسلمين لم يبقوا متوسطين بل قاموا بدور هام كمطورين ومبتكرين فى تاريخ العلوم وقد استغرق هذا وقتا طويلا مما يبرر حقيقة التعصب الموجود لدى الاخرين ومقدرتهم على اخفاء الحقائق أو تغييبها عن أنظار المتابعين .

ولكن هذه الدراسات لم تتسع الى حد يبين مســاهمة العرب والمسلمين الابداعية وتحقق تصحيح جذرى فى موقف مؤرخى العلوم بهذا وانغطاسه فى الكتب المدرسية .

نقول (ومن هنا كان ذلك التجاهل لدور المسلمين فى دراسات العلوم الحديثة عندنا فى بلاد المسلمين) .

ومن هنا يرى الدكتور فؤاد سيزكين انه لابد من عمل متصل حتى يجرى الاعتراف الكامل بهذا الدور .

ومن هنا يجرى عمله الواسع العريض للكشف عن حقائق هامة فى حياة المسلمين وعلومهم ما تزال محجوبة فى داخل كتب التراث ومن ذلك :

١ — انهم كانوا قادرين على قياس خط الاستواء بانحراف ضئيل جدا عما هو معروف اليوم .

٢ — وانهم كانوا قادرين قبل الف سنة على اثبــات أن ميل الكرة الارضية يقل باستمرار .

٣ — وانهم كانوا اول من لاحظ أن أوج الشمس — اى نقطة بعــدها الاقصى عن الارض تتقدم سنويا بمعدل (١٢٫٠٩) ثانية باختلاف بسيط عن النتيجة المعروفة اليوم (١١٫٤٦) ثانية .

ومن ذلك ما يكشف عن تراث المسلمين من انهم اشاروا الى ضرورة استخدام التجربة باستمرار فى البحث العلمى واشــاروا الى ضرورة أن تسبق النظرية التجربة وان يقام التوازن بينهما .

ويرى الدكتور فؤاد سيزكين أن العمل الضرورى اليوم هو اعادة صنع ما وصل الينا معرفته من آلاتهم العلمية التى طوروها مما اخذوه من الامم الاخرى أو اخترعوها ويوضع بجانبها الآلات الاوربية التى تبين لنا انه تقليد لها أو ناشىء تحت تأثيرها .

وقال انه أمكن حتى الان صنع ما يقرب من ٢٥٠ آلة يرجى وصولها الى ٥٠٠ آلة خلال عامين (باذن الله) وقد صنعت بناء على ما ورد فى كتب التراث الاسلامى من أوصافها ورسوبها وبعضها بناء على ما حفظ من الآلات موزعة على متاحف العالم والتى لم تقتصر عموما على الآلات الفلكية » أ . هـ

وهكذا نستطيع أن نسجل هنا هذه المرحلة الجديدة من تاريخ (**استرداد الحق الضائع الذى اخفاه الغرب هذه القرون الطويلة**) من أجـل دعـواه المدعاه فى تخلف المسلمين وابقائهم فى دائرة التبعية والاحتواء وحتى لا يكونوا قادرين على استئناف حضارتهم أو اعادة امتلاك ارادتهم من جديد .

ولا ريب قد كانت مؤامرة الصمت ترمى الى تخريج أجيال مسلمة وعربية ذليلة منكسة الرءوس حيث ترى أن العلوم التى نتعلمها واحدة من الغرب بينما هى فى الحقيقة وفى الاساس من عمل الاباء والاجداد من المسلمين والعرب الأولين الذين اقاموا المنهج العلمى التجريبى ثم اهدوه الى الغرب الذى لم يعترف بالجميل وادعى انه صاحبه .

يقول الدكتور فؤاد سزكين : ان هزيمتنا الداخلية مصدرها نكران الامة لذاتها وضعف ثقتها فى تاريخها فعلى المسلمين أن يعيـدوا ثقتهم بأنفسهم وبتاريخهم على الانسانية » .

ولعل هذا كله يمضى مع مطالع العقد الثانى من القرن الخامس عشر الهجرى ليكشف عن قدرة هذه الامة على تصحيح الاخطاء وتحرير القيم وكشف زيف مقدرات الغرب الزائفة التى حاول أن يدمر بها (أصولية المنهج الاسلامى) بما بثه من خلال الاستشراق والتبشير والتغريب فى مختلف المجالات ومحاولة احياء الفكر الباطنى والشعوبى والفلسفى وهجوم القوى الهدامة الجديدة : (الماسونية والقاديانية والبهائية) .

ولكى يقرأ شبابنا هذه الخطط ويتابع فقد نشرت فى السنوات الأخيرة كشوف هامة فى مقدمتها :

١ — الرد على الدهريين لجمال الدين الافغانى .

٢ — الغارة على العالم الاسلامى للسيد محب الدين الخطيب .

٣ — التبشير والاستعمار للدكتور عمر فروخ .

٤ — بروتوكولات صهيون .

٥ — أحجار على رقعة الشطرنج .

٦ — لعبة الامم .

لقد كشف جمال الدين عن مؤامرة النيشيرية التى بثتها بريطانيا بين مسلمى الهنـد . وكشـف محب الدين الخطيب مؤامرة التبشير ومؤتمراته ومخططاته وكشف الشيخ مصطفى عبد الرازق موقف الاسلام من الفلسفة اليونانية وكشف عبد القادر عودة عن الفرق بين الشريعة الاسلامية والقانون الوضعى . وكشف الدكتور ضياء الدين الريس كيف أن كتاب على عبد الرازق لم يكن الارساله اليهودى (مرجليوث) .

ولم تكن رسالة طه حسين عن الشعر الجاهلى الا هامشا على متن ربنـان ومرجليوث لانكار صلة الشعر الجاهلى بتفسير القرآن الكريم .

فاذا ذهبنا نكتشف العطاء الاسلامى وجدنا :

١ — نظرية الاخلاق الاسلامية للدكتور محمد عبد الله دراز .

٢ — النظريات السياسية للدكتور ضياء الدين الريس .

٣ — الفكر الفلسفى فى الاسلام للدكتور على سامى النشار .

ثم نجد اضافات جديدة فى مجال اسلمه العلوم والمناهج كان رائدها الشيخ محمد المبارك = نظرية اسلامية فى علم الاجتماع .

وحسن الشرقاوى — نظرية اسلامية فى علم النفس .

والمنهج الاسلامى للأدب للدكتور حسن الباشا .

والمنهج الاسلامى للادب للدكتور حسن الباشا ومصطفى عبد الرازق كتابات الامام الشافعى ، فى الرسالة هى اول معطيات الفلسفة الاسـلامية

هذا بالاضافة الى (موقف الدين والعلم من رب العالمين) لشيخ الاسلام مصطفى صبرى والعامية لنفوسة زكريا الى كتابات الاعلام : محمد اقبـال حسن البنا ، محمد محمد حسين — محمود محمد شاكر — مالك بن بنى ، عبد الحليم محمود المودودى الندوى ، عبد الحميد بن باريس الخ الخ وكلها تصحيح للمفاهيم ودحض لشبهات الغرب .

هذا وبالله التوفيق ...

آفاق البحث

الموضوع	الصفحة

رقم الايداع بدار الكتب

٥٤٨٠ / ١٩٩١

I. S B. N.

977 - 211 - 021 - 0

مطبعـــة دار شـــمس المعـــرفة